Qur'anic Studies (2) دروس قرآنية (٢)

القرآن والكتاب

The Qur’an and the Book

يوسف درة الحداد

Professor Youssef Durrah al-Haddad

الكتاب الأول : بيئة القرآن الكتابية

Book One : The Clerical Milieu of the Qur’an

Arabic

www.muhammadanism.org

September 4, 2010

دُروس قرانية

٢

القرآن والكتاب

* بيئة القرآن الكتابية

** أطوار الدعوة المكية

دُروسٌ قُرآنيّة

٢

القرآن و الكتاب

١ ـ بيئة القرآن الكتابية

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »

(الإسراء ٨٥)

« قل إنما يوحي إليّ إنما إلهكم واحد: فهل أنتم مسلمون؟ »

(الأنبياء)

الأستاذ يوسف درّة الحداد

القسم الأول

بيئة القرآن الكتابية



«وقلْ آمنتُ بما أنزل الله من كتاب »
(شورى ١٥)
«أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ...
« أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتدِ ! »
(الأنعام)

إهــْداء

إلى بني قومي العرب ،

من مسلمين ومسيحيين ،

أهدي كتابي هذا

((القرآن والكتاب))

معنى الإهداء

أهدي كتابي هذا إلى المسلمين منهم،

لكي يتذكروا، وسط الإلحاد الجارف، أنهم أهل القرآن، دين التوحيد الفطري الذي نزل بين أهل الفطرة من بادية الحجاز يهدي إلى الصراط المستقيم الذي دعا إليه عيسى المسيح من قبل: « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بني إسرائيل: أني قد جئتكم بآية من ربكم ... فاتقوا الله وأطيعونِ: إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم » (آل عمران ٤٨ ـ٥١)، واستقام عليه المسيحيون المقسطون الذين جعلهم القرآن شهوداً مع الله والملائكة على التوحيد المنزل: « شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم ـ قائماً بالقسط ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (آل عمران ١٨) . وأولو العلم المنزل هم أهل الذكر الحكيم وأهل الكتاب الأقدس، كما يسميهم في مواضع شتى (عنكبوت ٤٩ بقرة ١١٩ حج ٥٤ إسراء ١٠٧) بحسب تفسير الجلالين (سبأ ٦ رعد ٤٥). وهكذا رفع القرآن شهادة المسيحيين للتوحيد إلى مقام شهادة الملائكة، ومقام شهادة الله جلّ جلاله؛ وسماهم « أهل » كتاب الله أي أصحابه من دون العالمين.

وأهدي كتابي هذا إلى المسيحيين منهم

لكي يذكروا أنهم وأهل القرآن أمة واحدة في توحيد: « إن هذه أمتكم أمة واحدة » (أنبياء ٩٢ مؤمنون ٥٣)؛ وقد فسره البيضاوي: « إن ملة التوحيد والإسلام ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها: فكونوا عليها أمة واحدة غير مختلفة فيما بين الأنبياء، ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع » . فما جاءَ القرآن إلا « تفصيلاً للكتاب وتصديقاً » (يونس ٣٧).

ويذكروا أيضاً أَنهم ـ وإن زاد الإنجيل على التوحيد تفسيراً منزلاً لحياة الحي القيوم في طبيعته الواحدة الأزلية، الحية المتفاعلة، القائمة على الذات والنطق الذاتي (الكلمة) والحياة الذاتية أو المحبة الذاتية (الروح القدس)، تثليثاً موحِّداً ما كانت البيئة الحجازية البدائية لتقوى على استساغته، بل كان يكفيها القليل من العلم المنزل: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (إسراء ٨٥) ـ ما يزالون، مع هذا التثليث الموحِّد، أهل التوحيد المنزل، وأهل الكتاب الأول الذي يجعل توحيد الله في مكان الأساس من الدين والدنيا.

وأهدي كتابي هذا إلى المسلمين والمسيحيين معاً

لإظهار إسلام القرآن على حقيقته في مصادره وأهدافه، إذ غدا الإسلام الحقيقي غريباً بين أهليه، كما ورد في الحديث.

فالإسلام هو التسليم لله وحده في ضجة الدنيا والجسد والدولة !

والإسلام هو السلام بين الأمم والدول والأديان والثقافات المتنوعة !

والإسلام هو السلامة للفرد والأسرة والمجتمع والبشرية !

والإسلام هو السلم في نفس الفرد والأمة والعالم !

فهذا كتاب يدلنا على مصادر القرآن ومدى صلته « بالكتاب الإمام » (هود ١٧ أحقاف ١٢)؛ وعلى أهدافه الحقة من سلم وسلامة وسلام وتسليم وإسلام !

فبين القرآن والكتاب أي التوراة والإنجيل، انتساب ونسب يصرّح بهما القرآن من أوله إلى آخره: فهو في « زُبر الأولين » أي كتبهم (أعلى ١٨ شعراء ١٩٦)؛ وإذ يعجزونه بطلب آية مثل « الأنبياء الأولين » (أنبياء ٧) يتعجب ويقول: « وقالوا: لولا يأتينا بآية من ربه ؟ ـ أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى ! » (طه ١٣٣): آية محمد أن قرآنه بيان ما في الكتاب الأقدس؛ لذلك يؤمر محمد أن « يقتدي بهدى الكتاب وأهله » (أنعام ٩٠)؛ ويستشهد بهم على صحة قرآنه (رعد ٤٥) ويجعل هذه الشهادة في مقام شهادة الله والملائكة (آل عمران ١٨) ليجمع أهل التوحيد على « كلمة سواء » (آل عمران ٦٤) في « التوراة والإنجيل والقرآن » (توبة ١١١).

ندرس هذا الانتساب والنسب بين القرآن والكتاب:

في بيئة القرآن الكتابية	**(القسم الأول)**
ثم في تطور طريقة الدعوة القرآنية بالنسبة إلى الكتاب	**(القسم الثاني)**
ثم في تعليم القرآن بالنسبة إلى الكتاب في عقيدته وشريعته وصوفيته	**(القسم الثالث)**

وقصدنا من وراء هذه الدروس جمع الموحدين جميعاً، في معركة المصير الدائمة، القائمة اليوم على أشد ما تكون احتداماً بين الإلحاد من جهة، والإيمان بالله من الجهة الأخرى، كما جمعهم القرآن في آخر آية من آخر سورة نزلت:

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة !

« يقاتلون في سبيل الله فيُقتلون ويَقتلون !

« وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » (براءة ١١١) .

فهرست القسم الأول

صفحة

مقدمة

« هذا ذكر مَن معي وذكرَ من قبلي »

أنبياء ٢٤

القرآن أحد كتب الدين التي تقود شطراً غير يسير من البشرية: فلا بد لمن يستطلع أحوال البشر عبر الحياة والتاريخ من أن يدرسه.

القرآن هو « الكتاب المقدس للمسلمين المنتشرين في كل صقع من أصقاع الأرض. والذين تتمثل فيهم شتى أممها. فيه أصول دينهم وشرائع حياتهم ... في مختلف شؤونهم الدينية والدنيوية، الروحية والمادية، العامة والخاصة، السياسية والقضائية والاجتماعية والشخصية والإنسانية[1] » . فلا بد من معرفة مصدر إلهامهم لفهم شخصيتهم.

الدين الإسلامي دعوة إلى التوحيد. وخاب فالَ من ظن أن حركة هذه الدعوة قد خبت. إنما الدعوة الإسلامية حركة دائمة. فلا بد لفهم هذه الدعوة وهذه الحركة من معرفة القرآن باعثها ومحييها.

الإسلام بعد الحرب الكونية الأولى والثانية، « على مفترق الطرق[2] » ؛ يتلمس طريقه، بين التيارات الفكرية العالمية من شرقية وغربية؛ ومهما « شرّق » أو « غرّب » فلن يحيد عن نبع قوميته وحياته وسيادته وروحانيته: القرآن الكريم. إلى هذه القاعدة يعود، ونحنُ نعود معه.

---

(١) محمد عزة دروزه : القرآن المجيد ٥.
(٢) الإسلام على مفترق الطرق : نقله إلى العربية الدكتور عمر فروخ.

الإسلام يقدم القرآن « وحياً » من الله ؛ ويجعل القرآن ذاته معجزة على صحة وصدق هذا الوحي، بل معجزة المعجزات الإلهية التي تؤيده، على حد قول ابن خلدون في مقدمته: «أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالةً القرآن ... لاتحاد الدليل والمدلول عليه » ؛ فيجب أن يظهر هذا الإعجاز في « تعاليم القرآن » قبل أن يظهر في فصاحة ألفاظه وبلاغة تعابيره؛ قال العتابي: « الألفاظ أجساد والمعاني أرواح » . فالروح أسمى من الجسد، والجسد أثمن من اللباس.

إذا كان القرآن معجزةَ المعجزات، فهو كذلك، قبل كل شيء، في تعاليمه.

*

سنتصفح القرآن الكريم لكي نرى هل في تعليمه من العظمة والجلال، والوضوح والانسجام، والعمق والسمو؟ .. هل فيه من معجز الحكمة وعبقرية التعليم؟ .. هل في « روحانيته » تلك المسحة الإلهية التي ترغم بإعجازها الإنس والجن على الإقرار بالمعجزة الإلهية ؟

قد لا تكون المعجزة في التعليم ذاته بل في طريقته الجديدة. فهل سبق محمد غيره إلى هذا التعليم؟ هل فاق غيره في بلاغه تبليغاً لا نظير له ويشهد له بالعبقرية والمعجزة؟ رُبّ تعليم كالتوحيد، منقولٌ عن الأنبياء بالتواتر؛ لكن قد يكون في أسلوب بيانه وتبيينه عبقرية نبوية في البلاغ والتبليغ. فهل في الطريقة القرآنية معجزة المعجزات؟

وقد لا يكون التعليم جديداً معجزاً في حد ذاته؛ وقد لا تكون طريقة تبليغه جديدة؛ فهل في ظروف الزمان والمكان والأشخاص والأوضاع ما جعله ضروريّاً سماويّاً معجزاً: فهل وحي القرآن في صحراء الحجاز معجزة إلهية ؟

كيف أَمكن الحجاز، تلك البيئة القاحلة أن تنبت هذه الزهرة اليانعة، القرآن؟ هل هيّأت بعثه وانتشاره أديان شبه الجزيرة ؟ (القسم الأول)

ترتيب تاريخي لسور القرآن، وتحليل سريع لها يظهران لنا تطور الحياة الفكرية عند نبي القرآن، ويعطيان لنا صورة عن طرائق محمد في تعليمه. (القسم الثاني)

لقد توجد المعجزة في العقيدة وأصول الدين: فهل جاء القرآن بلاهوت سماوي لا حدَّ لسموه، فلا يمكن تفسيره إلاَّ بالمعجزة الإلهية ؟ (القسم الثالث)

وقد توجد المعجزة في الشريعة وأصول الأحكام: فهل في تشريع الإسلام الديني والاجتماعي والسياسي معجزة إلهية ؟ (القسم الرابع)

عندما نأتي على نواحي البحث المتعددة نقدر أن نستخلص مميزات القرآن بين الكتب المنزلة، تلك التي تجعله، على حد قولهم، معجزة المعجزات الإلهية بين الأديان السماوية.

« ويقول الذين كفروا: لستَ مرسلاً ! ـ قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومَن عندَه عِلْم الكتاب » (رعد ٤٥).



القِسْمُ الأول

أديان شبه الجزيرة قُبيل الإسلام

« واللهِ ربّنا ما كنا مشركين »

أنعام ٢٣

« ولئن سألتهم : مَن خلقهم ؟ ليقولَنَّ الله ! »

زخرف ٨٧ زمر ٣٨ لقمان ٢٥ عنكبوت ٦١

« إِنا كنا من قبله مسلمين »

قصص ٥٣

تمهيد

ظهور الإسلام في الحجاز معجزة إلهية ؟

من معجزات رسالة محمد، كما يقولون، أنه نادى بوحدانية الله في الجاهلية الجَهلاء، وخاصة في الحجاز المنعزل القاحل، في محيط متعصّب للوثنية والشِّرك حتى الاضطهاد: «اجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب! » (ص٥). فظهور التوحيد في الحجاز معجزة.

ومن معجزاته أيضا، كما يقولون، إعجاز القرآن وهو « النبي الأمي » . فكيف أمكن الحجاز، تلك الصحراء المحجوزة عن كل اتصال خارجي، التي لا يسكنها سوى قوم بدائيين، من الوثنيين أو المشركين؛ أجل كيف أمكن تلك البادية البدائية أن تنبت هذه الزهرة اليانعة: القرآن ؟ إنه معجزة المعجزات !

ومن معجزاته أيضاً، كما يقولون، نجاح دعوة الإسلام في وسط الشِّرك الحاكم المتحكّم، وهو اليتيم الفقير، والوحيد الطريد الشريد. وحده دعا الحجاز فالجزيرة كلها إلى الإسلام فأسلمت: إنها لمعجزة إلهية تكفي وحدها، دون غيرها، لتشهد بصحة رسالة « النبي الأمي » وصدق نبوّته !

الإسلام والقرآن ومحمد، معجزات ثلاث في البيئة الحجازية, ولقد قال أديب الإسلام الكبير، حسين هيكل في (حياة محمد) لمَّا نقل القول المأثور بالتواتر: « إن كتاب الله هو وحده معجزة محمد[1] » .

*

---

(١) حسين هيكل : حياة محمد ١٥٧ .

ولكن القرآن ذاته يشهد بقيام الدعوات التوحيدية في الحجاز ذاته قبل القرآن: « إن الذين آمنوا (المسلمين) والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا (من العرب): إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، إن الله على كل شيء شهيد » (الحج ١٧). ويذكر أن هذه الدعوات التوحيدية، مع اختلافاتها، تتفق في الجوهر على إيمان واحد بالله واليوم الآخِر، ويصرّح بأن هذا وحده يكفي: « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (بقرة ٦٣) فهل يخاطب قوماً غير موجودين؟ وهل يذكر قوماً لا وجود لهم في البلاد ؟

لا، بل إن محمداً في دعوته ينتسب منذ البداية إلى الكتاب وأهله: « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » (الأعلى ١٨ و ١٩). ويطلبون منه آية ليؤمنوا، فيكتفي بالقول إن آيته تبليغهم ما في الصحف الأولى: « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ؟ ـ أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى؟ » (التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية: البيضاوي). وإذا استنكروا تعليمه أحالهم على أهل الكتاب: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزُّبُر » نحل ٤٣. وإذا أنكروا قرآنه الذي يصدّق الكتاب بينهم صاح بهم: « فأتوا بكتاب من عند الله أهدى منهما أتبعه » . ويستشهد بأهل الكتاب على صحة تعليمه وكتابه: « قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده عِلْم الكتاب » (رعد ٤٥): فهل يستشهد بقوم لا وجود لهم ولا قيمة لشهادتهم ؟

*

جاء محمد ليعلّم قومه التوحيد أي الإيمان بالله لا شريك له واليوم الآخر: « وانه لذكر لك ولقومك » (أنبياء ٢٤). وهذا الذكر الجديد استمرار للذكر الأول: « هذا ذكر مَن معي وذكر مَن قبلي » (أنبياء ٢٤). هذا ما علمه الأنبياء والمرسلون قبله (أنعام ٨٤ ـ ٨٨)؛ ونرى من التاريخ العام والقرآن نفسه أن التوحيد الكتابي قد انتشر في شبه جزيرة العرب، وفي الحجاز نفسه، انتشاراً أوشك أن يهزم الوثنية العربية أي الشرك[1] ،

(١) « وثنية العرب » لها في القرآن اسم خاص « الشِّرك » . فهي ليست كالوثنية عند الأمم التي تجهل الله . إنها عند العرب الشرك ، أي يُشركون في عبادة الله غيره من خلقه : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (يوسف ١٠٦) أي ما يوحّدوني إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي (الجلالان والبيضاوي) ـ وهذا التصريح القرآني وحده يكفي للدلالة على أن عرب مكة والحجاز كانوا يعرفون الله ويعبدونه ولكن أكثرهم يشركون معه في العبادة غيره .

قبل مجيء محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي. يدلنا على ذلك مدى انتشار اليهودية والنصرانية والحنيفية العربية في أطراف الجزيرة، وفي قلب الحجاز.

لقد انتشرت الجاليات اليهودية والنصرانية في مدن الحجاز كلها: مكة والمدينة والطائف. ولما دعا محمد إلى الإسلام، دين التوحيد، أجابه أهل الكتاب بشهادة القرآن: «والذين آتيناهم الكتاب من قبله (القرآن) هم به يؤمنون، وإذا يُتلى عليهم قالوا: آمنا به. إنه الحق من ربنا. إنَّا كنَّا من قبله مسلمين » (قصص ٥٣)، أي موحدين (الجلالان).

نشر أهل الكتاب دعوة التوحيد في الحجاز، وفي مكة عاصمة الشرك، حتى زالت روح الوثنية منها وكادت تقضي على الشرْك بين العرب. وقد نقل لنا القرآن حالة العرب الدينية قبله في قوله: « وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون » (يوسف ١٠٦): الفريق الأكبر يؤمن بالله ولكن يشرك به ، والفريق الآخر يوحّده ولا يشرك به: فالتوحيد الخالص موجود في مكة ـ بشهادة القرآن المكّي ـ قبل محمد والقرآن والإسلام.

وينقل لنا القرآن أيضاً دهشة العرب من اتهامهم بالشرك، وأيمانَهم بأنهم لا يشركون: « واللهِ ربنا ما كنَّا مشركين » (أنعام ٢٣).

وقد أثبت حسين هيكل في (حياة محمد)[١] إن وثنية العرب ـ بفضل الدعوات التوحيدية التي سبقت القرآن في الجزيرة والحجاز ـ أمستْ شكْلية: فقد زالت قداسة الأصنام من نفوس القوم حتى تفرّقوا في البلدان يطلبون ديناً غير شرْك قومهم الرسمي حول الكعبة[٢] . فتأسست في الحجاز جماعات توحيدية غير كتابية يتّبعون ما يسمونه « صحف إبراهيم » و «مجلة لقمان » وغيرها، وانتشرت بين القوم الروح التوحيدية الحنيفية المستقلة كما يشهد بذلك الشعر الجاهلي، وحركة الحنفاء.

وهكذا فقد تأثرت البيئة الحجازية مثل غيرها، وتأثر محمد نفسه بهذه الدعوات التوحيدية، وحفظ لنا القرآن الكريم صدى هذه التأثيرات[٣] .

---

(١) حياة محمد ٨٩ .
(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٧ .
(٣) قابل: عزة دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢٩٦ .

الفصل الأول

التوحيد التوراتي في الجزيرة والحجاز

« ومن قبله كتاب موسى إِماماً »

أحقاف ١٢ وهود ١٧

« يطوفون البر والبحر ليكسبوا ولو دخيلاً واحداً »

إنجيل متى ٢٣ : ١٥

« وهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد »

حسين هيكل : حياة محمد ٢٩٦

الجزيرة العربية بلد « الترانزيت » بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب

لم يكن شبه جزيرة العرب ـ والحجاز ـ بمعزل عن العالم المتمدين والمتديّن، ولو كانت صحارى الحجاز قد حجزتْه عن الغزو الأجنبي السياسي. بل كان صلة الوصل بين الشرق (الهند) والغرب (حوض البحر المتوسط). فحملتهم طبيعة بلادهم القاحلة وموقعها الجغرافي الوسط، وطريقة معيشتهم من حَلّ وترحال دائم، على أن يكونوا أهل تجارة «الترانزيت » بالفطرة.

وقد حَبَتِ الطبيعة بلادَهم بالجِمال، سفن البرّ إلى اليوم، حتى عدَّ القرآن « الأنعام »[1]

---

(١) الأنعام: الإبل والبقر والغنم (الجلالان في نحل ٥) ـ والآية ٨٠ من سورة النحل بتعدادها أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها تبين المقصود من لفظة « أنعام » .

من نِعم المولى عليهم: «ومن الأنعام حمولةً وفرشاً: كلوا ممَّا رزقناكم» (سورة الأنعام ١٤٢). «والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنها تأكلون. ولكم فيها جَمَال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِق الأنفس: إن ربكم لرؤوف رحيم» (نحل ٥ ـ ٨). وفي الأنعام عبرة من معجزات الخليقة: «وان لكم في الأنعام عبرة: نسقيكم مما في بطونه[١] من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين (نحل ٦٦)؛ وجعل لكم من جُلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظَعنكم ويوم إقامتكم؛ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» (٨٠)

هذه الرحلات التجارية قد ساعدت كثيراً عبر التاريخ على الهجرات العربية الموسمية نحو الشمال إلى «الهلال الخصيب» ، موطن أحلام ساكني الصحراء.

وقد حفظت لنا الأخبار هجرة عرب الجنوب نحو سوريا بعد خراب سدّ مأرب. وما الغزوات والفتوحات الإسلامية في «الهلال الخصيب» إلا امتدادٌ لتلك الرحلات والهجرات، زادها تدفقاً روح الدين الجديد، وعصبيّة التجمع القومي الإسلامي الشديد.

وطرق القوافل كانت تخط الجزيرة من أطرافها الأربعة: شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً. وامتاز عرب الجنوب بتجارة «الترانزيت» بين الهند ومصر ودول «بحر الروم».

وأسسوا لهم مستعمرات في شمال الجزيرة على خطوط المواصلات أصبحت مع الأيام لها مكانتُها: أنباط البتراء وعرب تدمر، ثم غساسنة بصرى ولخميو الحيرة ؛ وكان منهم آل يثرب في الحجاز، وآل كندة في نجد.

وبعد خراب سد مأرب، الذي سبب كارثة اقتصادية تاريخية في حياة العرب، استفاق الحجاز[٢] في القرنين الخامس والسادس، وأخذ نصيبه الوافر من هذه التجارة، فنتجت من ذلك نهضة الجاهلية الاقتصادية والأدبية والدينية عند بني عدنان.

---

(١) العائد المفرد «في بطونه» يعود إلى الجمع «في الأنعام» .
(٢) الحجاز معناه على الأرجح الحاجز بين (يمين) الجزيرة وشمالها.

وقد برَّز ، في الحجاز، أهلُ مكة في الاتصال ما بين الهند والبحر، والجنوب العربي والشمال. وجاءت في الطليعة قبائل قريش.

وشق لقريش الطريقَ جَدُّهم الأول قصي بين كلاب. ثم قام فيهم زعيم ـ سموّه هاشماً فيما بعد ـ سنَّ لهم الرحْلتين: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، اللتين تغنَّى بهما القرآن وعدَّهما من أمجاد قريش ومن آلاء ربّ البيت عليهم: « لإيلاف قريش: إيلافهم رحلة الشتاء والصيف: فليعبدوا رب هذا البيت، الذين أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (سورة قريش).

وَرَدَ في سيرة ابن هشام أن هاشماً المذكور كان اسمه عمراً. وما سمّي هاشماً إلا لِهَشمه الخبز لقومه وإطعامهم إيَّاه ثريداً[1] كما يفعل زعيم كل قافلة تجارية.

وما لُقِّبت قريش باسمها إلا لأنها كانت « تقرش » أي تتاجر بالقروش أكثر من غيرها حتى صارت اللفظة معنى ومبنىً سِمَة واسماً لها[2] .

وكان أعمام النبي محمد، من بني قريش، يتجرون مع كل الجهات: هاشم مع الشام وقد هلك بغزة. وعبد شمس مع الحبشة. والمطّلب مع اليمن. ونوفل مع العراق. وهم أصحاب الإيلاف من قريش[3] .

وتنتقل لنا السيرة أيضاً أن محمداً بن عبد الله الهاشمي القرشي قد اتخذ منذ صغره مهنة قبيلته وقومه من رعي وتجارة، فرحل مع عمه أبي طالب، ثم رحل للثرية خديجة بنت خويلد التي تزوجها في ما بعد فأغنته عن التجارة والأسفار.

والأسفار والرحلات أكبر واسطة، خصوصاً قبل الطباعة، لنقل الأفكار والآراء، والدعوات والدعاوات. وكانت الأديان تنشر بهذه الطريقة.

تلك حركة دائمة من داخل إلى الخارج.

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٤٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المحبر ١٦٢ ؛ وسيرة ابن هشام ١ : ٤٧ . قابل الدكتور ناصر الدين : مصادر الشعر الجاهلي.

يقابلها حركة معاكسة من الخارج إلى داخل الجزيرة بغزو القوافل والقبائل والدول المجاورة. فما بين المسيح ومحمد ـ إن لم نقل من قبل ـ كانت الجزيرة، طريق المواصلات بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، مطمعَ الطامعين. كان يقصدها الهنود والأحباش من أسفل، والفرس والآراميون والروم والمصريون من علُ. وكلما سيطرت دولة على الحياة الدولية في آسيا، كانت تحاول السيطرة على طرق القوافل في الجزيرة، أي طرق المواصلات الوحيدة بين الشرق والبحر في ذلك الزمان.

وقد اغتنم اليهود والنصارى هاتين الحركتين ليتوغلوا إلى قلب الجزيرة بعد أن احتلوا ـ دينيّاً ـ أطرافها لنشر دعوتهم.

اتصال العرب بالعبرانيين عبر التاريخ

كان اليهود، من الناحية الجغرافية، جيران العرب الأقربين، مثل القبائل الآرامية التي كانت منتشرة في سوريا.

وكانت سوريا الطبيعية منذ فجر التاريخ جنة الهجرات العربية ومطمع أحلامهم.

وكان بنو إسرائيل وبنو إسماعيل إخوة من حيث اللغة والقومية.

وإنه لمعلوم إن اللغتين العربية والعبرانية ساميتان، من أصل واحد.

وقد نقلت لنا التوراة أن القبائل المتحدّرة من إسماعيل بن إبراهيم[1] قد سكنت شرقي كنعان أي فلسطين إلى تيماء في قلب الجزيرة العربية.

ونقلت التوراة وعد الله لإبراهيم: « وأما إسماعيل فقد سمعتُ قولك فيه وهاءَنذا أباركه وأنميه وأكثّره جداً جداً؛ ويلد اثني عشر رئيساً: وأجعله أُمة عظيمة[2] » . ونقلت أيضاً تتميم الوعد: « وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذي وَلَدته هاجر المصرية أَمَة سارة

(١) وقد جعلتها التوراة اثنتي عشرة قبيلة مثل قبائل يعقوب الإسرائيلي حفيد إبراهيم ، وناحور الآرامي ، أخي إبراهيم .
(٢) التوراة: سفر التكوين ١٧ : ٢٠ .

لإبراهيم . هذه أسماء بني إسماعي بحسب أسمائهم ومواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل وقيدار، وأدْبِيل ومَبْسَام، ومشماع ودومة، ومَسَّا وحداد، وتيماء ويطور، ونافيش وقدمة. هؤلاء بنو إسماعيل بحسب أحويتهم وحظائرهم، اثنا عشر زعيماً لقبائلهم. وكانت مساكنهم من حويلة إلى شور (أي السور) الذي تجاه مصر وأنت آتٍ نحو أشّور قبالة جميع إخوته نزل[1] » .

« قبالة جميع أخوته نزل » تعني قرابة العنصر والجوار. والسور المذكور « شور » كان يحمي مصر من غزوات الأعراب من إسماعيليين وغيرهم. و « حويلة » منطقة شرقي فلسطين في شمالي الجزيرة العربية. وهكذا كانت منازل الإسماعيليين في جنوب كنعان، من حدود مصر إلى قلب الجزيرة، إلى تيماء التي تُفضي إلى الحجاز. ونقدر أن نعدّهم من العرب المستعربة؛ بل إن التقاليد العربية تجعل إسماعيل جداً للعرب المستعربة.

وقد حفظ القرآن تقاليد العرب القائلة بمجيء إبراهيم وإسماعيل إلى مكة وبنائهم البيت الحرام فيها: « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، وإسماعيل » (بقرة ١٢٧). ونزل القرآن بقول عمر للرسول: « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى » (بقرة ١٢٥). فاليهود بنص القرآن القاطع قد دخلوا الحجاز ومكة منذ إبراهيم وإسماعيل. وسار التقليد العربي القرآني: « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكّة » (آل عمران ٩٦).

وعرّجت قبائل العبرانيين على مساكن الإسماعيليين في سيناء وشرقي الأردن، أثناء خروجها من مصر إلى أرض كنعان[2] أي فلسطين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وكانت المملكة العبرانية، في أوج عزّها، تضم من مدخل حماه إلى شمال الحجاز.

---

(١) تكوين ٢٥ : ١٢ ـ ١٦. ولنا في هذه الفقرة التوارتية نموذج على استفادة كاتب الوحي التوراتي من مصادره الثانوية البشرية : فقوله الأول (هذه مواليد إسماعيل) أثر من المصدر الأول ؛ وقوله الثاني (هذه أسماء بني إسماعيل) أثر من المصدر الثاني؛ وقوله الثالث (هؤلاء بنو إسماعيل بحسب أحويتهم) هو قول كاتب الوحي الملهم الذي آلف بين مصادره تحت سطوة التنزيل .

(٢) جنوب سوريا الغربي كان يسمّى أرض كنعان قبل القرن الثالث عشر أي قبل غزو الفلسطينيين من البحر والإسرائيليين من البر له ، كما كان يسمى شمال سوريا من الغرب أرض آرام ومن الشرب (العراق) أرض آشور .

وكان أسطول سليمان يرسو في خليج العقبة. ومن الراجح أن أوفير التي أبحرت إليها سفن حيرام الفينيقي وسليمان، في طلب الذهب وخشب الصندل والحجارة الكريمة هي ظفار من أعمال عُمان على الساحل الجنوبي من الجزيرة[1] . وفي كتابة لسنحاريب ملك أشور أن قوماً من العرب كانوا بين جيوش حزقيَّا.

ونقرأ في أشعيا النبي، من القرن التاسع قبل المسيح، هذا الشعر المنزل على سطوة القبائل العربية على طريق القوافل:

« وِقْرٌ على العرب:

بيتوا في غاب العرب يا قوافل الدادانيين !

وافوا بالماء للقاء العطشان يا سكان أرض تيماء !

استقبلوا المنهزم من أمام السيوف ،

من أمام السيف المسلول والقوس الموطوءة وشدّة القتال .

لأنه هكذا قال لي السيد الرب: بعد سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار !

وباقي عدد أصحاب القسي من جبابرة بني قيدار يُضحي قليلاً[2] ! »

ولا شك في أنه بعد خراب أورشليم على أيدي الآشوريين (سنة ٥٨٧) هرب قسم من الإسرائيليين إلى بلاد العرب واحتموا فيها واستوطنوا .

وبعد جلاء بابل (٥٣٩ ـ٥٨٧) لما أراد اليهود بناء أسوار أورشليم كان يسخر منهم سنبلَّط الحوراني، وجاشم (قاسم) العربي[3] .

وبعد خراب أورشليم وهيكلها، ودولة اليهود، نهائياً على يد الرومان (سنة ٧٠

---

(١) ملوك الأول ٩ : ٢٧ ـ ٢٨ و ١٠ : ١١ ، ثم أخبار الثاني٩ : ١٠ .
(٢) أشعيا ٢١ : ١٢ ، والدادانيون من ديْدان وهي العُلا الحديثة ، واحة في شمال الحجاز ـ وهم عرب كبني قيدار (في تيماء) Cf. Bible de Jérusalem p. 352, n. e. وكان القيداريون والدادانيون والسبئيون من أمراء القوافل على طرق المواصلات العربية.
(٣) سفر نحميا التاريخي ٢ : ١٩ .

بعد الميلاد) تفرّق اليهود في العالم أيدي سبأ. ولا شك في أن القسم الأكبر منهم استوطن البلاد العربية، جَرْياً على تقاليدهم، لوحدة النسَب والجوار. ولما صارت النصرانية دين الدولة عند الروم هرب اليهود من الاضطهاد، مع مَن هرب من المنشقين على دين الدولة، إلى الحجاز واليمن المحجوزين بالصحاري والبحار عن كل مضطهد والآمنين على اللاجئين إليهما. وصار اليهود « الطابور الخامس » لدولة فارس في الجزيرة كلها.

الهجرة اليهودية إلى الجزيرة

وهكذا، بحسب تقاليد العرب، فالعرب المستعربة أكثرها من وُلد اسماعيل؛ وبحسب شهادة القرآن ترتقي الهجرة الإسرائيلية، إلى الجزيرة والحجاز، إلى إسماعيل وإبراهيم. لذلك كانت الصّلات متواصلة بين الشعبين عبر الأجيال كلها. والشعبان العربي والعِبري مفطوران على التجارة والهجرة.

وبعد خراب الأمة والدولة والمدينة المقدسة والهيكل، واندثار كل مقدسات إسرائيل، هاجر اليهود بكثرة إلى الجزيرة العربية وأنشأوا لهم جاليات قوية في الشمال والحجاز واليمن. وما أطل عصر البعثة المحمدية حتى كانت لهم سيطرة كبرى، ديناً ودنيا، في بلاد العرب. «وقد كانت التوراة متداولة بين أيدي الكتابيين، وخاصة اليهود الذين كان منهم جاليات كبيرة مستقرة في الحجاز كما هو معروف[1] » .

وكانوا ينافسون المسيحيين السيطرة الدينية والسياسية على الجزيرة.

فقد ملأوا مكة واستعمروا المدينة والطائف لصلاحهما للزراعة، واستقلوا في خيبر وفدك، وانتشروا في تيماء وتبوك ودومة الجندل، وتنقلوا في وادي القرى: جاليات غنية زراعية صناعية تجارية، محصنة تحصيناً منيعاً.

وقد استنتج الأستاذ دروزة من تحليل الآيات القرآنية قوله: « لقد اتخذ اليهود يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد. وكان لهم كيان

---

(١) محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ٢ : ١٤ .

بارز ومؤتمر بسبب ما كانوا عليه من كثرة **العدد** وسعة الثروة، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية. ثم بسبب ما كان لهم من مكانة دينية وعلمية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب سماوي وذوو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها ـ على ما فصّلناه من كتابنا عصر النبي وبيئته. وكان السبب الأخير قد جعلهم في مركز المعلم والمرشد والمرجع بل والقاضي لسكان يثرب على ما تُلهمه آياتٌ قرآنية عدة شرحناها في كتابنا المذكور[1] . فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة والقوة النافذة والأثر في حل المشكلات وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز. وقد اندمجوا في الحياة العربية وارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب فكان هذا ممَّا زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوةً وشدة[2] » .

وامتدوا وتوسعوا شمالاً وجنوباً. فقد تغلغلوا بين القبائل الضاربة في شمال الجزيرة والتصقوا بالغساسنة واللخميين. وأسسوا لهم أحياء خاصة بهم في مدن ساحل البحر الأحمر ولكم سيطروا خاصة في اليمن ونافسوا النصرانية سلطانها عليه حتى هوّدوا بعض أمرائها. فقامت الحرب سجالاً بين اليهودية والنصرانية على زعامة اليمن الدينية والسياسية, واضطر الروم والحبشة من الغرب والفرس من الشرق إلى التدخل في شؤون اليمن، وحماية أتباعهم. وقد حفظ لنا القرآن في قصة الأخدود (بروج ٤ ـ ٩) فظاعة اضطهاد ذي نواس الملك المتهوّد لنصارى اليمن، وبالأخص لأهل نجران الذين قتل منهم آلافاً: « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . وان غزوة الأحباش لليمن واستيلاءَهم عليها إنما كان باعثها المباشر اضطهاد نصارى اليمن[3] .

*

أثر الدعوة التوحيدية الإسرائيلية في الجزيرة

كان كبيراً نافذاً. « فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد[4] » . وأينما حلّ اليهود

---

(١) في تفسير الخازن ١ : ١٠٣ ، رواية عن ابن عباس، أن أهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ويرون لهم فضلاً عليهم في العلم يقتدون في كثير من فعالهم.
(٢) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٥٠ .
(٣) دروزة: عصر النبي وبيئته ٤٣٨.
(٤) حسين هيكل : حياة محمد ٢٩٦.

كانوا دعاة توحيد. وقد عملوا كثيراً على نشر التوحيد التوراتي في أَطراف الجزيرة وأواسطها ودخل قوم من العرب في دين موسى؛ فلا تلهم آيات القرآن فيهم أنهم كانوا كلهم أجانب غرباء عن البلاد، بل تُشعر بوحدة دينية قومية بين المسلمين والكتابيين في القرآن المكي. وأكثر من هؤلاء هم الذين تأثروا بالدعوة التوحيدية الكتابية ومالوا عن الوثنية الهمجية إلى توحيد الله وعبادته، وإن لم يتهوّدوا. فخُلق بذلك جوٌّ ملائم للتوحيد.

وعندنا أن الشِّرك العربي ـ كما جاء تفصيله في القرآن ـ نتيجة دعوة التوحيد الكتابية وإن لم تبلغ مداها: فصاروا يعرفون الله الحقيقي ولكن بعداوتهم يشركون في عبادته مِن خَلْقه. وهذا الشِّرك من بقايا الوثنية العربية التي كانت في سبيل الزوال. فقد سيطروا على القوم « إلى أن صاروا يعيّرون العرب جهاراً بوثنيتهم حتى زالت قداسة الأصنام من نفوسهم. وكانوا ينافسون المسيحيين سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلُّب عليهم[١] » .

*

الموسوية دين التوحيد التوراتي

كانت اليهودية القديمة دائماً دين توحيد على أشد ما يكون التوحيد الصارم. فقد أخذ الإيمان بالله واليوم الآخر ينجلي رويداً رويداً من التوراة إلى النبيين إلى الزَّبور إلى الحكمة المنزلة حتى صار التوحيد جزءاً لا يتجزأ من كيانهم. يشهد بذلك الكتاب والقرآن.

فمن تعوّد تلاوة الكتاب كما وصل إلى عهد النبي، وكما هو بين أيدينا اليوم، وجده دعوة صريحة جارفة إلى التوحيد الشديد، وتنزيه الله عن كل شِرك. ومن بعد جلاء بابل (٥٣٨ ـ٥٨٧) أي قبل المسيح بخمس مئة سنة ونيّف، تحت تأديب الرب الصارم بالحروب والاضطهاد النفي والتشريد، كان قد انتُزع من قلوبهم كلُّ أثر أو ميل إلى الوثنية والشرك.

وقد أظهرت غزوات الانطاكيين واضطهادهم لليهود، زمن انطيوخس الرابع (١٦٤ ـ١٧٥) واستشهاد الكثيرين منهم، تعلُّق اليهود بدينهم وتصلبهم في التوحيد.

---

(١) هيكل : حياة محمد ٢٩٦.

وأمسى اليهود، أينما رحلوا وحيثما حلوا، من أكبر دعاة التوحيد. وقد شهد لهم الإنجيل بالغيرة المفرطة في ذلك أنهم « يطوفون البرَّ والبحر ليكسبوا ولو دخيلاً واحداً »[1]. فلا بِدْع إذا طافوا الجزيرة كلها والحجاز، ليجعلوها لهم دار هجرة ومقام وديار تبشير وتوحيد. وقد شهد لهم القرآن أيضاً بهذه الغيرة: « لقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه، وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (سجدة ٢٤ ـ٢٥) .

فلنسمع صوت التوراة أي الشريعة.

إن الوصية الأولى من وصايا الله العشر التي أنزلها على موسى الكليم، وسط البروق والرعود هي التوحيد الشديد الذي لا مثيل له :

« أنا الله إلهك ... فلا يكن لك آلهة أخرى تجاهي !

لا تصنع كل منحوت ولا صورة شيء مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من أسفل، ولا مما في المياه من تحت الأرض !

لا تسجدْ لهن ولا تعبدهن ... لأني أنا الله إلهك ... » (خروج ٢٠ : ٢)

ولنسمع صوت النبوة من فم أشعيا:

« قبلي لم يصوَّر إله، وبعد لا يكون !
أنا، أنا هو الله ! وليس غيري مخلِّص ! » (٤٣ : ١١)

فقد سخر من الوثنية والشرك بأبيات من الشعر الملهم وآيات من الوحي المنزل لم يُسمع لها مثيل:

« بمن تشبهون الله ؟ وأيّ شبه تعادلون به ؟؟

الصنم يسكبه الصانع، والصانع يغشّيه بالذهب، ويصوغ له سلاسل فضة !

والفقير ينتخب خشباً لا يسوّس، يطلب صانعاً ماهراً لينصب صنماً لا يتزعزع! » (٨٠ : ٨)

« أخبروا بالآتيات في ما بعد فنعرف إنكم آلهة !؟

(١) انجيل متى ٢٣ : ١٥ ـ وأعمال الرسل تحوي عنهم هذه الشهادة: « إن موسى منذ الأجيال القديمة في كل مدينة وعّاظه يتلونه في المجامع كل سبت » (١٥ : ٢١) .

افعلوا خيراً أو شرّاً فنلتفت وننظر معاً.

ها أنتم من لا شيء! وعملكم عدم! رِجْسٌ هو الذي يختاركم!! (٤١ : ٢٣)

« ليخزَ خزياً المتكلون على المنحوتات!

القائلون للمسبوكات: أنتنَّ آلهتنا! » (٤٢ : ١٧)

وما ألذع هذا التهكم بالوثنيين وأصنامهم:

« الحدّاد يصنع قدوماً يقلبها في الجمر، ويهيئها بالمطارق ويصوغها بذراع قوله ...

النجار يمدّ الخيط ويُعْلم الخشب بالمغرة ويسوّيه بالمِنْحَت ويرسمه بالبركار ...

ويقطع له أَرزاً ويأخذ السرو والبلوط ، ما كان للإنسان وقوداً

يأخذ منه ليصطلي! أو يوقده لكي يخبز خبزاً! أو يعمل منه إلهاً ويخرّ له! يصنع منه تمثالاً ويسجد له!

يحرق نصفه بالنار! على نصفه يأكل لحماً! ويصنع بقيته إلهاً! تمثالاً له ويسجد له!

يخرّ ويصلي إليه ويقول: أنقذني فإنما أنت إلهي!

لا يتأمل في قلبه! لا عِلم له ولا فهم، فيقول: إني أحرقت نصفه بالنار، وخبزتُ خبزاً على جمره، شويتُ لحماً وأكلت: أأفأصنع من بقيته رِجساً ؟! أفأسجد لجذع شجرة؟! » (٤٤ : ١٣ - ١٩)

ونسمع هتاف التوحيد الوحيد يتصاعد من كل الفصول:

« أنا، أنا هو الله! وليس آخر!! » (٤٥ : ١٧)

ولنسمع صوت الزَّبور، كتاب صلواتهم عبر الأجيال:

« لا شبيه لك في الآلهة، يا الله . ولا مثل أعمالك!
كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك، يا الله ، ويمجدون اسمك:
لأنك أنت العظيم والصانع المعجزات: أنت الله وحدك » (مزمور ٨٥)

ولنسمع أصوات الحكمة المنزلة تتبعهم جيلاً بعد جيل وتقودهم إلى صراط التوحيد:

« إن جميع الذين لم يعرفوا الله حمقى من طبعهم.

لم يقدروا أن يعلموا الكائن من الخيرات المنظورة.

ولم يتأملوا المصنوعات حتى يعرفوا صانعها!

لكنهم حسبوا النار أو الريح أو الهواء ،

أو مدار النجوم أو لجة المياه أو نيّري السماء آلهة تسود العالم !!

فإن كانوا إنما اعتقدوا هذه آلهة لأنهم خُلبوا بجمالها ؛

فليتعرّفوا كم ربّها أحسن منها ! إذ الذي خلقها مبدأُ كل جمال !

أو لأنهم دهشوا من قوتها وفعلها : فليتفهّموا بها كم مُنشئها أَقوى منها !

فإنه ـ على طريق المقايسة ـ بِعِظَم جمال المبروءات يُبصَر فاطرُها .

غير أن لهؤلاء وجهاً من العذر : لعلهم ضلوا في طلبهم لله ورغبتهم في وجدانه ...

أما الذين سموا أعمال أيدي الناس آلهة :

الذهب والفضة ، وما اخترعته الصناعة، تماثيل الحيوان، والحجر الحقير مما صنعته يدٌ قديمة[١] .

فهم أشقياء ! ورجاؤهم في أموات ! ...

إن اختراع الأصنام هو أصل الفسق ؛ ووجدانها فسادُ الحياة !!

إنها لم تكن في البدء ! وليست تدوم إلى الأبد !

لأنها إنما دخلت العالم بحب الناس للمجد الفارغ[٢] . ولذلك قد عُزم على إلغائها من قريب[٣] » .

*

---

(١) « الحجر الحقير مما صنعته يد قديمة » : كم ردّد اليهود هذه الآية في ديار العرب ! وكم ذكروها عند كعبة مكة ! ألا تذكرنا هذه الآية بعبادة الحجر الأسود قبل بعثة محمد ـ كم قالوا لهم إن هذه العبادة لن تدوم وعُزم على إلغائها من قريب !!

(٢) ألم تكن هذه حال سادة مكة مع النبي ؟ أليس في هذه الفقرة خلاصة براهين القرآن وتهكمه بشركهم ؟

(٣) سفر الحكمة ١٣ : ١ ـ ١٠ و ١٤ : ١٢ ـ ١٤ .

تلك هي الأصوات المتعددة المتنوعة التي سنسمعها في القرآن على وتيرة واحدة. ولقد شهد القرآن يهذا الفصل السابق في التوحيد لبني إسرائيل. فهم أهل الكتاب الأول الذين فضّلهم الله على العالمين (بقرة ٤٧) وحصر في ذريتهم الكتاب والنبوّة، (الحديد ٢٦) وجعلهم ورثة الكتاب المنزل و الهدى الرباني : ((و لقد آتينا موسى الهدى ، و أورثنا بني إسرائيل الكتاب : هدىً وذكرى لأولي الألباب)) (غافر ٥٣). وقدّم قرآنه تصديقاً للكتاب: ((وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ مصدّق الذي بين يديه)) (أنعام ٩٢). فليس القرآن على حد شهادته عن نفسه سوى تصديق وتفصيل للكتاب: ((ولكن تصديق الذي بين يديه (قبله) وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين)) (يونس ٣٧). ويشهد أيضاً منذ البدء أن القرآن جملةً وتفصيلاً في الصحف الأولى: ((إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)) (أعلى ١٨) التي يسميها ((زُبُر الأوّلين)) : ((وإنه لفي زُبُر الأوّلين أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟)) (أعلى ٥٧). لذلك ظلّ طيلة حياته يستشهد بهم على صحة رسالته وصدق نبوّته. فإنه قد جعل الكتاب إمامَه منذ البداية حتى النهاية: ((ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً)) (أحقاف ١٢). وبما أن هذه هي قاعدته في تعليمه فهو يردّدها بثقة وبلا ملل: ((ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً)) (هود ١٧)، ((وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)) (يسن ١٢): فإمامة الكتاب في دعوة التوحيد قد وصلت إلى النبي العربي وقرآنه.

فاستشهاد القرآن الدائم بأهل الكتاب، وانتسابُه طيلة العهد بمكة إلى الكتاب، وشهادته على وحدة الإيمان بالتوحيد بينه وبينهم دلالة كافية وافية، لا حاجة بنا إلى سواها على وجود اليهود في الحجاز، ومكة، وعلى ما لدعوتهم من تأثير في المحيط العربي والحجازي والمكّي، وتأثير خاصةً في البيئة القرآنية: ((وهكذا فإن القرآن منذ الوقت المبكّر من العهد المكي أكّد وظلّ يؤكد طيلة العهد وفي مختلف أدوار التنزيل وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية؛ ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب؛ وتأييد القرآن والنبي ص. للأنبياء السابقين والكتب السابقة والتنويه بهم؛ وإنه استشهد وظلَّ يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يُلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية، والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ... ونعتقد أن النبي ص. قد أُلهم هذا الموقف قبل نبوءَته أيضاً إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين في مكة ... صلة ودّ ومبادلة عطف وتصديق. وإن هذا من أسباب هذا الموقف الودي

المتبادل. هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم واستشهاد بهم واعتماد عليهم وتلقين بالوحدة التامة بينهم[1])) .

لقد كان لدعوة التوحيد الكتابي أَثر بالغ في المحيط العربي والحجازي والبيئة القرآنية ((لقد كان اليهود في ذلك الزمن يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني حتى لقد كان العرب أنفسهم يستشيرونهم في أمر محمد عليه السلام[2])) .

ولكن أثر الدعوة المسيحية كان فيها أبلغ.

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣٠٤ .
(٢) محمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ٢٦٢



الفصل الثاني

النصرانية في ديار العرب

« **إنا كنا من قبله مسلمين** »
القصص ٥٣
« **هو سماكم المسلمين من قبلُ وفي هذا** »
الحج ٨٧

بدء النصرانية عند العرب

قبل أن يصعد السيد المسيح إلى السماء أمر تلاميذه قائلاً: « لقد دُفع إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض: فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم (متى ٢٨ : ١٨)؛ اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها » (مرقس ١٦:١٥).

فالرسالة المسيحية رسالة عالمية لا قومية يهودية. لذلك خرج الرسل الحواريون من أورشليم وفلسطين وانتشروا في المسكونة كلها مبشرين بدين المسيح، والتوحيد الانجيلي «جميع الأمم والخليقة كلها » .

كان رسل السيد المسيح ينادون بالتوحيد في البيئات الوثنية، قبل التبشير بالمسيح؛ من ذلك بولس الحواري في نادي آثينا الاريوباغس (أعمال ١٧ : ٢٢ ـ ٣٢)، فهو يبشرهم بالله واليوم الآخر.

وكان من البديهة والطبيعة، بسبب الجوار والعنصر، أن يتجهوا إلى سوريا والبلاد العربية قبل غيرهما.

ويخبرنا بولس الرسول أن أول رسالة قام بها، بعد ما دعاه المسيح بمعجزة « ليبشر به بين الأمم[1] » كانت في « الأعرابية » (غلاطية ١ : ١٧) أي ديار العرب من الشمال حتى الحجاز[2] . ونعرف من رسائل « رسول الأمم » غيرته الوقادة على نشر المسيحية بين الشعوب غير الكتابية. فلا جرم أنه ترك في بلاد العرب أثراً عميقاً للدعوة الإنجيلية.

ولما شخص الرسل الحواريون، وصحبُهم، إلى الهند، لا شك في أَنهم بشروا بالتوحيد المسيحي على طول طريق المواصلات من شرق الجزيرة العربية أو من غربها، من البلقاء إلى الحجاز إلى اليمن فحضرموت فعمان فالهند. وقد جاء في الآثار النصرانية [3] أن يوسى أخا يعقوب ويهوذا الرسولين، بشّر في درعا واستشهد فيها؛ وطيمون أحد الشمامسة السبعة دعا في بصرى وصار أسقفاً عليها؛ ويوسف الرامي الذي قام بدفن السيد المسيح نادى في العشر المدن من البلقاء. وقد حفظت لنا سيرة ابن هشام اسم رسول المسيح الذي نشر دينه في الحجاز: «وكان من بعث عيسى عليه السلام من الحواريين ... ابن ثلماء ، إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز [4] » . والطبري جامع الأحاديث التفسيرية والمفسر الأكبر للقرآن يؤكد أيضاً: « وكان ممن توجه من الحواريين ابن ثلما إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز » . ووافق على ذلك المؤرخ المحقق ابن خلدون. وذاك الرسول يسمى في الإنجيل « برثلماوس [5] » أحد الرسل الحواريين.

وهكذا، بحسب الحديث والسيرة والتاريخ الإسلامي دخل التوحيد المسيحي مع النصرانية إلى العربية والحجاز منذ عهد الرسل خلفاء المسيح.

---

(١) « الأمم » ـ ومنها « الأمّي » كما ورد في القرآن ـ هي الشعوب غير الكتابية. وهو تعبير عبراني انتقل إلى النصارى ومنهم إلى القرآن بلفظه ومعناه : فيهود مكة والمدينة كانوا يقولون عن أهلها العرب : « ليس علينا في الأميّين سبيل » (آل عمران ٧٥) ، والقرآن يخاطب أهل الكتاب والعرب بقوله : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم ؟ فإِن أسلموا فقد اهتدوا » (آل عمران ٢٠).

(٢) المؤرخون العرب (ابن هشام ٤ : ٢٥٥، وابن خلدون ٢ : ١٥٠ ، والطبري ١ : ٧٣٨) يرون في الأعرابية « أرض الحجاز » . وقد تكون في قصد بولس الرسول الولاية الرومانية العربية .

(٣) قابل البطريكأاغناطيوس برصوم : الدرر النفيسة ٨٢ و ٢١١.

(٤) ابن هشام : السيرة ٤ : ٢٥٥ ، والطبري ١ : ٧٣٨ ، وابن خلدون ٢ : ١٥٠ .

(٥) « بارثلماوس » كلمة آرامية مع نهاية يونانية للاسم : « بار » يعني ابن، و « ثلما » نسبه، و « وُس » نهاية يونانية للكلمة .

توطد النصرانية في العربية

مهما يكن من بدء النصرانية في جزيرة العرب، وقصة انتشارها في جميع أقطارها فإنه من التاريخ الثابت أن النصرانية في القرن السادس، أي قبل ميلاد محمد النبي العربي (٥٧٠)، كانت قد توطدت في جميع أنحاء شبه الجزيرة خاصة في أطرافه من الشمال والجنوب. وانتشرت فيه على نطاق واسع حتى كانت لهم فيه كراسي أسقفية، على كل كرسي مطران تحت يده عدد من الكهنة والرهبان؛ وقد ذكر سوزومينوس المؤرخ الرومي أنه كان في العربية أسقف على رأس كل بلدة[١] وقد حضر أساقفة العرب، ومن بينهم « أساقفة المضارب مع زملائهم من كل أمة مجامع الكنيسة الكبرى ووقّعوا محاضر جلساتها. فالمجمع الأول في نيقية (٣٢٥) حضره ستة أساقفة عرب تمكنوا من الحضور. والمجمع الرابع في خلقيدونيا (٤٥١) حضره عشرون أسقفا عربيّاً، وعلى قوله سبعة عشر، قدروا على الذهاب إليه، إذ لم يكن ممكناً أن يحضر المجمع جميع أساقفة العالم بل من استطاع إليه سبيلاً. وهذا العدد من الأساقفة في ولاية أو بلاد لا يتوفر إلا إذا كان هناك شعب يستحق، بعدده وعدَّته ومؤسساته، أن يعطى مطراناً يمثل سلطة موطدة مستقرة مستقلة[٢] .

وقد ذكر مؤرخ النصرانية، أفسابيوس القيصري، من القرن الرابع، إنه في زمن اضطهاد ديو كلطيانس، قيصر روما، « قُتل عدد من الشهداء لا يحصى في بلاد العرب » (ك ٨ : ٢١). ومعلوم إن عدداً كهذا من الشهداء، في أوائل القرن الرابع، لا يكون إلا في بلاد توطدت فيها النصرانية. وقد يكون مؤرخو الروم عنوا « بالعربية » الولاية الرومانية في حوران وشرق الأردن؛ ولكن لا على سبيل الحصر.

وفي بادية الشام انتشرت النصرانية بين قبائلها العرب. ففي سنة ٢٦٠ نقل شابور بعض الأسر المسيحية إلى الحيرة فكانوا دعاة النصرانية فيها وفي جوارها[٣] . وذكر القديس أيرونيموس العالم الروماني المتعبد في بيت لحم، في سيرة الناسك لإيلاريون (٢٩١ ـ٣٧١)

---

(١) راجع تاريخ هذا المؤرخ الثقة، وما نقلته منه مجلة Revue biblique ٤٧٦ / ١٩٣٠

(٢) راجع مجموعة المجامع لصاحبها Héféée-Leclerc ، و مجموعة « مين » للآباء اليونان ١٤٢٦/٦٧.

(٣) *Devresse*: Patriarcat 208-15, et Labourt: le Christianisme dans l'Empire Perse 1-4.

إن عشائر البدو في منطقة غزة كانت تتقرب منه ثم تنصّرت بدعوته[١] ؛ ويروي سوزمينوس أن ماوية البدوية التي حاربت الإمبراطور والنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨) جعلت من شروط الصلح معه أن يعطيها (موسى) الناسك أسقفاً على عربها وإن كان على غير مذهب الملك، فنزل عند طلبها. وروى أيضاً إن راهباً طلب إلى الله أن يُرزق شيخ إحدى القبائل ولداً فاستجاب الله، فتنصّر هو وقومه؛ وكان اسمه زاقوما[٢]. ونقل كيرلس البيساني في سيرة القديس أفتيموس الكبير، وكان ديره شرقي بيت المقدس، أن الصبيبة (Asdabet) ، وهو شيخ قبيلة عربية، كان له ولد مُقعد، فأبرأه القديس بمعجزة فتنصّر هو وعشيرته، وسيم « أسقفا على المضارب وبهذا اللقب وقّع أعمال مجمع أفسس (٣٣١). وبطريك القدس القديس إيليا كان عربيّاً بدويّاً[٣] . وفي القرن الخامس هدى أسقف بعلبك نتّوس Nonnos ثلاثين ألف بدوي[٤] . ومن منارات الهدى لعرب البادية كان قبر القديس سرجيوس (السروجي) في الرصافة، لما كان يتمتع به من الإكرام والحج عند السوريين جميعهم[٥]؛ وعمود القديس سمعان العمودي، في النصف الأول من القرن الخامس، سرّ إخاء البادية بأسرها من الشمال حتى الحيرة حيث كان العرب يفدون عليه زرافات ويتنصّرون[٦] .

وهذا الانتشار الواسع للنصرانية تم يوم كانت الدولة الرومانية سيدة العالم وتواصل اضطهاد النصرانية. فما يكون بعد ما تنصرت، وتمَّ للنصرانية بواسطتها السيطرة التامة الدينية والسياسية على الشرق، وأخذ سلطان دولة الروم يمتد إلى بصرى والحيرة وكندة واليمن؟

ويأتي الأستاذ العقاد في كتابه الأخير « حقائق الإسلام » فينقل عن المؤلف جورج سال مترجم القرآن إلى اللغة الإنكليزية وَصْف حالة المسيحيين في الحجاز وفي سائر الأنحاء القريبة منه فيحصر معظم نصارى العرب في فرقة اليعاقبة، ويمنُّ عليه بأسقفين في باكولة

---

(١) القديس ايرونيموس : حياة ايلاريون ف ٢٥ Vita Hilarionis XXV

(٢) سوزومينوس : تاريخ الكنيسة ٥ : ٣٥ ثم ٦ : ٣٨ .

(٣) *Fliche et Martin* : Histoire de l'Eglise IV, 517 n. 2

(٤) راجع Echos d'Orient 1900, pp. 11-15

(٥) *Jean d'Ephèse* : Hist. VI, 4.

(٦) *Bardy et Bréhier* : Expansion chrétienne IV, 519.

والحيرة. أمَّا النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد. وفاته أن الكاتب يقول: « ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد، أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة لتنظم بهم سياسة الكنائس[1] »

النصرانية دين التوحيد قبل التثليث الموحِّد

والنصرانية، منذ كانت، هي دينُ التوحيد مع قولها بعقيدة التثليث في الطبيعة الإلهية الواحدة. فالتثليث المسيحي الصحيح لا يعدّد ولا يجزّئ اللاهوت الواحد في الله الأحد؛ فالنصرانية أولاً وأخيراً « تؤمن بإله واحد » كما ينص عليه مطلع دستور أيمانها الذي هو شهادتها تحت كل سماء. ومن ثمَّ فالإيمان في ألوهية عيسى ـ لا في تأليه عيسى ـ وفي تأنّسه وتجسّده، لا يزيد شيئاً، ولا ينقص شيئاً من طبيعة الخالق الواحدة: فالمسيح عيسى ابن مريم هو كلمةُ الله الذاتية ألقاها إلى مريم روحاً منه تعالى (نساء ١٧٠) و « الكلمة الذي صار من مريم جسداً وحلَّ في ما بيننا هو الكلمة الذي كان في البدء، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله » (يوحنا ١:١). وإذن فالعقيدتان المسيحيتان، « التثليث والتجسد » ، لا تمتَّان إلى الشِرْك بصلة، إنهما من صميم التوحيد؛ وتعتبرهما النصرانية القويمة، في معناهما الصحيح، تفسيراً منزلاً لحياة الحي القيوم في ذاته السامية كما نزل به الإنجيل. وهذا التعليم «الكامل » لم يكن الرسل الحواريون يبشّرون به لأول وهلة؛ بل كانوا ينادون بالتوحيد ـ «الأركان الأولى لأقوال الله[2] » ـ في ديار الوثنية والشرك؛ وبعد توطيد الإيمان، كانوا يفسرون للمؤمنين غنى الطبيعة الإلهية في تفاعلها اللامحدود، وتسلسلها الذاتي اللامتناهي، على قدر ما يمكن للعقل البشري المحدود أن يستوعب حياة الحي القيوم اللامحدودة[3] .

---

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ـ مصر ١٩٥٧، نشره المؤتمر الإسلامي.

(٢) الرسالة إلى العبرانيين ٥ : ١٢ و ٦ : ١ .

(٣) يقرب من عقيدة التثليث تعليم بعض مدارس المسلمين عن الصفات الإلهية. فهناك مدرسة الصفاتيين التي تثبتُ لله صفات متميزة عن ذاته مع الإقرار بالوحدانية؛ قالت الأشعرية: « إن لله صفاتٍ هي غير ذاته » لكنهم منعوا من التشبيه. وهذا مذهب ابن حنبل. وأورد الأصبهاني وجماعة من أئمة السلف جروا على منهاج الإمام مالك. وهذا أيضاً مذهب أهل السنة والجماعة (مقالة في الإسلام ص ٢٩٧).

سأل يسوعَ أحدُ علماء إسرائيل: « أي وصية هي أولى الوصايا جميعاً؟ » ـ أجابه يسوع بالشهادة الموسوية التي يتلوها اليهود كل يوم: أولى الوصايا جميعاً هي التوحيد الخالص: « الأولى هي، اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا هو الرب **الوحيد**. فأحبب الرب بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك وكل قوتك؛ والثانية هي هذه: أحببْ قريبك كنفسك. وليس من وصية أخرى أعظم من هاتين. فقال له الكاتب: حسن يا معلّم لقد أصبتَ إذ قلت: إنه **الوحيد** ولا آخر سواه؛ وإن محبته بكل القلب وكل العقل وكل القوة، ومحبة القريب كالنفس، لأفضل من جميع المحرقات والضحايا » (مرقس ١٢ : ٢٨ : ٣٤).

ولما مثل بولس الحواري في الأكاديمية الأثينية، في محفل الأريوباغس، وتألب حوله حكماء اليونان وساسة آثينا ـ« وقد اغتاظت روحه فيه لرؤيته المدينة مملوءةً أصناماً فوقف في وسط الأريوباغس وقال: أيها الرجال الأثينيون ... صادفت عندكم مذبحاً مكتوباً عليه: للإله المجهول! فذاك الذي تعبدونه وأنتم تجهلونه، به أنا أُبشركم. إن الإله الذي صنع العالم وجميع ما فيه لا يسكن في هياكل صنعتها الأيدي إذ هو رب السماء والأرض ... وهو غير بعيد عن كل واحد منَّا إذ به نحيا ونتحرك ونوجد[١] ... » وعندما اصطدم بولس الرسول بوثنية الإغريق كتب إلى أهل كورنثس يقول: « من جهة أكل ذبائح الأوثان، نحن نعلم أن الوثن ليس بشيء في العالم. وأنه لا إله غير واحد[٢] . فإنه سواء وُجد في السماء أم على الأرض، ما يقال له « آلهة » ـ ويوجد من هذا النوع آلهة كثيرون وأرباب كثيرون ـ فنحن إنما لنا إله واحد، الآب، الذي منه كل شيء ونحن إليه؛ ورب واحد يسوع المسيح الذي به كل شيء ونحن به » (١ كورنثس ٨ : ٤)؛ فهو يدعو للتوحيد سلباً وإيجاباً ولا يتحرَّج من إظهار ألوهية السيد المسيح ضمن التوحيد المطلق لأنها منه وفيه ولا تنفيه.

وفي المجمع الأول الذي عقده الرسل الحواريون سنة خمسين ميلادية للنظر في ما يجب فرضه على البيئة الوثنية قال يعقوب، أسقف أورشليم الأول: « أَرى أنا أَن لا يُثقَّل على

---

(١) ننصح بقراءة هذا الفصل الرائع بكامله في أعمال الرسل (١٧ : ١٦ ـ ٣٤) ففيه مثال رائع على التبشير بالتوحيد المسيحي في المحيط الإغريقي.

(٢) « لا إلـه غير واحد » أليست هذه الآية هي شعار المسلمين بعد ست مئة سنة من كتابتها: « لا إله إلا الله ؟ » أليست هي سورة الإخلاص بعينها : « قل هو الله أحد » !؟ أي « فنحن إنما لنا إله واحد » .

من يرجع إلى الله من الأمم؛ وإنما يُرسَم لهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والفحشاء والمخنوق والدم » . فصدر قرار المجمع بهذه التوصية: « من الأخوة الرسل والكهنة إلى الأخوة الذين من الأمم، في إنطاكية وسورية وكيليكية، السلام. لقد رأى الروح القدس ونحن أن لا نحمّلكم ثقلاً فوق هذه الأشياء التي لا بد منها: أن تمتنعوا عمَّا ذُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والفحشاء[١]. فإذا صنتم أنفسكم عنها فنعمَ ما تفعلون. كونوا معافين » (أعمال ١٥ : ١٩ و ٢٣).

ويشهد القرآن أن النصارى منذ الحواريين موحِّدين: « ولمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحورايون: نحن أنصار الله ، آمنَّا بالله ، وأشهد بأنَّا مسلمون » (آل عمران ٥٢). وينقل القرآن عن النصارى شهادتهم وزهوهم تجاه الدعوة القرآنية: «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون؛ وإذا يُتلى عليهم قالوا: آمنَّا به إنه الحقّ من ربّنا: إنَّا كنَّا من قبله مسلمين » (قصص ٥٢). هو إسلام التوحيد الكتابي الإنجيلي الذي ينتسب إليه التوحيد القرآني، بلا مراء ولا جدل: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن - إلاَّ الذين ظلموا منهم - وقولوا: « آمنَّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون » (عنكبوت ٤٦): إنها وحدة الإله والوحي والكتاب والأمة !!![٢] .

بحث أول: النصرانية عند الغساسنة

النصرانية في شمال الجزيرة هي السائدة :

كانت قبلة الهجرات العربية أَعالي الحجاز وبلاد الشام. وكانت البيئة مسيحية فخلبتهم بثقافتها الدينية وحضارتها العمرانية، فدانت أكثر القبائل العربية بالنصرانية.

---

(١) قابل سورة المائدة (٣) .
(٢) جاءَت الشهادة الإسلامية « لا إله إلا الله » سلبية ، فنافية الجنس « لا » تنفي وجود إله مع الله ؛ أمّا الشهادة المسيحية « نؤمن بإله واحد » فهي إيجابية، وصيغة الإثبات أثبت في الوحدانية، التوحيد؛ وأصرح.

قال اليعقوبي: « إن قضاعة أول مَن قدم الشام من العرب، فصارت إلى ملوك الروم فملكوهم. فكان أول الملك لتنوخ بن مالك ... فدخلوا في دين النصرانية، فملكهم ملوك الروم على مَن ببلاد الشام من العرب[١] » .

قال المسعودي: « وردت سليح الشام بعد قضاعة فتغلبت على تنوخ وتنصّرت فملَّكها الروم على العرب الذين بالشام[٢] » .

والقبيلة الثالثة التي قدمت الشام وتنصرت فملّكها الروم على عرب الشام هي غسان وبقيت مالكة إلى الإسلام.

قال محمد كرد علي في خطط الشام: إن قبائل عربية كثيرة كانت تنزل الشام بل تشارك دولة الروم في الأحكام. وأشهرها غسان في الجنوب، وتنوخ في الشمال وتغلب في الشرق. وكانت هذه القبائل العربية قد دانت بالنصرانية[٣] .

وطلاَّب التوحيد كانوا يفدون إلى سوريا موطن التوحيد. فقد جعل الحنفاء وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشام وأعالي العراق، أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذٍ؛ وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان[٤] .

ولم تكن بلاد الشام فقط على النصرانية، بل سيطرت النصرانية حتى على الحجاز، في « أطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت الديانة النصرانية هي السائدة [٥] » .

غسان دولة عربية نصرانية

كانت دولة الغساسنة تمتد من أبواب دمشق وباديتها إلى نجد في أواسط شمال الجزيرة. قدم آل جفنة من اليمن في أواخر القرن الثالث الميلادي ـ بعد انفجار سد مأرب، تلك

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٣٤/١.
(٢) مروج الذهب ٢١٦/٣.
(٣) خطط الشام ١٠٥/١.
(٤) الدكتور جواد علي من المجمع العلمي العراقي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٩٩/٢/٥.
(٥) دروزة : سيرة الرسول ١٤٣/٢ .

الكارثة الاقتصادية العربية التاريخية ـ استوطنوا أرض حوران والبلقاء. واتخذ آل جفنة الآرامية لغة لهم كأهل سورية، إلاَّ أنهم لم يهجروا لسانهم العربي الأصلي بل أصبحوا، كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب، من مزدوجي اللغة[١] .

ووجد الروم في آل غسان حصناً منيعاً في وجه البادية، فأمروهم على حدودها لكي يحموا المعمورة من غزوات الأعراب. وكان ذلك في فجر القرن الخامس. وتنصّر الغساسنة على حسب القاعدة القديمة: ((الناس على دين ملوكهم)) .

ولكن النصرانية كانت قد غزت الغساسنة قبل السياسة إذ قد تنصّروا خلال القرن الرابع؛ ويذكر المؤرخ الرومي روفينوس[٢] إنه رُسم مطرانٌ على قبائل غسان منذ سنة ٣٤٧، اسمه موسى.

ونجد في القرن السادس أربعة كراسي أسقفية منتشرة بين الغساسنة والقبائل المتاخمة لهم. ولا ينصبّ مطران في قوم أو في أرض حتى تكون النصرانية قد تأصلت فيها بجميع مؤسَّساتها. وهؤلاء الأساقفة العرب كانوا يُسمّون أساقفة المضارب)) επισχοποι των Παοαμ βολωυ لأنهم كانوا يرحلون مع عربهم.

وهؤلاء الأساقفة العرب هم غير الأساقفة السوريين العديدين القائمين في حوران والبلقاء إلى مشارف الصحراء. فمطران بصرى وحده كان على عشرين أسقفاً.

ومن هذه المناطق، وبواسطة العرب المتنصرين، خاصة من بني غسان، انتشر الدين المسيحي بين سائر عرب الشمال وتوغل إلى قبائل كلب وقضاعة وذبيان وسواها.

ولمَّا مال السوريون الآراميون المقيمون في أَمارات غسَّان إلى المذهب المونوفيسي[٣] ، مال الغساسنة معهم إليه؛ فأولئك الخارجون على دين الدولة احتموا بهؤلاء الأمراء ليسلموا من الاضطهاد؛ وهؤلاء وافقوا أكثرية شعبهم المقيمين بين ظهرانيهم. والحارث الثاني

---

(١) حتي : تاريخ العرب ١٠٢/١ .
(٢) تاريخ روفينوس : ٦/٢ .
(٣) أي مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح .

بن جبلة هو الذي عمل في القسطنطينية (سنة ٥٦٣) على تنصيب يعقوب البرادعي أسقفا على الكنيسة السورية ـ العربية، في حماية ملك غسَّان. وبلغ من غيرة هذا الأسقف أنه أمال أكثرية السوريين والعرب إلى مذهبه حتى عُرف باسمه: الكنيسة اليعقوبية.

« وكما كان لنساطرة الحيرة أثرٌ في العرب المقيمين في تخوم فارس، كذلك كان للمونوفيسيين، وهم يقيمون في أرض غسان، أثر ظاهر في عرب الحجاز[١] » . وقال يوحنا الأفسي: « إن قبائل العرب في سورية كانت متمسكة متعصبة لمذهب الطبيعة الواحدة[٢] » ولكن لم يُجمع أمراء غسان وشعبهم على هذا المذهب ويظهر أن أخوة المنذر بن الحارث كانوا من المذهب الملكي[٣] . ولمَّا انتصر المنذر بن الحارث سنة ٥٧٠ على قابوس ملك الحيرة في عين أَباغ عقد مجمعاً وحرم بدعة المثلثين التي نهى عنها القرآن أيضاً: « ولا تقولوا: ثلاثة » .

وقال النابغة الذبياني يمدحهم:

مجلّتهم ذات الإِله، ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقبِ

بحث ثان: النصرانية في الحيرة عند اللخميين

بعد خراب سد مأرب الشهير نزحتْ أيضاً نحو الهلال الخصيب في شمال الجزيرة العربية قبيلتا الأزْد وتنوخ. ولمَّا توطنت غسان في الشمال الغربي، استوطن آل لخم في الشمال الشرقي. وامتزجت القبيلتان فكان منهما الأسرة النصرانية اللخمية[٤] .

وصادف تأصل الأمارة في آل لخم على الحيرة، اغتصاب آل ساسان الحكم في بلاد فارس (سنة ٢٢٦م).

وكما أَمَّرَ البيزنطيون الغساسنة على حدود إمبراطوريتهم، كذلك أَمَّر الأكاسرةُ آل لخم على حدود دولتهم، لرد غزوات الأعراب عن المعمورة الشرقية والغربية.

وكان سكان الحيرة وما جاورها من سوريين وعرب على دين النصرانية. ولمَّا ظهر

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ١٥٠/١.
(٢) تاريخ ٤ : ٢١ و ٣٦ .
(٣) مجموعة نقوش رايت Wright رقم ٤٦٨.
(٤) قابل الدكتور حتي : تاريخ العرب : ١ : ٨٥ و ١٠٨.

المذهب النسطوري في العراق والعجم مال إليه نصارى الحيرة. وكان عرب الحجاز يسمونهم « العباد » أي عباد عيسى[1] .

ومع أن سواد الرعية كان قد تنصّر من زمن بعيد، فلم تنتمِ الأسرة المالكة في الحيرة إلى النصرانية رسميّاً، مراعاة لشعور ملك الملوك كسرى، خصم قيصر المسيحي.

تسربت النصرانية الآرامية إلى العرب الذين حلّوا بينهم بسهولة. وتنقل لنا الأخبار العربية واليونانية أن عرب البادية والحيرة كانوا يتوافدون على شمال سوريا إلى القديس سمعان العمودي، العربي الأصل، ليشاهدوه ناسكاً على قمة عموده، منفرداً بين السماء والأرض زاهداً في الدنيا، يصلي دائماً ويصنع المعجزات. ومما لا ريب فيه أن دعوة القداسة الخارقة إلى الدين لا تعود خائبة. وكان كسرى ينظر إلى هذه الوفود نظر مستاء. فاضطر أمير الحيرة، النعمان الأول، الملقب بالأعور، وهو مشرك، أن يصرف عربه عن هذا الحج إلى العمودي. فجاءَه القديس في رؤيا يهدّده، فتنصر وسمح بتنصير عربه والحج إلى العمودي.

وينقل لنا الأخباريون أيضاً كيف اجتمع النعمان الأعور بحاكم دمشق، يستوضحه عن سرّ العمودي وسحره على عرب الحيرة، سأله: « هل سمعان إله ؟ فقد عظم شأنه جدّاً بين عشائرنا. وأنهم ما فتئوا يفدون عليه وينقادون إلى وعظه ويخشى شيوخنا أن تؤدّي هذه الزيارات المتكررة إلى دخول قومنا في النصرانية وموالاة الروم بدافع الدين. فمنعتهم. فجاءِني في رؤيا يهددني. فألغيتُ المنع وسمحتُ بالنصرانية. وقد انتشرت بيننا وأصبح لنا أساقفة وقسوس[2] » .

ومن الثابت إن الدين المسيحي وإن لم يربح الأسرة المالكة في مجموعها، بسبب الضغط العجمي فقد ربح بعض ملوكها ودخل فيه أكثر عائلات النبلاء وشاع في عامة العرب أسوة بسواد الشعب السوري أهل البلاد؛ وقد قال الفيروزبادي في هذا الشأن: « إن كثيراً من ملوك اليمن والحيرة تنصروا » . ويظهر بحسب المؤرخ الرومي سوزومنوس إن النصرانية تغلغلت بين العائلة المالكة على أيام الملكة ماء السماء[3] وهند الغسانية.

---

(١) قابل الدكتور حتي : تاريخ العرب : ١ : ١٩٥ .

(٢) راجع : Bardy et Brehier : Expansion chrétienne IV, 512 et Nau : Les Arabes chrétiens 38.

(٣) تاريخ سوزومنوس ك٦/٣٨ .

وكان كلما قامت حرب بين الشرق والغرب، بين الفرس والروم يذهب ضحيتها نصارى الحيرة من سوريين وعرب.

وليس أدل على انتشار النصرانية بين عرب الحيرة وما إليها ـ مع الخوف الرسمي من ذلك ـ ليس أروع من قصة هند بنت الحارث الغساني. تزوجها المنذر الثالث اللخمي ابن ماء السماء فجاءته بدينها المسيحي وأسست في الحيرة تحت أنظار الأمير وعلى مسمع من كسرى أنوشروان ديراً للراهبات بلغ عددهن سريعاً أربع مئة. ولا يمكن أن يجتمع في دير بلدة مثل هذا العدد الضخم من العابدات إلاّ إذا كانت النصرانية قد شاعت في المنطقة.

وقد نقل ياقوت الكتابة التي كانت في صدر الدير: « بنتْ هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر، الملكة بنت الأملاك، وأم الملك عمرو بن المنذر، أمة المسيح وأمّ عبده وبنت عبيدة، في مُلْك ملكِ الملوك خسرو أنوشروان، في زمان مار أَفريم الأسقف. فالإله الذي بنت له هذا الدير يتَرحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها وبقومها إلى أَمانة الحق، ويكون الله معها ومع ولدها الدهرَ الداهر[١] » .

وقامت حرب بين الفرس والروم أبلى فيها المنذر بلاءً حسناً وأوقع بالروم في سوريا واستتبعهم بالغارة تلو الغارة إلى حدود انطاكية. وفي غمرة هذه الغزوات والنزوات، إرضاءً لكسرى، اضطر ابن ماء السماء إلى قتل أولئك الراهبات الأربع مئة فقدمهنَّ ضحية للآلهة العزّى[٢] . فما عتم أن جاءَه انتقام السماء سريعاً للدم البريء ففاز عميل البيزنطيين الحارث بن جبلة في « يوم حليمة » (٥٥٤) على المنذر اللخمي وقتله.

وكثرت الإشارات في الأخبار إلى أساقفة الحيرة العرب في روايات الروم والعرب.

ولما كثر عدد المسيحيين العرب على ساحل خليج فارس أسست الكنيسة لهم خمس كراسٍ أسقفية: في الحيرة وسقط وكَتَرَ والحفحف والبحرين. ثم لما تنازع المذهبان المونوفيسي والنسطوري السيادة الدينية على هذه الأقاليم كان، على أيام النبي العربي، يقيم في المركز الواحد أسقفان. وهذا ثابت في الحيرة. وكان في الحيرة أيضاً دير للنساطرة ودير لليعاقبة.

---

(١) تجدها في « تاريخ مدينة الله إنطاكية العظمى » للدكتور أسد رستم.
(٢) قابل ما جاء في Zacharie et le Rhéteur : Histoire Ecclésiastique VIII et Michel le Syrien II, 178.

وقام النصارى من سكان جنوب الفرات بدور المعلمين للعرب المشركين يعلمونهم القراءة والكتابة والدين[1] ، ومن أمارة الحيرة شعَّ الدين المسيحي وشاع شمالاً إلى تغلب وإياد، وجنوباً إلى بني شيبان وبني حنيفة وبني ربيعة وبعض بطون بكر بن وائل. وتوغلت النصرانية من الحيرة وغسان إلى نجد الشمالي مع بني طيء وثعلبة، وإلى نجد الجنوبي مع بني تميم[2] وقضاعة. وقد يرجع الفضل إلى نصارى الحيرة في إدخال النصرانية إلى نجران في الجنوب[3] . وهكذا نشط نساطرة الحيرة إلى نقل أفكار بني الشمال من أرامية وهيلينية وفارسية إلى قلب الجزيرة مع دينهم المسيحي.

وآخر الأمر، تحت ضغط الشعب والحوادث، تنصرت العائلة المالكة ذاتها. فقد نشأ النعمان الثالث المعروف بأبي قابوس في حجر عائلة نصرانية ذات حظوة عند كسرى أبرويز. وبمساعيها نال أبو قابوس ملك الحيرة واعتنق دين النصرانية. ولم يكن الملك اللخمي النصراني الوحيد فيها[4] فعمرو بن المنذر وهند الغسَّانية كانا نصرانيّين؛ والنعمان بن المنذر تنصر سنة ٥٩٤ على يد الكاثوليكوس حبر يشوع أو كما يقول ابن خلدون على يد عدي بن زيد[5] وآخر ملك على الحيرة، المنذر بن النعمان كان نصرانيَّاً، ورفض الإسلام مع نصارى البحرين ومات وهو يقاتل المسلمين الغزاة. ولمَّا دخل خالد بن الوليد الحيرة كان أيضاً على رأسها أمير نصراني[6] . وظل للنساطرة النصارى أسقف على الحيرة إلى القرن العاشر.

وهكذا انتقل الدين المسيحي إلى شواطئ الفرات والخليج من زمن بعيد. ولما ارتحل اللخميون والمناذرة من جدب الصحراء، ليستقروا في هذه المدائن الخصبة العامرة دانوا به. واختصر أحدهم تاريخ الدولتين العربيتين بقوله: « وكانت دولتا غسان والحيرة نصرانيتين. الأولى منهما كانت من القائلين بالطبيعة الواحدة (مونوفيسية) والثانية نسطورية. وبالرغم

---

(١) حتي : تاريخ العرب ١ : ١١٣ .
(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ١ : ١٥ .
(٣) محمد حسين هيكل : حياة محمد ٣٠ ـ وهناك روايات ثلاث على دخول النصرانية إلى نجران . قيل: جاءتها النصرانية من سوريا، من بطريركية إنطاكية . وقيل من يعاقبة الحيرة أصحاب المذهب المونوفيسي. وقيل تنصّر نجراني في الحيرة وحمل الدين معه إلى بلده وعشيرته .
(٤) حتي : تاريخ العرب: ١ : ١١٣ و ١١٤.
(٥) تاريخ ابن خلدون ٢ : ١٧١ .
(٦) حسين هيكل : حياة محمد ٣٠.

من أنها كانت تابعة للفرس فقد استمدت ثقافتها بصفة رئيسية من الغرب، من حضارة الشام النصرانية والهلينستية. وكان في كلتيهما صبغة من الثقافة الآرامية والهيلينية تسرب بعضها إلى الداخل[1])) .

بحث ثالث: النصرانية في جنوب الجزيرة واليمن

جنوب الجزيرة، العربية السعيدة، اليمن[2] ، هو أقدم موطن للحضارة في شبه الجزيرة كله. وقد ازدهرت فيه الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية لأنه كان صلة الوصل بين الشرق والغرب، بين الهند والبحر. وظل اليمن مهيمناً على طرق القوافل إلى أن اغتصبت رومة منه خطوط المواصلات بتحويلها جزئيّاً إلى البحر وإلى مصر.

قال الأصفهاني: ((ليس في جميع التواريخ أَسقم ولا أخلّ من تاريخ الأقيال ملوك حمير)) لأنه لم يصل إليه وإلينا. ولكن الدروس الأثرية قد عوضتنا بعض الشيء.

قامت في الجنوب الدولة المعينية (١٢٠٠ ـ٦٥٠ ق م) ثم الدولة السبئية (٦٥٠ ـ١٥٠ ق م) ثم الدولة الحميرية الأولى (١٥٠ق م ـ٣٠٠ ب م) فالثانية (٣٠٠ ـ٥٢٥) وكان ملوكها يُكنون ((بالتبابعة)) أو ((تُبَّع)) ، إلى أن استولى على اليمن باسم الحبشة أبرهة الأشرم. وبعد عام الفيل (٥٧٠) استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى فاحتل اليمن إلى أن جاء الإسلام وخلف الجميع. وكانت ديانتهم الوثنية على أساس فلكي. وتركزت على عبادة القمر ((الإله وَد)) وحفظ لنا القرآن اسمَه. واعتبروا الشمس زوجه وابنهما عثتر[3] أي الزهرة. ((وهذا الثالوث الكوكبي يدل، في رأي الباحثين في أديان العرب الجنوبيين، على أن عبادة العرب الجنوبية هي عبادة نجوم. وهو يمثل في نظرهم عائلة مكوّنة من ثلاثة: الأب وهو القمر، والابن وهو الزهرة، والأم وهي الشمس. والزهرة ذَكَرٌ في نصوص المسند أي عند العرب الجنوبيين وتسمّى ((عثتر)) عندهم، وأنثى عند الساميين الشماليين ومنهم العرب الشماليون كذلك. وهذه من جملة الفروق التي نراها بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية[4])) وعلى هذه ((الثلاثية)) الفلكية قاس بعض نصارى الحجاز تثليث النصرانية فكفّرهم القرآن.

---

(١) برنارد لويس : العرب في التاريخ ٥٠ .
(٢) اليمن تأتي من اليُمن أي الخصب لخصبها ولذا سمّاها الأجانب ((Arabie heureuse)) .
(٣) عثتر صار عشتار البابلية وعشتروت الفينيقية .
(٤) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٢/ ١٢١ .

ترتقي علاقات اليمن بأهل الكتاب والتوحيد إلى أيام سليمان بن داود. وزيارة ملكة سبأ له لتسمع حكمته، تعني أن الثقافة والحكمة كانت شائعة حتى بين نساء اليمن الأميرات، وأن العلاقات التجارية بين إسرائيل واليمن كانت في ازدهار (١ ملوك: ١٠).

ولكن غزو اليهود لليمن كان بعد خراب الدولة اليهودية سنة ٧٠. وصادف ذلك أيضاً دخول النصرانية إليها؛ ومنذ ذلك الحين نشب الصراع بينهما مدة ستة قرون على السيطرة الدينية في اليمن حتى وضع الإسلام لها حدّاً.

وشاعت النصرانية في اليمن شيوعاً واسعاً بمساعدة الحبشة المسيحية. وتنصُّر الحبشة الموازية لليمن يساعدنا على تفهم سرعة تنصر اليمن؛ وسيطرة الحبشة المسيحية على اليمن حيناً بعد حين يفهمنا سهولة تغلغل النصرانية في اليمن.

وكانت أول بعثة رسمية مسيحية هي التي أوفدها الإمبراطور قسطنديوس سنة ٣٥٦ برئاسة ثاوفيلس أندس وكان على مذهب آريوس الاسكندري. وأفلح ثاوفيلس في تنصير تُبَّع، وفي إنشاء الكنائس، في عدن على الساحل، وفي الحاضرة ظفر، وفي فرضة أو هرمز عند مدخل خليج العجم. وبِيَعُ نصارى الجاهلية في نجران وظفر وحضرموت ومأرب كانت مشهورة كما نعلم من المؤرخين الروم، وإن كان الإخباريون العرب يكادون يحصرون النصرانية في نجران، بسبب قصة الأخدود التي وردت في القرآن (بروج[٤]).

ونقل ابن هشام والطبري إن حامل النصرانية إلى نجران رجل سوري اسمه ((فيميون[١])) . وازدهرت النصرانية فيها من بعده أيَّما ازدهار. وكان بنو الحارث بن كعب هم رؤساء نصارى نجران. ويذكر الإخباريون أن بني عبد المدان بن الديان الحارثي أقاموا ((كعبة نجران)) مضاهاة لكعبة مكة؛ وكعبة نجران كانت كنيسة لأن سَدَنتها رهبان وأساقفة[٢] .

وكانت بعثة قسطنديوس في زمن الغزو الأول الحبشي لليمن (٣٤٠ ـ٣٨٠). ولكن سبقت لهم فيه غارات في القرنين الثاني والثالث.

---

(١) ابن هشام ١ : ٣٢. والطبري تاريخ الملوك ١ : ٩١٩ ويسميه ((قيمئون)) فيما يسميه صاحب الروض الأنف ((نيمئون)) .
(٢) البلدان ٨ : ٢٦٢ ، قابل جواد علي تاريخ العرب ٥ : ١٧٥.

ومن أسباب ضعف الدولة الحميرية الأولى تحوُّل طرق المواصلات بين الهند والمتوسط من اليمن إلى مصر. « لما سقطت مصر بيد الرومان، أعاد بطليموس الثاني فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الأحمر، وتمكن الرومان بمساعدة الأحباش من الوصول إلى المحيط الهندي، فتمّ بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر. وبدأ عهد الانحطاط في اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة التي تدخل اليهودية والمسيحية في أيامها يتلك الأصقاع فتستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن إلى يهود ونصارى[1] » .

وفي عهد الدولة التبعيّة أو الحميرية الثالثة تنافس اليهودية والنصرانية قد بلغ أوجه على اكتساب الأسرة المالكة. وتنقل السيرة أن تبّعاً، أَبا كرب، أسعد كامل قد تهوّد يوم غزو المدينة، وحاول تهويد قومه بالقوة[2] . وأكبر الملوك المتهوّدين، وآخرهم يوسف ذو نواس، صاحب الأخدود الذي ذكره القرآن[3]. فقد اضطهد النصارى اضطهاداً شنيعاً لأسباب قومية ودينية، حبشية ومسيحية (٥١٠ ـ٥٢٣)، فكانت مذابح ظفر ونجران (تشرين الأول ٥٢٣). ويدلّنا عدد الشهداء في نجران وغيرها على مدى اكتساح النصرانية لليمن. فقد ذهب ضحية الاضطهاد العنصري والديني، في نجران وحدها، نحو ٤٢٧ راهباً، وفي اليمن نحو أربعة آلاف راهب، وأكثر من عشرين ألف شهيد كما ذكرت السيرة[4] .

وقد بقي استشهاد نصارى اليمن ذكرى رائعة في مخيلة العرب، حفظها القرآن ووصفها بروعته المعهودة: « والسماء ذات البروج واليوم الموعود، وشاهد ومشهود! قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (البروج ١ ـ ٩) ، « وقيل لما تنصّر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير فأحرق في الأخاديد مَن لم يرتدّ » (البيضاوي).

ما أَثمن تلك الشهادة القرآنية على توحيد نصارى اليمن وعلى بسالة استشهادهم.

ونجا منهم دوس ذو ثعلبان، فاستنصر بقيصر الروم يوستينوس فاستنفر له عاهلَ الحبشة. فأمدّه بجيش من سبعين ألفاً من الأحباش النصارى يقوده أرياط ، فغزا اليمن

---

(١) الدكتور مصطفى الرافعي : الإسلام انطلاق لا جمود ١٤٩.
(٢) ابن هشام ١ : ٢٧ .
(٣) سورة البروج ٤ .
(٤) ابن هشام ١ : ٣٧ .

وأخضعها سنة ٥٢٣. ثم قام على الغازي معاونه أبرهة فقتله واستقلَّ بملك اليمن تحت إِمرة الحبشة سنة ٥٢٥؛ وهذا هو احتلال الحبشة الثاني لليمن.

وابتنى أبرهة، عامل النجاشي، كاتدرائية في صنعاء، من أفخم الكنائس، سمَّاها «القليص[١]» . وعقد الأحباش النية على تنصير الحجاز، ومزاحمة مكة الوثنية في عقر دارها. وتنقل لنا السيرة صورة الكتاب الذي بعث به أبرهةُ إلى مليكه النجاشي: « إني قد بنيتُ لك، أيها الملك، كنيسة لم يُبنَ مثلها لملك كان قبلك؛ ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حجّ العرب[٢] ». ودام ملك أبرهة الأشرم، في تنفيذ مأربه، إلى عام الفيل (٥٢٥ ـ٥٧٠). وكان يضطهد اليهودية والوثنية، وينشر توحيد النصرانية في كل الجهات، حتى ضجَّ أهل مكة وعبدةُ أصنامها وتجار حجّها من الأمير المسيحي، « فخرج الكناني حتى أتى القليص فقعد فيها. فغضب أبرهة وحلف ليسيرَنَّ إلى البيت حتى يهدمه[٣] » . فجهّز جيشاً وركب فيله وجاءَ مكة وهمّ بهدم الكعبة. فابتدره وجيشَه الجدري وفتك بهم أيما فتك حتى اضطروا إلى الرحيل. وقد ذكرت السيرة: « إن أول ما رؤيتْ الحصبة والجدَري بأرض العرب ذلك العام[٤] » . وبقيت ذكرى تلك الحملة حية في أذهان العرب حتى كانوا يؤرخون بها؛ وبها أرّخوا ميلاد النبي العربي. وقد حفظ القرآن ما حام حولها من « أساطير » : « ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل! ترميهم بحجارة من سجّيل! فجعلهم كعصف مأكول[٥] ! » . وتوفي أبرهة على أثر إصابته بالمرض. فعظمت حرمة البيت العتيق في نفوس العرب، وسموا الذكرى العظمى: « عام الفيل » . وقرنوا بها في ما بعد مولد النبوي.

وخلَف أبرهةَ أبناه يكسوم ومسروق على اليمن. « ولما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري » فاستنجد بكسرى فأنجده وأخرج الحبشة من اليمن وأمّر وِهْرز، وبنيه من بعده، على اليمن إلى أن جاء الإسلام وخلف الجميع.

---

(١) كلمة يونانية معربة عن طريق الآرامية أو الحبشية.
(٢) ابن هشام ١ : ٤٤ .
(٣) المرجع نفسه : ٤٧ .
(٤) المرجع نفسه : ٥٦ .
(٥) سورة الفيل . راجع السيرة ١ : ٥٦ حيث يقول عن سجيل وأبابيل إنهما كلمتان فارسيتان. نسب القرآن مع الرأي العام المكي الجدري إلى فعل طير غريبة.

وكان آخر من خضع للإسلام، بسيف علي وخالد، نصارى اليمن. وكانوا أوّل مَن ثار في حروب الردّة، حتى أخضعوهم من جديد. وأجلى الخليفة عمر سنة ٦٣٥ إلى العراق مَن لم يعتنق منهم الإسلام[1] . وفي نجران « كثروا حتى بلغوا أربعين ألف مقاتل فكره عمر أن يميلوا على المسلمين فيفرّقوا بينهم ... فأجلاهم إلى الشام[2] » . وظلّ للنصارى في اليمن، حتى سنة ٨٤٠ ، أُسقف في صنعاء يدعى مار بطرس.

وتشهد السيرة النبوية أن النصرانية في اليمن عُرفت وانتشرت كدين التوحيد السابق للإسلام. وتذكر إن عبد الله بن التامر « كان يسمع من فيميون حتى أسلم ووحّد الله ، وعبده وجعل يسأل عن شرائع الإسلام . فجعل عبد الله بن التامر يدعو إلى دين الله ... واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر . وكان على ما جاءَ به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه[3] » .

وهكذا فقد عمَّ التوحيد المسيحي اليمن، وحاول غزو الحجاز ومكة، قبل مولد النبي العربي.

*

ثلاثة أحداث جرت قبل محمد في القرن السادس تكفي وحدها للدلالة على سعة وعمق انتشار النصرانية في ديار العرب من الشمال والجنوب حتى الحجاز:

١ً مذابح نجران سنة ٥٢٣ التي ذهب ضحيتها من الرهبان أربع مئة ونيف.

٢ً مذابح الحيرة، يوم حليمة، سنة ٥٥٤ التي ذهب ضحيتها أربع مئة راهبة ونيف. وإنه لجيش من الرهبان والراهبات العرب على حدود الحجاز، كان موشكاً أن يغزو الحجاز سِلماً بالتوحيد المسيحي كما كان يدعو إليه ابن التامر، لو أمهلتهم الحدثان.

٣ً والحادثة الثالثة، ذات الطابع السياسي الحربي، غزو أبرهة لمكة عام الفيل سنة ٥٧٠ ليقضي على الكعبة وسيطرتها الوثنية على عرب الحجاز. ولكن كان كل ذلك مقدراً لغيره.

فلو أمهل الإسلام النصرانية مدّة قصيرة لكانت غزت الحجاز فدان للتوحيد الكتابي.

---

(١) البلاذري : فتوح ١٠١.
(٢) كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ١٦٢.
(٣) ابن هشام ١ : ٣٥ و ٣٦ .

بحث رابع: النصرانية في الحجاز

الحجاز، الذي يحجز المنطقة الوسطى من الجزيرة عن اليمن والشمال بالصحاري التي تكتنفه، لم يكن هو محجوزاً عن العالم الخارجي ولا عن العالم العربي، لأنه كان طريق المواصلات؛ ولأن أهله، ولا سيما قريش، تزعموا فيه حركة تجارة « الترنزيت » . فكانت قبائل قريش التجارية على صلة مع العالم المسيحي العربي والأجنبي أكثر من غيرها.

دخلت النصرانية الحجاز منذ عهد الرسل الحواريين. فقد جاء في سيرة ابن هشام[1] أن « الحواري ابن ثلما بعث إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز » . ونقل الطبري: « وكان ممن توجه من الحواريين ابن ثلما إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز[2] » وأخيراً ثبّت لنا ابن خلدون في تاريخ العبر أن برتلماوس الحواري، بعث إلى أرض العرب والحجاز.

والمؤسسات النصرانية الواسعة كانت قائمة على حدود الحجاز منها دير هند في الحيرة، وكانت راهباته تُعدّ بالمئات؛ وديورة نجران وكان رهبانها يُعدّون بالمئات. وكانت مهمتهم التعبد والتبشير بالتوحيد المسيحي. وكان الخطباء منهم يغزون أسواق العرب في الجاهلية يخطبون فيها ويدعون إلى عبادة الله الأحد. وقد نقلت أخبار الحجاز كيف كان أساقفة نجران يغشون عكاظ ويدعون لدينهم.

ولمّا ظهر محمد في الحجاز، كان التوحيد الكتابي منتشراً فيه، من شماله إلى جنوبه. ومَن لم يدخل في هذا التوحيد تبرّأ في ضميره من الوثنية والشِّرك.

لقد رأينا انتشار اليهود في الحجاز كله، وإنشاءهم فيه جاليات عزيزة غنية، مرهوبة الجانب، مسموعة الكلمة، مسيطرة ثقافياً ودينيّاً وسط الشِّرك الحاكم؛ وكانوا يتلون التوراة، ويرددون قصَصها على مسامع الناس ـ والعربي يُفتن بالأخبار والقصص ـ ويدعون إلى التوحيد الكتابي أينما حلوا أو ارتحلوا: « وقد كانت التوراة متداولة بين أيدي الكتابيين، وخاصة اليهود الذين كان منهم جاليات كبيرة مستقرة في الحجاز كما هو معروف[3] » .

---

(١) السيرة ١ : ٤٤ .
(٢) الطبري ١ : ٧٣٨ .
(٣) محمد دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٤١ .

وقد تنصر فريق كبير من عرب الحجاز في أيلة ودومة الجندل ووادي القرى وتيماء ومعان ويثرب ومكة والطائف؛ ومع ذلك لم تقم لهم فيها مؤسسات رسمية، وأسقفيات موطدة كما في الشمال والجنوب ما خلا أيلة ودومة وتيماء؛ ويعود ذلك إلى الشِّرك الذي ما زال مسيطراً على الحجازيين في كعبة مكة لمنافع مواسم الحج؛ ولمَّا أراد محمد في آخر عهده أن يمنع المشركين من حجّ البيت، خاف المسلمون في مكة من الفقر والجوع: « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله[1] » . ويعود ذلك أيضاً إلى طبيعة الحياة البدوية الرحَّالة، التي لم تكن تسمح لهم حتى بالاستماع إلى شؤون الدين. وقد مات محمد وهو يائس من تصلّب الإعراب وإعراضهم عن التوحيد القرآني: « والأعراب أشد كفراً ونفاقاً » (توبة ٩٨).

ومع ذلك فقد تطبّعت النصرانية بطبيعة البادية وجعلت للعرب الرحّل أساقفة يرحلون معهم، سموهم « أساقفة المضارب » وقد وقّع بعضهم على أعمال المجامع النصرانية بهذه الألقاب: « فلان أسقف أهل الوبر » « وفلان أسقف القبائل الشرقية المتحالفة » « وفلان أسقف عرب البادية » . وذكر المؤرخ الرومي سوزومنوس، منذ القرن الرابع، « إن في بعض قرى العرب ودساكرهم أساقفة[2] » فكيف بهم في أواخر القرن السادس! وقد لا ينطبق هذا القول على عرب الحجاز، غير أن اليعقوبي نقل لنا شهادة ثمينة، قال: « وأمّا من تنصّر من أحياء العرب فقوم من قريش. ومن اليمن: طيء وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم[3] » ، فذكر صراحةً تنصّر فريق من قريش، قبيلة النبي الحاكمة في مكة وكعبتها، وفي تجارتها وديانتها.

وبعد هذه النظرة المجملة فلنأخذ في تفصيل تغلغل النصرانية في مدن الحجاز.

النصرانية في نجد

نكتفي بكلمة عابرة. لقد كانت قبائل كندة ومعد على اتصال مع قياصرة الروم.

---

(١) براءة ١٩؛ والعيلة : الفقر (الجلالان) وذلك بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان ينتج من قدومهم من المكاسب والأرزاق (بيضاوي) والنهي في الآية عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً كما يوحي تخوّفهم من قطع الأرزاق في موسم الحج « قيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة » (البيضاوي).

(٢) مجموعة الآباء اليونان لمين ٦٧ : ١٤٢٦ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٩٨ .

فبعد مقتل أسرة امرئ القيس، الشاعر الجاهلي الأول، احتمى الملك الضّليل بالقيصر يستنيانس فأمَّره على نجد وقبائل كندة ومعد لكي يقطع طريق اليمن على الفرس الطامعين فيه، ويحمي مُلْك الأحابيش المسيحيين في اليمن. فلمّا وقعت أحداث عام الفيل نُقل إلى فلسطين وأُمِّر على عرب حدودها[1]. وهذا يدل على أن تأثير القيصر المسيحي كان يمتد إلى نجد ويتحكّم بحكمه.

١) أيلة (العقبة)

يقول ياقوت: إن أيلة، « آخر بلاد الحجاز » شمالاً، كانت نصرانية. ويذكر المسعودي[2] أن « يوحَنَّةَ بن رؤية كان **أسقف** أيلة، وإنه قدم على محمد سنة تسع للهجرة وهو في تبوك، فصالحه على أن لكل حالم بها ديناراً في السنة » . ويؤيد هذه الشهادة ابن سعد[3] فيجعل الوافد ملكاً لا أسقفاً؛ بيد أن ذكر الصليب على صدره يدل على أنه أسقف لا ملك: « وكان (يوحنة) ملك أيلة. وأقبل معه أهل جرباء و أذرح، وعليه صليب من ذهب؛ فصالحهم وقطع عليهم جزية معلومة » . وتنقل سيرة ابن هشام صورة كتاب الرسول إلى يوحنّة بن رؤية وأهل أيلة، ومَن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر[4].

فاسم المفاوض، وراية النصرانية على صدره (صليب من ذهب كعادة الأساقفة) والمصالحة على الجزية، كل ذلك يؤيّد « أول بلاد الحجاز من الشمال » كان على النصرانية.

٢) دومة الجندل

كان على دومة أسقف. وقال ابن هشام في حديثه عن غزوة تبوك: « ثم إن رسول الله ص. دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أُكيدر دومة. وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كِنْدة، وكان ملكاً عليها، وكان نصرانيّاً ... فلمّا خرجوا تلقّتهم خيل رسول الله ص. فأخذَتْه؛ وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قَباءٌ من ديباج مخوّص بالذهب. فاستلبه

---

(١) هذا إذا صحت الرواية التي ننقلها عن آخرة الشاعر الكبير.
(٢) كتاب التنبيه والاشراف .
(٣) كتاب وفادات العرب .
(٤) ابن هشام ٤ : ١٦٩ .

خالد فبعث به إلى رسول الله ص. قبل قدومه به عليه. ثم أن خالداً قدِم بأكيدر على رسول الله ص. فحقن له دمه وصالحه على الجزية. ثم خلّى سبيله. فرجع إلى قريته[١])) .

وذكر المسعودي وابن سعد أن أكيدراً دومة الجندل كان نصرانياً وكان في طاعة هرقل ملك الروم[٢] . وذكر ياقوت مصالحة النبي له على دفع الجزية[٣] ، ونقل البلاذري[٤] أنه أسلم ثم ارتد فأجلاه عمر[٥] .

وهكذا فإن المدينة الثانية من شمال الحجاز كانت نصرانية وحاكمها نصراني: قال الدكتور جواد علي: ((لم يكن في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام موضع حاكمه من النصارى إلا دومة الجندل وأيلة واليمامة)) . قد يصحّ هذا القول على الحجاز وحده.

٣) معان

معان في طرف بادية الشام، تلقاء الحجاز، من نواحي البلقاء ـ كما يقول ياقوت. كان أهلها نصارى تحت حكم الروم مثل الغساسنة أو مثل أسرة امرئ القيس في نجد. وكان يملك عليها عند ظهور الإسلام فروة بن أبي عامر، شيخ بني جذام النصارى.

وقد جاءَ في اليعقوبي ومعجم ياقوت[٦] أن فروة، في غزوة مؤتة قرب معان، قاتل ضد جيش المسلمين وهم بقيادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة. ويذكرون أن الروم جيّشوا بقيادة ثاودورس المعروف بالنائب جيشاً عدّتُهُ مئة ألف، ومعهم من نصارى العرب مئة ألف آخرون. ففرَّ المسلمون بعد مقتل قادتهم؛ حتى عيّرهم مَن بقي في المدينة ((يا فُرَّار!))

فمنطقة تجنّد في زمن قصير مئة ألف محارب تدل على أن فيها مئات الألوف من العرب النصارى.

وهكذا كان شمال الحجاز حتى نجد، في أكثريته الساحقة، من موحّدي أهل الكتاب، خاصة النصارى العرب. وكان حاكم أيلة، ودومة الجندل واليمامة نصرانيّاً.

---

(١) ابن هشام ٤ : ١٦٩ .
(٢) المسعودي : كتاب التنبيه والأشراف . ابن سعد كتاب وفادات العرب .
(٣) ياقوت ٢ : ٦٢٦ .
(٤) فتوح ٦١ .
(٥) راجع رواية جامعة في ((حياة محمد)) لهيكل ٤٣٠.
(٦) اليعقوبي ٢ : ٦٦ ؛ ياقوت ٤ : ٥٧١ و ٦٨٨ .

٤) تيماء

تقع تيماء بين الشام ووادي القرى. وكانت مدينة حصينة لأهل الكتاب من يهود ونصارى. وكان فيها مساكن قبيلة طيئ النصرانية العربية وفيها مركز أسقف. وقد خضعت للجزية بعد غزوة خيبر[١]. وكانت بلد السموأل صاحب الأبلق الفرد؛ وهوية السموأل الدينية مجهولة[٢] ؛ ويظهر من اسمه (صموئيل) أنه يهودي، ويُرجَّح أنه كان على النصرانية، أصلاً أو هدايةً، بسبب أصله الغسَّاني وذكره تلاميذ المسيح في شعره، وائتمان امرئ القيس له على أختِه وأدرعه[٣].

٥) تبوك

تبوك مكان حصين بين وادي القرى والشام يسكنه نصارى قضاعة كما نقل ابن خلدون عن ابن سعد، وجاورهم فيها بنو كلب من قبيلة تغلب النصرانية. « كان لقضاعة ملك آخر في كلب ابن دبرة بن تغلب يتداولونه مع السكون من كندة. فكانت لِكلب دومة الجندل وتبوك. ودخلوا في دين النصرانية »[٤] . وفي غزوة تبوك لم يتمكن محمد والمسلمون من اقتحامها لحصانتها ومناعتها[٥] ولسرعة الروم ونصارى العرب إلى نجدتها. فحاصروها عشرين يوماً ثم قفلوا راجعين.

ولولا تأصل النصرانية في تبوك ومؤتة ومعان لَمَا حارب عرب الشمال إخوانهم عرب الجنوب في الغزوتين الأخيرتين العظيمتين اللتين قام بهما محمد.

٦) وادي القرى

سمّي كذلك لكثرة القرى الواقعة فيه. ونظن أن أشعيا النبي يسميه، في نشيده عن العرب، وادي العرب[٦] أو غاب العرب، على طريق القوافل. ومن قراه دومة الجندل، والحِجْر، وديدان. وهو يقع بين الشام والمدينة. سكنه اليهود أولاً. ثم قضاعة وسليح النصرانيتان. وقد جاء في الأغاني أن النصارى منعوه من اليهود، والعرب غير النصارى:

---

(١) راجع حسين هيكل : حياة محمد ٣٦٠.
(٢) حتي : تاريخ العرب ١ : ١٥٢ .
(٣) ديوان السموأل : نشرة الأب شيخو سنة ١٩٢٠ .
(٤) ابن خلدون ٢ : ٢٤٩ . وفي طبعة دار الكتاب اللبناني ٨ : ٥٢١ .
(٥) ابن هشام ٤ : ١٦٠ ـ ١٧٥ ؛ وقابل حياة محمد لحسين هيكل ٤٢٧.
(٦) أشعيا ٢١ : ١٢ .

ونحن منعنا ذا القرى من عدوّنـا   وعـذْرة إذ نلقى يهـوداً وبَعْثرا
منعنـاه مـن علـيا معدٍّ وأنـتمُ   سفاسيفُ روح بين قَرْح وخيبرا
فريقان: رهبان بأسفل ذي القرى   وبالشـام عرّافون مِمَّن تنصَّرا[1]

فيكون سكان وادي القرى بأكثريتهم من العرب النصارى .

٧) يثرب (مدينة الرسول)

كانت يثرب مستعمرة يهودية لبني قريظة وبني النضير، وبني قَيْنُقاع، وبجوارهم عشرون قبيلة يهودية. وامتازت يثرب في الحجاز بحصونها السبعين[2] وقد ورد ذكر هذه الحصون في سورة الحشر « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم » . ثم رحل إليهم من اليمن الأوس والخزرج، فنزلوا المدينة على عهود كانت بينهم. وعندما كان اليهود ينتقصون منهم ويستضيمونهم كان عرب المدينة يستغيثون بتبّع لنجدتهم أو بالغساسنة. وقد حدث ذلك مراراً إلى أن قويت شوكة العرب في يثرب زمن محمد[3] بدخول النصرانية إليها.

دخلت النصرانية المدينة شيئاً فشيئاً وتمكنت فيها ونافست اليهودية. قال دروزة في السيرة: « إن كل ما يمكن أن يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبي في المدينة قليلون جداً، قد لا يتجاوز عددهم **مئات قليلة**[4]؛ وقال الشهرستاني: « الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والأميون ـ والأمي من لا يعرف الكتابة ـ فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والأميّون بمكة » [5] .

ولنا شهادة قيمة في رثاء حسان بن ثابت للنبي[6]:

فرحت نصارى يثرب ويهودها   لمَّا توارى في الضريح المُلحد

إِذن بقي النصارى واليهود في يثرب حتى بعد وفاة محمد وبقي لهم فيها شوكة.

---

(١) الأغاني ٧ : ١٦١ .
(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية : الخزرج .
(٣) سيرة ابن هشام ١ : ٢٢ ؛ راجع فيها شرح السيرة لأبي ذرّ.
(٤) سيرة الرسول: ٢ : ٤٤١ .
(٥) كتاب الملل والنحل ص ١٦٢ ؛ وتفسيره « الأمّي » لغويّاً قائم ، أما اصطلاحاً فخطأ : الأمي عكس الكتابي أي من لا كتاب منزل له.
(٦) ديوانه: طبعة ليدن ص ٥٩.

وفي تقويم قديم للكنيسة النسطورية إن النساطرة أقاموا مطراناً في يثرب إذ كان لهم ثلاث كنائس على اسم إبراهيم الخليل وموسى الكليم وأيوب الصديق.

ويذكر الدكتور هيكل أن عرب المدينة كانوا أقرب إلى دعوة التوحيد من أهل مكة لجوارهم أهل الكتاب وتأثير الدعوة التوحيدية فيهم.

وهكذا يكون التوحيد الكتابي قد سيطر في أكثر بقاع الحجاز.

٨) مكة المكرمة

ظلّت مكة حتى الإسلام قلعة الشرك الحصينة بسبب البيت العتيق ومنافع الحج العديدة التي كان سادة مكة يتوارثونها.

لكن الوثنية العربية القديمة كانت قد أمست في مكة كما في سائر الحجاز شِركاً أي عبادة شريك مع الله الذي لا شريك له. وأمسى هذا الشِرْك شكلياً لا عقيدة دينية متأصلة في النفوس بفضل التوحيد الكتابي الكاسح.

غير أنه لا سبيل إلى إنكار وجود اليهود في مكة قبل البعثة وفي عهد النبي: « وقد استدللنا بها (آية ١٠ من سورة الأحقاف) وبقرائن قرآنية أخرى في كتابنا (عصر النبي وبيئته) على احتمال وجود جالية يهودية في مكة. أو على الأقل على تردّد يهود المدينة على مكة ووجود علاقات تجارية أو غير تجارية بينهم وبين أهلها[١] » .

ولا سبيل أيضاً إلى إنكار وجود النصارى في مكة: « والمعروف بإلهام القرآن ـ على ما شرحناه في كتابنا الآنف الذكر ـ إنه كان عدد غير يسير من **جوالي النصارى مستوطنين مكة؛** ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثيرة من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية. كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلعاً نبأ النبي العربي وأعلن إيمانه به[٢] » .

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣٠٨ ـ وتذكر سيرة ابن هشام ١ : ٢٥ إن أحد التبابعة المتهودين هو أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جُرهم وأمرهم بتطهيره على حسب وصيّة الأحبار له .
(٢) محمد عزة دروزة : المرجع نفسه .

وقد ذكر اليعقوبي، كما رأينا، أن «ممن تنصَّر من أحياء العرب قوم من قريش»[١] ويخص بالذكر منهم بني أسد بن عبد العزّى.

وذكر الفيروزبادي في تاج العروس موضعاً في مكة يُعرف «بموقف النصراني» ويدلنا الأزرقي على مقبرة النصارى في مكة: «مقبرة النصارىَ دُبُرَ المقلع على طريق بئر عَنْبَسَة بذي طوى». والمقلع جبل بأسفل مكة على يمين الخارج إلى المدينة[٢].

وذكر المقدسي في جغرافيته (٧٧) «مسجد مريم» بجوار مكة.

وهذه النصرانية في مكة قديمة. فقد روى ابن الأثير وابن خلدون أن سادس ملوك جُرهم في مكة يدعى عبد المسيح بن باقية بن جرهم. فيتعين من ذلك أن النصرانية غلبت في مكة قبل بني الأزد وتغلّب بني خزاعة على ولاية البيت العتيق. وتنقل أخبارهم أنه على زمن آل جرهم تولى الكعبة أسقف.

وروى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني أن البيت الحرام كان له عهد بني جرهم خزانة، وهي بئر في بطنه يُلقى فيها الحلى والمتاع الذي يُهدى له، وهو يومئذٍ لأسقف عليه[٣]. ولعلها كانت بئر ماء المعمودية.

و «أشار الأخباريون إلى وجود نصارى من الروم لم يكونوا يتقنون العربية في مكة وفي نواحي عديدة من جزيرة العرب. وبعضهم أرسلهم القياصرة للتبشير[٤]» وقد ذكر الأخباريون والمؤرخون وجود جالية حبشية في مكة، يسمونهم «الأحابيش النصارى» وكان «الحليس» سيداً عليهم في عهد النبي. وقال حسين هيكل: «كانت مكة إذ ذاك مقام جالية حبشية لعلها نصرانية يدعى أفرادها الأحابيش. وكان بلال مؤذن الرسول منهم[٥]».

وهناك دليل على وجود جوالي اليهود والنصارى، وانتماء كثيرين من عرب مكة وساداتها إلى توحيد الكتاب، وعلى مدى ما كان لهم من التأثير الديني الذي بلغ بهم حتى

---

(١) اليعقوبي: ١ : ٢٩٨ .
(٢) الأزرقي أخبار مكة ص٥٠.
(٣) الأغاني ١٣ : ١٠٩ .
(٤) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٣٥٩ .
(٥) حياة محمد ٣٣٨ ، قابل حتي : تاريخ العرب ١ : ٤٨ .

رسموا على جدران الكعبة صور الأنبياء والملائكة الذين يذكر الكتاب قصصهم، خاصة صورة عيسى بن مريم وأمه. فقد روى الأزرقي أنه « جُعلت في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة. فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمان شيخ يستقسم بالأزلام، وصورة عيسى بن مريم وأمه، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ص. البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبُلَّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست ... ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور إلا ما تحت يديّ: فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأمه. ونظر إلى صورة إبراهيم فقال: قاتلهم الله ! جعلوه يستقسم بالأزلام ما لإبراهيم والأزلام[١] » .

وما رواه الأزرقي نقله أيضاً الهراوي والبيهقي وابن العربي. ولا عبرة لمشاحنات القوم اليوم عن استثناء النبي من طمس[٢] صورة عيسى بن مريم وأمه. فهذا الاستثناء يدل على إيمان محمد بعيسى وأمه، والقرآن أفضل شاهداً من صور الكعبة.

وقد حاولت النصرانية أن تدكّ في القرن السادس آخر معقل للوثنية العربية في الجزيرة، كعبة مكة، وتفتح الحجاز دينيّاً بالقوة، في عام الفيل، عن طريق الحبشة بواسطة عاهل اليمن أبرهة، عامل النجاشي، فأخفقت.

ولكنها إن أخفقت بالقوة فلم تخفق « بالحكمة والموعظة الحسنة » . فقد كان خطباء النصارى ـ واليهود ـ يفدون على أسواق العرب يخطبون ويدعون إلى دينهم. وقد كان العرب يسمعون لهم ويتأثرون بتوحيدهم. وقد سلك محمد أول أمره هذه الطريقة آخذاً عنهم[٣].

وكانت جاليات أَهل الكتاب المنتشرة في كل الحجاز، والمدينة ومكة، تعمل على نشر التوحيد الكتابي بين « الأميين » بقولهم ومثلهم. « والمبشرون بدين عيسى كان لهم في ذلك العصر ما لهم اليوم من نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به[٤] » .

---

(١) الأزرقي: اخبار مكة ١:١٠٤، قابل النص في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي٥:١٧٢، حيث يضيف: « وهي رواية للعلماء عنها حديث وكلام بخصوص استثناء صورة مريم وابنها عيسى من الطمس ».
(٢) من أولئك المتحمسين ضد الاستثناء السيد رشدي الصالح ملحس: راجع تعليقاته على الأزرقي.
(٣) حسين هيكل: حياة محمد ٧٧ ـ٧٨.
(٤) المرجع نفسه ٤٠.

وكانوا ينشرون بينهم مع الثقافة الدينية، الثقافة العامة: « والبيئة الحجازية، وخاصة مكة والمدينة، كانت بيئة تجارية، متصلة بالبلاد المجاورة التي كانت تتمتّع بحظ غير يسير من الحضارة والثقافة. وكان فيها (البيئة الحجازية) جاليات كتابية نصرانية ويهودية، نازحة من تلك البلاد، وكانت تتداول الكتب الدينية وغير الدينية، كتابةً وقراءَة. فلا يعقل أن يظل العرب، أهل هذه البيئة غافلين عن اقتباس وسيلة من أشد الوسائل ضرورة إلى الأشغال التجارية ومن أعظم مصادر الحضارة، التي اقتبسوا منها، من البلاد، من البلاد المجاورة، الشيء الكثير[١] » .

وهكذا كان الكتابيون بين العرب، وحتى في الحجاز والمدينة ومكة: دعاة الحضارة والثقافة والتوحيد. وقد استجاب لهم العرب في كل مكان « وعن ابن عباس قال: كانت المرأة تجعل على نفسها أن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار[٢] » . فلقد « عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام واحتكوا بهم وأخذوا عنهم كثيراً من الأفكار والمعارف، ومنهم مَن دان باليهودية والنصرانية، وتضلّع باللغة العبرانية واطّلع على ما عند اليهود والنصارى من كتب. وقد كان في **مكة خاصة** بعض الجاليات الكتابية يرجع تاريخ سكناها إلى ما قبل البعثة. وشهدت أدوار الدعوة النبوية، ولم تكن في عزلة عنها بطبيعة الحال[٣] » .

وفي الآيات القرآنية العديدة « دلالة على أن العرب كانوا ملمّين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى. كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة ... ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم[٤] » .

وقد وصلت هذه الدعوة الكتابية التوحيدية، ونفوذُ أهلها إلى محمد وبيئته[٥]، كما يشهد بذلك القرآن المكّي، شهادة صريحة متواصلة، حتى أنه ليَصِحُّ لنا أن نرى في القرآن

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٣٠٨.
(٢) أبو جعفر النحاس: الناسخ والمنسوخ ٨٠.
(٣) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢٩٦ .
(٤) المرجع نفسه ١ : ٣٠٠ و ٣٠٦.
(٥) قال محمد صبيح: « وهنا تخطر على الذهن أسئلة منها : ما اللغة العربية التي كانت معروفة قبل ثلاثة عشر قرناً وما حدودها ؟ وهل كانت هناك لغة عربية مبينة وأخرى غير مبينة تجنبها القرآن ولم يعبر عن معانيه بها ؟ هل كان يعرف النبي لغة غير لغة قريش الحجازية المكية التي نراها في القرآن وفيما يصح من الأحاديث ؟

المكّي ـ بمعزل عن التنزيل ـ ثمرة تلك الدعوة الكتابية التوحيدية في مكة. « ومن الطبيعي أن يكون النبي ص. الذي أُوحي إليه منذ الوقت المبكر، وظل يوحى إليه بمثله بأساليب متنوعة، قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبّب من الكتابيين في مكة،

وما شأن هذه الآيات التي تتحدث عن اللسان العربي وعن اللسان الأعجمي وتؤكد أن لسان النبي عربي وأن القرآن نزل بلسان النبي لا بلسان أعجمي ، وما هذا اللسان أو هذه الألسنة الأعجمية التي يتحدث عنها القرآن؟

الإجابات عن هذه الأسئلة جميعاً ليست سهلة ميسورة لنا أو لغيرنا :

١) فمهما اختلف الباحثون فقد أصبح واضحاً جليّاً أن اللغة العربية في الجاهلية لم تكن لغة واحدة يتفق نطقها وصرفها ونحوها. فبعد أن كشف الأستاذ جويدي عن نصوص اللغة الحميرية وأثبت اختلافها التام عن اللغة القرشية التي نعرفها اليوم في بنية ألفاظها وفي تركيب جملها لم يعد هناك شك في أن جزيرة العرب كانت مستقرَّ شعوب لا شعب واحد ، ولكل شعب منهم لغته الخاصة به.

٢) إن مكة تدير حركة تجارية واسعة تمتد إلى كل وجه من وجوه الجزيرة . فقوافلها تسير إلى الشمال وتتصل بنصرانية بيزنطية وتعلم من شأن هذا الدين شيئاً غير قليل . وتسير أيضاً إلى الشمال الشرقي وتتصل بمجوسية فارس وتعلم عن دينها وآدابها ما يسمح لأحد أهل مكة أن يجلس في الكعبة ويقص أحاديث رستم واسنديار ليعارض بها القرآن . وهذه الرحلات كانت وسيلة لنقل التجارة كما كانت وسيلة أيضاً لنقل كثير من الألفاظ والتعبيرات باللغات التي كانوا يتخاطبون بها هناك وهي اللغة الفارسية واللغة اليونانية القديمة ـ وربما الرومانية أيضاً ـ واللغة السريانية واللغة العبرية ... وذلك إن اتصال الحجاز وأهل مكة باليهود كان أقوى من غيره من الاتصالات . فقد كان يسكن اليهود غير بعيد عن مكة .

هذه رحلات الشمال وما يقال عنها يقال أيضاً عن رحلات الجنوب.

٣) ولم يقتصر الأمر على رحلات أهل مكة إلى هذه الأماكن جميعاً ، وإنما تجاوزه إلى أن يقيم في مكة أناس من الفرس واليونانيين وأقباط مصر وأهل الحبشة وأهل الجنوب وغيرهم . ومن المؤكد أن هؤلاء القوم الذين حملتهم ظروف شتى على الإقامة في مكة كانوا يقيمون فيها وألسنتهم معهم وكان اتصالهم بأهل هذه القرية يضطرّهم إلى تعلم لغتها العربية القرشية كما ينقل إلى لسان المكيين ألفاظاً غير قليلة من هؤلاء الذين يقيمون بينهم.

٤) فإذا صح هذا لدينا ـ وهو صحيح ـ فمن السهل أن نتصور أن لغة المكيين كانت تمتاز عن لغة بقية الحجاز بوجود هذه الألفاظ الكثيرة فيها .

٥) ومن هنا يمكن أن نقرّر أن أهل مكة عرفوا لغات أجنبية إلى جانب لغتهم الأصلية . وأن اللغة الأصلية نفسها تأثرت بهذه اللغات التي تنتقل إلى مكة من الأجانب المقيمين فيها أو تنتقل إليها مكة في متاجرها .

٦) وقد كونت هذه الرحلات وهذه الاتصالات إلى جانب التأثير اللغوي ثقافة غير هينة، كما وجدت حركة تدوين وقراءة .

هذا هو شأن مكة ولغة أهلها.

ومحمد نشأ في مكة وتأثر في حياته الأولى بما كان يتأثر به أهلها من ظروف شتى . وكان يسافر إلى الشمال . وكانت له قرابة في بني النجار الذين يقيمون في يثرب حيث يستقر اللسان العبري والسرياني مع اليهود المقيمين

المتحد معهم في الأهداف والمبادئ والمحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بها والمؤيد لها. ونعتقد أن النبي ص. قد أُلهم هذا الموقف قبل نبوته أيضاً **إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين في مكة** ـ على ما استلهمناه وشرحناه في فصل شخصية النبي ص. صلة ودٍّ ومبادلة عطف وتصديق. وأن هذا من أسباب هذا الموقف الودّي المتبادل. هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم واستشهاده بهم واعتماد عليهم، وتلقين بالوحدة التامة بينهم[1] ›› .

واستشهاد القرآن المكي الدائم بأهل الكتاب، على ما سنراه في ما بعد، دليل قائم

هناك. ولم يقل أحد أن رسول الله لم يكن يعلم شيئاً من أمر هذه اللغات التي تأثرت بها مكة وأمر هذه الثقافات التي ذابت فيها.

بل أكثر من هذا فإن لدينا من الحوادث ما يؤكد اتصال رسول الله وهو في مكة بهؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون فيها . وكان يزورهم ويطيل صحبتهم.

فقد رُوي عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان روميّان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان النبي ص . يمرّ بهما فيقوم فيسمع منهما .

ورُوي عن ابن إسحاق أن رسول الله كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى سبيعة ـ غلام نصراني يقال له جبر ـ عبد لبعض بني الحضرمي.

وعن ابن عباس أن النبي كان يزور ـ وهو في مكة ـ أعجميّاً اسمه بلعام وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده .

وفي رواية أخرى أن غلاماً (كان لحويطب بن عبد العزى) قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه عائش أو يعيش، وكان صاحب كتيّب ـ وقيل هو جبر ـ وقيل هما اثنان جبر ويسار ـ كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل فكان رسول الله إذا مرّ عليهما وقف يسمع ما يقرآن الخ ...

‹‹ وإذن فقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة وكان يفهم ما يُتلى عليه ›› .

ولا يستغرب والحالة هذه وجود ألفاظ عندهم من لغات العرب غير لغة الحجاز ، وألفاظ من لغات الأجانب المتصلين معهم بالهجرة أو بالإقامة في مكة . وقد تكون هذه الألفاظ ، على رأي محمد صبيح ، هي ما عناه حديث نزول القرآن بسبعة أحرف ! (عن القرآن ١١٦ ـ ١١٨) .

فيكون استعمال القرآن للألفاظ العربية غير القرشية والألفاظ الأعجمية ، واستعمال الأقسام الغريبة ، واستعمال بعض الفواتح المبهمة للاستغراق في الإعجاز والتعجيز، واستلفات نظر القرشيين والمكيين . وهكذا يُفهم معنى تحدّيهم بالقرآن ومعنى نزول القرآن على سبعة أحرف !

(١) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٣٠٤ .

على نفوذهم الأدبي والديني في العرب المشركين في مكة[١]، وخاصة على مَن يستشهد بهم، ويسترشدُ بهم: « فإن كنتَ في شك ممَّا أنزلنا إليك فَسْأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤).

*

والقرآن المكي دليل كافٍ وافٍ لأولئك الذين يريدون أن يوهموا الناس بأن التوحيد الكتابي لم يصل إلى العرب، خاصة إلى الحجاز ومكة؛ وعلى رأسهم كاتب (حياة محمد) إمام الأدباء الدينيين في عصرنا حسين هيكل، وبعض المستشرقين[٢].

فليس بصحيح إذن أنه قد « **بقيت بلاد العرب كلها**، واليمن معها، على الوثنية دين آبائها وأجدادها، إلاَّ قليلاً من القبائل التي لانت للدعوة المسيحية » ؛ فلقد رأيت سيادة النصرانية، ومنافسة اليهودية لها، في اليمن والعربية الشمالية. والاضطهاد الذي طرأ في القرن السادس على الحيرة ونجران، وذهب ضحيته آلاف المسيحيين، ومئات الرهبان والراهبات برهان قاطع على انتشار التوحيد الكتابي بين العرب ورسوخه فيهم. وقد انتشرت الدعوة التوحيدية الكتابية في مكة، وأثرت ليس في البيئة القرآنية فقط ، بل في الرأي العام المكي والحجازي كله كما يشهد الدكتور هيكل نفسه: « إن انحلال السلطان قد أدّى إلى نتيجته الطبيعية: أدّى إلى مزيد من حريّة الناس في التفكير والجهر بالرأي، وإلى إقدام اليهود والنصارى، ممّن كانوا يخافون صاحب السلطان، على تعيير العرب بعبادة الأوثان. وانتهى ذلك بكثير من **أهل مكة**، ومن **القرشيين أنفسهم**، إلى أن زالت من نفوسهم قداسة الأصنام، وإن ظل أمجاد مكة وسادتُها يُظهرون لها التقديس والعبادة (حرصاً على مغانم الحج). لكن ذلك لم يغيّر من انحلال قداسة الأصنام في نفوس المكّيين أنفسهم[٣] » .

فنسأل الدكتور، بعد هذه الشهادة، كيف أمكنه القول « بأن بلاد العرب واليمن بقيت على الوثنية ؟ »

ويذكر الدكتور هيكل نفسه، أخذاً عن السيرة النبوية، نفوذ الدعوة التوحيدية الكتابية على أسياد مكة وأمجادها[٤].

---

(١) سنفرد له فصلاً : راجع مدثر ٣١ ، أعلى ١٨ ، يونس ٣٧ و ٩٤، طه ١٣٣، أنعام ٢٠ و ١٤ « فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزّبر » (أنبياء ٧) .

(٢) هيكل : حياة محمد ٤١ ، والمستشرق بلاشير Blachére : Le problème de Mahomet, 25

(٣) المرجع نفسه ٨٩ .

(٤) ابن هشام ١ : ١٣٧ و ١٤٠، قابل حسين هيكل (حياة محمد) ص٨٩ .

نقلت لنا سيرة ابن هشام « أن قريشاً اجتمعت يوماً بنخلة قرب الطائف تحيي عيد العزّى. فخلص منهم أربعة نفر نجيّا، وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء! لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم[1] ! ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يُبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم، التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين: فإنكم والله ما أنتم على شيء! فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. فأمَّا ورقة فدخل النصرانية[2] وقيل إنه نقل بعضاً مما في الأناجيل. وأمَّا عبيد الله بن جحش فظل فيما هو عليه من الالتباس، حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، وهناك اعتنق النصرانية ومات عليها[3]. وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبي. وأمَّا زيد بن عمرو ففرَّ من زوجه ومن عمّه الخطاب، وطوّف في الشام وفي العراق ثم عاد ولم يدخل في نصرانية ولا يهودية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان ونهى عن قتل الموؤدة وكان يقول مستنداً إلى الكعبة: اللهم لو أنّي أعلم أيُّ الوجوه أحب إليك عبدتُك به ولكني لا أعلمه. يا قوم، ما أصبح منكم على دين إبراهيم أحد غيري! هذا حنيف ومثال لحنفاء زمانه - وأمَّا عثمان بن الحويرث وكان من ذوي قرابة خديجة أيضاً، فذهب إلى بيزنطة وتنصّر وحسنت مكانته عند قيصر. ويقال إنه أراد أن يخضع مكة إلى حماية الروم وأن يكون عامل قيصر عليها؛ فطردوه فاحتمى بالغساسنة حتى مات في الشام[4] » .

هذه الحادثة الطريفة مثال على البيئة التوحيدية التي عاش فيها محمد بعد زواجه من خديجة، بجوار ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، ومثال رائع على نفوذ دعوة التوحيد الكتابي إلى أسياد مكة وأمجادها، من القرشيين أنفسهم، خلافاً لما يروّجه أمثال حسين هيكل على اعتصام العرب في وثنيتهم لا يلينون.

*

(١) كما كان يلقنهم أهل الكتاب ، مذكرين إياهم بقرابتهم القومية والدينية لإبراهيم جدّ التوحيد الكتابي .

(٢) ورقة ابن نوفل هو ابن عم خديجة زوج محمد ، الذي طمأن ابنة عمه وأرشد محمداً في أول الوحي على ما تروي السيرة ذاتها .

(٣) كان عبيد الله بن جحش في الحبشة يعيّر المهاجرين المسلمين بقوله: « فقَحنْا وصَأصَأتُم » ! أي أبصرنا وانتم تلتمسون البصر ولما « تبصروا بعد » سيرة ١ : ١٣٨ .

(٤) تنصر « ومنه يصير لقب « بطريق » وأراد تنصيبه ملكاً على مكة . ولكن قومه أبوا عليه ذلك . فلم يتم له مراده ، ومات بالشام مسموماً ، سمَّه عمرو بن جفنة الغسّاني » - الدكتور جواد علي ج ٥ ص٣٧٧ .

وليس بصحيح أيضاً، كما يقول الدكتور هيكل مغالطاً: «إنه قد ظلت شبه الجزيرة، وكأنها واحة حصينة، آمنة من الغزو إلاّ في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوة الدينية مسيحية أو مجوسيّة، إلاّ في قليل من قبائلها. وهذه ظاهرة قد تبدو غريبة في التاريخ، عجيبة، لولا ما يفسّرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها وما للموقع والطبيعة من أثر في حياة أهلها وفي أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم[1]» .

ولا وجود لهذه الظاهرة إلا في خيال الدكتور وهو القائل: قد استحوذت فكرة التوحيد الكتابي على الرأي العام في الحجاز كله ومكة خصيصاً، «وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زالت من نفوسهم قداسة الأصنام[2]» وأخذوا يتقربون من أهل الكتاب، ويتسابقون إلى اعتناق التوحيد الكتابي والإنجيلي وكثيرون من قريش ومن بيئة محمد، قبل زواجه وبعده، تنصّروا.

بهذا وصل التوحيد الكتابي والإنجيلي إلى مسامع وضمير الفتى القرشي، محمد بن عبد الله . فقد كان «يستمع إلى خطب الخطباء، ومن بينهم اليهود والنصارى الذين كانوا يأخذون على إخوانهم من العرب وثنيتهم، ويحدّثونهم عن كتب عيسى وموسى ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق. ويزن ذلك بميزان قلبه فيراه خيراً من هذه الوثنية التي غرق فيها أهله... وعرف محمد طرق القوافل في الصحراء مع عمّه أبي طالب ... وتروي كتب السيرة أنه التقى في هذه الرحلة بالراهب بحيرا (مرتين)[3]... وفي الشام كذلك رأى محمد أحبار الروم ونصرانيتهم وسمع عن كتابهم[4] ...» بعد ما عاشرهم في مكة، وعاش بجوارهم بعد زواجه من خديجة، ودربوه وطمئنوه في أوائل الوحي، وأرشدوه كلما عرض عليه شكّ (يونس ٩٤). فيسوغ لنا القول بأن محمداً اهتدى إلى التوحيد الإسلامي عن طريق التوحيد الكتابي، كما يشهد القرآن بذلك: «أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة ... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِه» أيها النبي[5] : فقد اندمج مع الكتابيين في مكة ثم استقلّ عنهم في المدينة.

*

---

(١) حسين هيكل : حياة محمد ٤١.
(٢) المرجع نفسه ١٦٤.
(٣) ابن هشام ١ : ١٩١ و ١٩٩.
(٤) هيكل : حياة محمد ٦٩ و ٧٠.
(٥) أنعام ٩٠، وراجع دروزة في تعليقه على آيات الأنعام (٨٤ ـ٩٠) ، سيرة الرسول ١ : ٣٠٢ .

وليس بصحيح كذلك أن الكتابيين كانوا بمكة « عبيداً » كما يزعم حسين هيكل وأمثاله ليقلّلوا من تأثير ونفوذ الدعوة التوحيدية الكتابية في مكة: « وكان النصارى واليهود بمكة عبيداً كما قدمنا. فكان مقامهم بهذه المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء. ولذلك كان ما يتحدّثون به من قصص دينية عن النصرانية واليهودية بعيداً عن أن يتصل بسمع أمجاد قريش وأشراف أهل البلد الحرام[1] » .

ان حضرة الدكتور يحب المغالطة ولو كانت مفضوحة. وتأبى الحقيقة إلا أن تُطل من خلال غيوم مغالطاته.

فقد ذكر حرية أهل الكتاب في الدعوة لدينهم وإقدامهم على تعيير العرب بأصنامهم واستجابة أهل مكة والحجاز لتلك الدعوة الملحة المتواصلة حتى زالت من نفوسهم قداسة الأصنام وانتشرت بينهم فكرة التوحيد[2] .

وذكر بعد سيرة ابن هشام كيف أن قوماً من أمجاد قريش نفروا في عيد العزّى، وسخِروا من شرك قومهم، وطلبوا التوحيد حتى اهتدوا إلى النصرانية وحاولوا نشرها في مكة، بالتبشير والكتابة، والنفوذ السياسي[3] .

وذكر وجود الأحابيش النصارى في مكة وسطوتهم ومحالفتهم لقريش - فهل تحالف قريش قوماً لا حول لهم ولا قوة ؟ - وذكر اتخاذ قريش « الحليس » سيد الأحابيش وسيطاً بينهم وبين محمد، يوم الحديبية؛ ألَا تدل هذه الوساطة على قرابة الوسيط الاجتماعية من قريش، وعلى قرابته الدينية من محمد، وعلى نفوذ وزعامة الوسيط ؟؟

وذكر أن محمداً لم يطمئن بسلطانه على الجزيرة حتى أزال سلطان أهل الكتاب القوي: « دان اليهود لسلطان المسلمين وتضعضع في بلاد العرب مركزهم حتى اضطروا لمهاجرة تلك البلاد وكانوا من قبلُ بها أعزّة[4] » .

وقد ذكر غيره تخوّف سادة مكة من ارتكاز محمد على أهل الكتاب في دعوته، وخطورة موافقة أهل الكتاب على دعوة محمد في مكة. فقد تضمنت آيات سورة القصص (٥٢ -٥٥)

---

(١) هيكل : حياة محمد ٦٦ كذلك جواد علي ٦ : ١٩٩، فإنه يعدّ النصارى والأحابيش أنفسهم عبيداً .
(٢) حياة محمد : ٨٩.
(٣) ابن هشام ١ : ١٧٧ و ١٤٠ ، قابل حسين هيكل ٨٩ .
(٤) حياة محمد ٣٦٠ .

« خبر إيمان الكتابيين بالقرآن كما تضمنت خبر تعرضهم للوم المشركين وبالأحرى لزعمائهم وتأنيبهم. فلم يأبهوا لذلك وظلوا متمسكين بموقفهم الإيماني. وهذا موقف عظيم يدل على قوة نفس ورسوخ إيمان بحيث لم يُبالوا ما يمكن أن ينالهم من أذى أولئك الزعماء الذين لا بد من أنهم قدروا **خطورة** تصديق أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والتنزيل القرآني ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم[١] » .

ويعلم الدكتور هيكل أن نشاط الدعوة المسيحية الذي حملها إلى أقاصي الدنيا لم يكن ليردّها عن الحجاز ومكة[٢]. ويعلم منافسة اليهود والنصارى على نشر التوحيد في الحجاز، وتخوّف اليهود من انتشار الدعوة القرآنية: « لقد كان اليهود أبصر خصوم محمد بتعاليمه وبمصير دعوته وكانوا أكثرهم تقديراً لِما يصيبهم بانتصاره. فهم كانوا في بلاد العرب دعاة التوحيد. **وكانوا ينافسون المسيحيين سلطانهم ويأملون مغالبتهم والتغلب عليهم** » [٣] - فلا يكونون عبيداً من يتنافسون على السيطرة على العرب في المدينة ومكة والحجاز والجزيرة كلها بالدعوة الدينية والسياسية.

ويعلم حضرة الدكتور وأمثاله أَن دعوة محمد في مكة لم تنجح لأن السيادة فيها للمشركين. وإنما نجحت في المدينة لأن السيادة فيها للموحّدين من أهل الكتاب. ومحمد دخل على تعبهم ودعوتهم. فقد استدعاه عرب يثرب لينافسوا بدعوته زعامة أهل الكتاب عندهم ويظهروا بها عليهم وينافسوا به مكة وقريش على زعامة عرب الحجاز. وقد نجحت دعوة محمد حيث كانت دعوة أهل الكتاب مسيطرة: « كان اتصال الجوار والتجارة في يثرب بين اليهود والعرب من شأنه أن يجعل أوس يثربها وخزرجها أكثر استماعاً للحديث في الشؤون الروحية وفي سائر شؤون الدين من غيرهم من العرب. يدلك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد الروحية مثلما استجابت يثرب[٤] » .

فمن كان « لهم ما لهم من أَثر في أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم ... (من كان لموقفهم الإيجابي من الدعوة المحمدية) الاعتبار الأكبر والقيمة العظمى[٥] » من يتقوّى بهم

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣٠٦ .
(٢) حياة محمد : ٦٦ .
(٣) حياة محمد : ٢٩٦ .
(٤) حياة محمد: ١٤٦ .
(٥) دروزة : سيرة الرسول : ٣٠٦.

محمد في مكة على تثبيت دعوته عند بني قومه أسياد مكة، من يسترشد بهم في أزماته النفسية ويستشهد بهم على صحة تعليمه لمكانة شهادتهم من نفوس العرب ... لا يكونون عبيداً لا يصل ما يتحدثون به من قصص دينية إلى إسماع أمجاد قريش وأشراف أهل البلد الحرام[١].

« فموقف محمد المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة المتحد معهم في الأهداف والمبادئ ... موقف يصل إلى الوحدة التامة بينهم[٢] » لا يجيز لنا أن نقبل بأن محمداً الذي يريد أن يفرض التوحيد على مشركي مكة الصناديد العتاة قد استعان « بعبيد » لا حول لهم ولا قوة في مكة والحجاز، ولا سيطرة ثقافية، ولا نفوذاً أدبيّاً ولا تأثيراً دينيّاً.

ألا قليلاً من الحياء، يا قوم، أمام الحقيقة التاريخية والقرآنية.

*

ورب قائل يقول. وما الوحدة القائمة بين القرآن المكي والتوحيد المسيحي المبني على التأليه والتثليث؟ إنه اعتراض عقائدي، والتاريخ مليء بالمتناقضات. ثم ليست الألوهية والتثليث في الإنجيل كما فهموا ويفهمون.

الوحدة قائمة بناءً على شهادة القرآن النهائية التي ختم بها العهد بمكة في سورة العنكبوت: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن[٣] وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن (جميعاً) له مسلمون ... وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ... بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » (٤٦ ـ ٤٩).

والمشكل المبعوث في الاعتراض لا سبيل إلى بحثه الآن بعد هذه الشهادة القرآنية الصريحة.

ونعرف من « العهد الجديد » إن الدعوة المسيحية في وسط وثني أو مشرك تبدأ بالدعوة إلى التوحيد. ولا تتطرّق إلى العقائد المسيحية الخاصة إلا متى « كمل » إيمان

---

(١) حياة محمد ٦٦.
(٢) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
(٣) الآية تزيد : « إلا الذين ظلموا منهم » ـ زيادة ظاهرة من زمن متأخر في المدينة ، لأنه في مكة لم يظلم أحد منهم بشهادة القرآن المكي الذي لا يذكر أبداً هذا الظلم ـ والوحدة التامة التي تصرّح بها الآية تنفي وجود مثل هذا الظلم .

المتنصرين (عبر ٥ : ١٢) و هكذا عندما بلغ الحواري بولس إلى آثينا عاصمة الوثنية الإغريقية التي كانت تدعمها الحضارة والثقافة المسيطرة على العالم الإغريقي الروماني، وتألبوا حول الرسول في محفل « الاريوباغس » ندوتهم السياسية والأدبية والدينية، لم يعلن لهم تلميذ المسيح سوى الإيمان بالله واليوم الآخر ببلاغة تليق بالموضوع والمقام « فذاك الإله الذي تعبدونه وأنتم تجهلونه، به أنا أبشركم. هذا الإله الذي صنع العالم وجميع ما فيه، إذ هو رب السماء والأرض ... فلما سمعوا بقيامة الموتى طفق بعضهم يستهزئون[١] » .

وفي البيئة اليهودية، المتصلبة في توحيدها، يظل أيضاً الأساس هو الإيمان بالله واليوم الآخر، كما تعلنه الرسالة إلى العبرانيين: « بدون إيمان يستحيل إرضاء الله ، إذ لا بد لمن يدنو إلى الله أن يؤمن بأنه كائن وأنه يثيب الذين يبتغونه » (١١ : ٦)؛ تلك هي « الأركان الأولى لأقوال الله » (٥ : ١٢) لأن « ما هو أساسي: الإيمان بالله وقيامة الأموات والدينونة الأبدية » (٦ : ٢).

وعلى هذه الخطة سارت النصرانية في العربية والحجاز، ومكة، خاصة حيث كان شِرْك العرب متحكماً. فكانوا يدعون فيه إلى التوحيد الكتابي الإنجيلي، ريثما يتوطّد فيُقلعون عن الوثنية والشِرْك، حينئذ ينتقلون بهم إلى العقائد الخاصة، كما حصل ذلك في المدينة. والقرآن شاهد عدل على هذه الصورة للدعوة الكتابية في مكة ثم في المدينة. ففي مكة حيث ينتشر التوحيد الكتابي لا جَدَلَ مع الكتابيين. ولكن في المدينة حيث الدعوة تتشعب بحسب الفرق، وحيث بدأ محمد يستقل عن أهل الكتاب، يظهر الجدل القرآني مع أهل الكتاب.

*

لقد أتضح لنا أن النصرانية أحاطت بشبه جزيرة العرب من كل أطرافه وأسست لها فيه كنائس موطدة، وأسقفيات منظمة، « ملأى بمئات الرهبان والراهبات. وعند الاضطهاد يقع بينهم الشهداء صرعى بالآلاف ... » .

انتشرت دعوة التوحيد الكتابي في الحجاز كله من شماله إلى جنوبه، وتمركزت في المدينة، تلك المستعمرة اليهودية الكبرى حيث ترعرع الإسلام؛ وتغلغلت إلى حصن

---

(١) اع ١٧ : ١٦ ـ ٢٤ و ٢٩ هذا الخطاب التوحيدي في المحيط الوثني الأول ، نموذج لكل خطابات القرآن المكية ، واستهزاء المشركين بالقيامة .

الوثنية العربية الأخير، مكة، حيث نشأ محمد، قبل زواجه، وخاصة بعد زواجه من السيدة خديجة، في بيئة توحيدية كتابية.

لقد قضت دعوة أهل الكتاب على الروح الوثنية في تلك الديار ... وكادت تقضي على عبادة الأصنام وتنتهي بنشر التوحيد الكتابي حول الكعبة لو أمهلها الإسلام بعض الوقت.

وقد رأينا مثلاً رائعاً في بعض أشراف قريش الذين تنصروا، واحتضنوا محمداً بعد زواجه ويوم بعثته[1] مثل عثمان بن الحويرث، من قرابة خديجة، الذي حاول أن يجعل من الحجاز ولاية مسيحية لقيصر ففشل! ومثل ورقة بن نوفل، ابن عم السيدة خديجة، الذي حاول نشر الثقافة الإنجيلية بنقله إلى العربية شيئاً من الأناجيل، وشجَّع محمداً بواسطة زوجه على المضي في نشر دعوة التوحيد الكتابي[2] .

وقد ورث محمد من بيئته الكتابية الطموح إلى نشر التوحيد وفرض سلطانه على مكة والحجاز، وزادته الدعوة العلوية طموحاً واستبسالاً. وفي حياة السيدة خديجة وورقة وعثمان ظلت دعوة محمد الأولى كتابية محضة كما نشأت أمياله كتابية.

« والوحدة التامة » [2] القائمة بين القرآن المكي والكتابي، خير دليل على سيطرة الدعوة التوحيدية الكتابية على المحيط المكي عامة، وعلى البيئة المحمدية القرآنية خاصة.

بحث خامس: القرآن الكريم يشهد بوجوب أهل الكتاب في مكة ونفوذهم

« و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ... و قولوا : آمنا بالذي أنزل إلينا و أنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد : و نحن له مسلمون » عنكبوت ٤٦

يحاول كثير من أدباء المسلمين اليوم إنكار وجود أَهل الكتاب في مكة، أو إنكار نفوذهم الأدبي وسيطرتهم الدينية، رغم الشِرْك الحاكم المتحكّم. ويجاريهم في ذلك بعض المستشرقين كالأستاذ بلاشير[3] .

---

(١) ابن هشام ١ : ٢٥٤ .

(٢) دروزة : سيرة الرسول . ج ١ ص ٣٠٥ قابل ص ٣١ .

(٣) *Régis Blachère* : Le Problème de Mahomet p25.

والقرآن الكريم شاهد عَدْل على وجود أهل الكتاب في الحجاز كله، وفي مكّة أيضاً، وعلى التأثير العظيم البالغ الذي كان لهم في نفوس الناس. ونجزم قائلين: لولا الدعوة الكتابية التوحيدية، لَمَا قامت الدعوة القرآنية في مكة والمدينة والحجاز والجزيرة فقد مهد أهل الكتاب السبيل للنبي العربي حسب قول الكتاب « واحد زرع وآخر سقى والله أنمى » (١ كور ٣ : ٥ ـ ٩).

تقع مكة على مسافة متوسطة بين يثرب اليهودية ونجران المسيحية. والمدن الثلاث سلسلة متصلة الحلقات على طريق القوافل من اليمن إلى سوريا ومن سوريا إلى اليمن، في «رحلتي الشتاء والصيف » . فإبعاد التأثير الكتابي من الشمال والجنوب عن مكة يتنافى مع طبيعة الأمور.

والقرآن المكي خاصةً كتابيّ في تعليمه وقصَصَه، فكيف يتمّ له ذلك ولا وجود لأهل الكتاب في مكة! ولا أثر لنفوذهم الأدبي والديني في مكة والحجاز ؟! فالسور المكية كلها توحي « بأن العرب كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب نظر الاعتماد والثقة[١] » ؛ وهذا النظر نظر الاعتماد والثقة كان على أشدّه عند محمد وفي البيئة القرآنية.

فالقرآن المكّي ينتسب إلى الكتاب وأَهله. فأي معنى لهذا الانتساب إذا فرضنا عدم وجودهم ونفوذهم ؟

منذ السور الأولى يُعلَن هذا الانتساب المطلق: « وإن هذا لفي الصُّحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » (أعلى ١٨ ـ ١٩)، و « فيها تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية ... وقد ورد في سورة النجم آيات (٣٧ ـ ٥٦) تماثل في نصها نص هذه الآيات وفي سياق تقرير المبادئ الإسلامية، واتفاقها مع ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام[٢].

وظل يردّد طيلة العهد بمكة أَن القرآن من الكتاب: « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدِّقاً لما بين يديه » (فاطر ٣١). فلقد « تضمنت الآية تقريراً بتأييد القرآن لما احتوته الكتب السماوية وتطابقه مع ما جاءَ فيها من مبادئ وأهداف. وفي هذا توكيد **للوحدة** بين الدعوة النبوية القرآنية والكتب السماوية التي عند الكتابيين » .

فالقرآن من الكتاب؛ وهو تصديق له بين العرب:

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣٠٠ .
(٢) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢٩٨ .

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدّق الذي بين يديه » (أنعام ٩٣).

« وهذا كتاب مصدّق لساناً عربيّاً » (أحقاف ١٢).

نزل القرآن إلى العرب ليصدّق الكتاب الذي بين أيديهم، ويفصّله لهم بالعربية حتى يفهموه :

« ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (يونس ٣٧).

« ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف ١١١). جاء هذا التفصيل والتصديق بالعربية لئلا يكون للعرب حجة على الله أنه لم يأتهم بلغتهم، أو كتاب بلغتهم يفهمونهما: « إن تقولوا: إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنَّا عن دراستهم لغافلين » (أنعام ١٧٦).

فهل يكون لهذا الانتساب من معنى في المحيط المكّي إذا لم يكن لأهل الكتاب قدم راسخة وتأثير فعَّال في المحيط المكي والحجازي؟

ثم إن القرآن يستشهد طيلة العهد كله بأهل الكتاب؛ فهل يستشهد القرآن بقوم لا وجود لهم؟ وهل يستشهد « بعبيد » بعيدين محتقرين لا وزن لهم ولا قيمة ؟! فلو لم يكن لهم «الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة[1] في مكة وسائر البلاد العربية لما كان لهذا الاستشهاد من معنى!

آية محمد للعرب أَنه جاءَهم بما في الصحف الأولى التي لم يقرأوها « وقالوا: لولا يأتينا بآية من ربه: أَولم تأتهم بيّنةُ ما في الصحف الأولى؟ » (١٣٣). فالآية « تضمنت تقرير أنّ التساوق والتوافق بين القرآن والكتب السماوية الأولى حجة قائمة وكافية على صحة الرسالة المحمدية والتنزيل القرآني، إلى تقرير الوحدة بين القرآن وهذه الكتب بأسلوب آخر. وفي الآية أيضاً دلالة على أن العرب كانوا ملمين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى، كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة[2]» .

وآية محمد لمشركي مكة أَن ما في القرآن يعلمه علماء بني إسرائيل الذين يجلـُّونهم: « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل » (شعراء ١٩٧)، « إنها بسبيل تقرير التطابق

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) دروزة: ١ : ٣٠٠ .

والتساوق بينه وبين ما يعرفه علماء إسرائيل أولاً، وتقرير الاعتماد عليهم والثقة بشهادتهم شهادة إيجابية ثانياً[1] » .

وحجته أيضاً عند بني **قومه** أن **أهل الكتاب يعلمون أنه منزَّل** فلا يجوز لهم من بعد الشك في ذلك، وأهل الكتاب عندهم في المكان الأرفع من الثقة: « أَفغير الله أبتغي حكماً! وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزَّل من ربك بالحق: فلا تكونن من الممترين » (أنعام ١١٤) ـ فهل يستشهد بقوم لا وجود لهم، ولا اعتبار ؟!

وحجته كذلك على بني قومه على صدق تعليمه أَن **أهل الكتاب يعرفونه** كما يعرفون أبناءَهم: « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم » (أنعام ٢٠)، « وهذه الآية تضمنت تقريراً قوياً وواضحاً بمعرفة أهل الكتاب صحة التنزيل القرآني معرفة لا يتطرّق إليها أي شك كما يعرف الأب ابنه. وطبيعي أن ينطوي في هذا تقرير الوحدة والتساوق من جهة، والثقة والاعتماد من جهة أخرى[2] » ـ فهل يُفهم هذا القرآن إذا أنكرنا وجود أهل الكتاب، ومنزلتهم الرفيعة عند محمد والعرب؟

لذلك إذا شك العرب من تعليمه أو رسالته فليسألوا أهل الذكر إن كانوا لا يعلمون: «فَسْئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزُّبُر » (نحل ٤٣ و٤٤). فقد نزل الذكر الجديد ليبيّن للناس ما نُزل إليهم في الذكر الأول (٤٤). وكلما قام جدل بين النبي والمشركين يستشهد بأهل الكتاب: « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فَسْئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (أنبياء ٧). ـ فهل يحيلهم على قوم لا وجود لهم ؟ أم يستشهد بعبيد لا قيمة لهم: فقيمة دعوته من قيمة شهادتهم!!

« وقد احتوت (الآيتان نحل ٤٣ وأنبياء ٧) تحدّياً استشهاديّاً بالكتابيّين أهل الذكر. والمتبادر أنه ينطوي فيها تقرير استعدادهم للشهادة وتقرير الثقة بهم والاعتماد عليهم فيها[3] » .

كذلك قد يصلُ بالنبي الاعتماد على أهل الكتاب إلى حلِّ أزماته النفسيّة وإدخال الطمأنينة على نفسه بصحة رسالته وصدق تعليمه: « فإن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك فاسأل

---

(١) دروزة: ١ : ٣٠٠ .
(٢) المرجع نفسه ٣٠١ .
(٣) دروزة : سيرة ١ : ٣٠٣ .

الذين يقرؤون الكتاب من قبلك: لقد جاءَك الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين)) (يونس ٩٤): ((لقد تضمنت الآية الاستشهاد بأهل الكتاب، والمتبادر أنه ينطوي في هذا تقرير استعداد أهل الكتاب للشهادة بصحة التنزيل القرآني كما ينطوي فيه تقرير طبيعة الوحدة والتساوق بين القرآن والكتب السماوية أولاً، والاعتماد على أهل هذه الكتب بالشهادة الإيجابية ثانياً[١])) .

فهل يفهم هذا القرآن إذا أنكرنا وجود أهل الكتاب في مكة، وتأثيرهم الغالب على محيطهم، ونفوذهم النافذ عند النبي العربي وفي البيئة القرآنية ؟؟

*

في مكة ينتسب محمد وقرآنة إلى أهل الكتاب، ويستشهد بهم لإدخال الطمأنينة على نفسه وكسب ثقة البيئة المكية، لما لهم فيها من تأثير بالغ. بل يعلن وحدة الإيمان والدين والوحي والكتاب والملَّة معهم ليكسب بهذه الوحدة ثقة بني قومه.

وتظهر وحدة القرآن والكتاب من أن القرآن نسخة عربية عن ((إِمامه)) الكتاب الأول: ((ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة)) (أحقاف ١٢). ويردّد الآية بنصها في (هود ١٧). وحَسْبُ النسخة فضلاً أن تكون مثل الإِمام الأصل.

ووحدة الإيمان في وحدة الهدى الذي يقتدي به: ((أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتدِهْ)) (أنعام ٩٠): إذا اقتدى بهدى أنبياء الكتاب يهتدي، وإذا بَعُدَ عن هداهم يَضِل ويُضِلّ أمتّه: فالهدى القرآني صورة عن الهدى الكتابي.

ووحدة الدين في الشرع الواحد من التوراة إلى الإنجيل إلى القرآن: ((شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه ـ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه)) . (شورى ١٣) ((وفيها تقرير حاسم لوحدة الأسس التي أوحى الله إلى الأنبياء، وخاصة نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وما أوحى إلى النبي محمد ص، وبين المسلمين وأهل هذه الكتب؛ والتطابق والتساوق بين الفريقين[٢])) .

ووحدة الملّة الكتابية التوحيدية من موسى إلى عيسى إلى محمد، على قول القرآن، حقيقة تاريخية عقائدية يفرضها فرضاً: ((إنَّ هذه أمَّتكم أمَّة واحدة: وأنا ربكم فاعبدونِ))

---

(١) دروزة: سيرة ١ : ٣٠١ .
(٢) دروزة: سيرة ١ : ٣٠٣ .

(أنبياء ٩٢): و « قد احتوت الآية تقرير وحدة طريق الأنبياء، وإن هذه الطريق هي طريق المسلمين أيضاً؛ واحتوت بالتالي تقرير الوحدة في الأسس بين الإسلام وأهل الكتاب[١] » ـ فهل تفهم هذه الوحدة الطائفية مع قوم لا وجود لهم، أو مع قوم « كالعبيد » ؟

أخيراً ختم القرآن رسالته في مكة بإعلان الوحدة التامة الشاملة مع أهل الكتاب: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن: وقولوا آمنَّا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون » (عنكبوت ٤٦) يختم كما بدأ بإعلان وحدة الإله، ووحدة الوحي والتنزيل، ووحدة الكتاب، ووحدة الدين والإيمان، ووحدة الملة الموَحِّدة المسلمة « ونحن (المسلمين والكتابيين) له مسلمون » !

فهذه الآيات القرآنية وغيرها تدل دلالة واضحة « على احتمال وجود جالية يهودية في مكة ... **وأنه كان عدد غير يسير من جوالي النصارى مستوطنين مكة**[٢] ... وفيها دلالة قاطعة على أن العرب كانوا ملمين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى. كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة ... ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب ... وكان لموقفهم (من الدعوة المحمدية) الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة » اللذان ساعدا على قيام الدعوة القرآنية وانتشارها وتوطيدها.

فهل تقوم مثل هذه الوحدة في مكة مع أناس لا وجود لهم؟ وهل يبقى للقرآن المكي من معنى إذا أنكرنا أحد طرفي هذه الوحدة، أو قلّلنا من أثرها البالغ واعتبارها الأكبر وقيمتها العظيمة في البيئة المكيّة خصوصاً، والحجازية والعربية إجمالاً ؟؟

في مكة قام بين القرآن وأهل الكتاب انتساب واستشهاد ووحدة ... ثم كانت الهجرة إلى المدينة وما طرأ فيها من تحوّل في الدعوة والداعي. فاستقلّ محمد في دعوة التوحيد عن أهل الكتاب؛ وأراد أن يستميلهم إلى ملّته فأبوا.

فوقع بينهم جدال فخصام فقتال.

إن سورة البقرة وآل عمران لتزخران بما قام من **جدَل**، في خلال سنتين، بين محمد وأهل الكتاب في المدينة. دعاهم إلى كلمة سواء (آل عمران ٦٤) يتركون فيها ملتهم

---

(١) دروزة : سيرة ١ : ٣٠٣ .
(٢) المرجع نفسه ٣٠٦ و ٣٠٨ .

ويهملون عقائدهم الخاصة ويكتفون بالتوحيد البسيط: فأبوا. «ولن ترضى عنك اليهود ـ ولا النصارى[1] ـ حتى تتبع ملتهم» (بقرة ١٢٠)، «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» (بقرة ١٣٥) «وقالوا: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى» (بقرة ١١١). ـ فكان الجواب: إن الرسول آمن بالله والنبيين «لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (بقرة ١٣٧) ـ ليس الهدى في اليهودية أم النصرانية، بل في إسلام التوحيد عامةً.

قالوا: وحدة الإله تقتضي وحدة الملة. فقال: «قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ونحن له مخلصون» (١٣٨).

قالوا: الآباء والأنبياء، كانوا هوداً. قال: «أَم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً ـ أو نصارى ـ قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومَن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله» (بقرة ١٤٠).

قالوا: تدّعي أنك على ملة إبراهيم: فملة إبراهيم هي ملة التوراة والنبيين. قال: «يا أهل الكتاب لِما تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون؟ .. ما كان إبراهيم يهوديّاً ـ ولا نصرانيّاً[2] ـ ولكن كان حنيفاً مسلماً» (آل عمران ٦٥ ـ٦٧) «وهكذا يكون القرآن قد دَمَغَ اليهود في موقفهم الحجاجي الثاني أيضاً، وزيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لهم وحسب[3]» .

قالوا: إن الله حصر النبوّة في بني إسرائيل وأورثهم الكتاب كما تشهد أنت بذلك: فلا نبيَّ إلا من اليهود ! أو: لا نبي من العرب! ـ وسورة الجمعة جواب على هذا الحجاج: «هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين ... ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء» (١ ـ ٦).

أجابوه: نحن أَولياء الله من دون الناس! ـ «قل يا أَيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس، فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين!» (جمعة ٦).

قالوا: النبي الحقيقي على شريعة موسى: ضحيتُه قربان تأكله النار!: «قالوا إن الله عهد إلينا أَلا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار! ـ قلْ: قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات، وبالذي قلتم، فَلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين» (آل عمران ١٨٠ ـ١٨٣).

---

(١) في هذه الآيات «ذكرُ النصارى استطرادي على ما يتبادر» (دروزة : سيرة ٢ : ٥١ حاشية).
(٢) الحجاج قائم في هذه الآيات بين اليهود ومحمد ـ فذكرُ النصارى إقحام أم استطراد .
(٣) دروزة: سيرة ٢: ٧٠ .

ثم تحدَّاهم بأنه هو النبي الأمّي ـ أي العربي ـ الذي تكلَّم عنه موسى. فطلبوا منه آية تشهد بنبوته أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء مثل ألواح العهد والوصايا: « يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء! فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرِنا الله جهرةً! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ... إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ... الله يشهد والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » (آل عمران ١٥٣ ـ١٦٧).

اعترضوا على النبي العربي في تغيير القبلة عن بيت المقدس إلى كعبة المشركين: «سيقول السفهاء من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (بقرة ١٤٢ ـ١٥٢). ويشهد القرآن بأن تبديل قبلة الموحدين بقبلة المشركين كانت « كبيرة » : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » . ثم يعطي أسباب الحكمة في تبديلها: إنها مظهر للاستقلال في الملّة، وتوجيه عملي لجهود المؤمنين إلى احتلال الكعبة وتطهيرها. وبهذا الاستقلال صاروا « أمة وسطاً » بين الكتابيين والمشركين: « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » . ويستشهد مع ذلك مرتين في النص بأهل الكتاب على صواب التبديل! (١٤٤و١٤٦). وفي زحمة الصراع الجدلي على أفضلية قبلة كل ملة من الملل الموجودة في المدينة، نتأكد من وجود أمم ثلاث في المدينة تسعى كل واحدة منها لنشر سيطرتها الدينية والاجتماعية على المدينة: « ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم. وما بعضهم بتابع قبلة بعض » (١٤٥).

ويدوم الجدال إلى موت الرسول العربي[1] .

ويتطور الجدال إلى **الخصام.**

لا تكونوا أول كافر به، يا أهل الكتاب من اليهود: « وآمنوا بما أنزلتُ مصدّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » (بقرة ٤١). من هذا الكفر الدسُّ بين المسلمين: « ودّت طائفة من أهل الكتاب[2] لو يضلّونكم: وما يُضلّون إلا أنفسهم وما يشعرون » (آل عمران ٦٩)

---

(١) جدال على النسخ وتبديل الوحي (بقرة ١٠٦) وعلى الحلال والحرام في الأطعمة (آل عمران ٩٣ـ١٠٠) ـ فقد حلل النبي لحوم الإبل وألبانها لضرورتها في الحجاز ووفرتها، وذلك مخالف للتوراة وملة إبراهيم ؛ وعلى أفضلية بيت الله في القدس على الكعبة (آل عمران ٩٦) وعلى أفضلية الكتاب الأول على الوحي القرآني (بقرة ٩١) وعلى الأمانة مع الأميين (آل عمران ٧٥) والحظوة عند الله (آل عمران ١٨ ونساء ٤٩) .

(٢) « ودّتْ طائفة من أهل الكتاب » (آل عمران ٦٩) أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ؛ وذكرُ إحداهما على هذه الصورة يشعر بوجود الطائفتين في المدينة. وحملة القرآن على هذه الطائفة التي تسعى بإبعاد المسلمين عن الرسول تعني أن لهم أثراً بالغاً في البيئة المدنية، وخاصة في المسلمين فيها أصحاب الرسول .

ومن هذا الكفر بالوحي الجديد التشكيك فيه والتذبذب: ((وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار، واكفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلاَّ لمن تبع دينكم ! ـ قل إن الهدى هدى الله ! .. أَن يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم. ـ قل: إن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء)) (آل عمران ٧٠ ـ ٧٣)، ((فقد تضمنت الآيات صورة دسّ وتشكيك بشعة جدّاً إذ حكت تآمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم في بعض المسائل[١])) .

ومن مظاهر تضليلهم التلاعب مع المسلمين بآيات الكتاب: ((وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب. ويقولون هو من عند الله ! ـ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)) (آل عمران ٧٨).

ومن أساليب التضليل تظاهرهم بالإسلام ثم الرجوع عنه للتأثير في أتباع محمد فيتركونه: ((كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات؛ والله لا يهدي القوم الظالمين: أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)) (آل عمران ٨٥ ـ ٨٦). لقد استحقوا اللعنة لأن موقفهم كاد يُضلّ المسلمين ويبعدهم عن الرسول لما لهم من تأثير ونفوذ، كما يشهد القرآن: ((يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين)) (آل عمران ١٠٠)[٢] . ((فالآيات تضمنت صوراً لمواقف دسّ وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين. ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود إنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته[٣])) .

تطور الموقف من سيئ إلى أسوأ: ((قد بدت البغضاء من أفواههم. وما تُخفي صدورهم أكبر)) (آل عمران ١١٨) واشتعلت الفتنة وبدأ الضرر، وخشي المسلمون ((ما لليهود

---

(١) دروزة: سيرة ٢ : ٩٥ .
(٢) لاحظ أن الخصام قائم بين محمد واليهود ، أحد الفريقين من أهل الكتاب ؛ ولا دخل للنصارى في هذا الخصام إلى آخر العهد بالمدينة .
(٣) دروزة: سيرة ٢ : ٩٩ .

من قوّة ومال وعدد وحصون وسلاح ؛ وان هذه الخشية كان منفذاً ينفذ اليهود منه إليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم، فقد استهدفت الآية التالية تهوين قوتهم وشأنهم ›› : ‹‹ لن يضروكم إلا أَذى، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنْصرون: ضُربتْ عليهم الذلّة أين ما ثقفوا ... وباؤوا بغضب من الله . وضُربتْ عليهم المسكنة ›› (آل عمران ١١٢).

باؤوا باللعنة ، والغضب، وأَمسوا أعداء للمسلمين: ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل؟ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً ›› (نساء ٤٣ ـ ٤٤). ولعل هذا الوصف يأتي لأول مرة في القرآن.

ومن صور عدائهم تآمرهم مع المنافقين من أهل المدينة الذين يبتغون عند اليهود العزّة: ‹‹ بشّر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين: أيبتغون عندهم العِزّة: فإن العزة لله جميعاً ›› ! (نساء ١٣٨ ـ ١٣٩). هذه الآية وأمثالها توحي بما كان لليهود في المدينة من عزة وأثر بالغ حتى يفضّل زعماء المدينة موالاتهم على موالاة المسلمين !

وإذ تظهر بوادر القتال بين المسلمين واليهود، يعد زعماء المدينة اليهودَ بالقتال إلى جانبهم: ‹‹ ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لَئن أُخرِجتم لنخرجَنَّ معكم، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً. وإن قوتلتم لننصرنّكم ›› (الحشر ١١)

فقد وقعت الواقعة ولا بدّ من **القتال والجلاء.**

*

كان اليهود دائماً ينبذون عهودهم للمسلمين: ‹‹ أَو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أَكثرهم لا يؤمنون ›› (بقرة ١٠٠). وقد جاَء في طبقات ابن سعد أَنه لما كانت وقعة بدر أظهر بنو قينقاع البغي والحسد، ونبذوا العهد **وكانوا أشجع الناس**. وكانوا يقولون لمحمد بعد نصر بدر: ‹‹ لا يغرَّنك ما نلتَ، فإنك لقيتَ قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبتَ منهم فرصة. وإنا والله لَئِن حاربناك لتعلَمنَّ أنَّا نحن الناس! ›› . فنزل فيهم: ‹‹ وإمَّا تخافنَّ من قوم خيانة، فانبذْ إليهم على سواءٍ إن الله لا يحب الخائنين ›› (أنفال ٥٥ ـ ٥٨).

نبذ إليهم وحاصرهم فنزلوا عند حكمه. وجاء في طبقات ابن سعد أن النبي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات في الشام.

وأخذ محمد والمسلمون يستعدّون لغيرهم: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل: ترهبون به عدوّ الله وعدوكم. وآخرون من دونهم لا تعلمونهم. الله يعلمهم » . (أنفال ٦٠).

وابن عباس في تفسيره يسمي سورة الحشر سورة بني النضير لأنها تصف حصارهم وجلاءَهم. وكان حصار بني النضير الأغنياء بديلاً من واقعة أُحُد التي انهزم فيها المسلمون. وكانت شوكة المسلمين قد قويت حتى بات اليهود في المدينة يخشونهم ويتحصنون في قراهم ووراء جدرهم: « لأنتم أشدّ رهبة في صدورهم من الله » (حشر).

استغل النبي خشية اليهود، وغيظ المسلمين من انكسارهم في أُحُد فحاصرهم وأخرجهم من ديارهم المنيعة الغنية: « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم. لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا. وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب: يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ... ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » (حشر ٢ ـ٥). لمَّا بدأ محمد بقطع النخل، وهذا ممنوع في الجاهلية، أسلموا بدون حرب ونزلوا على حكم الجلاء، فوضع محمد والمسلمون يدهم على مزارعهم وأملاكهم وسلاحهم، وأجلوهم إلى بلاد الشام آخذين منقولاتهم لا غير[١].

كان التنكيل ببني النضير أَرهب من جلاء بني قينقاع. ولكن الإرهاب بلغ ذروته بعد واقعة الخندق الذي حفره المسلمون لصدّ غزوة الأحزاب المؤتلفة. وكانت هذه الغزوة العنيفة محبوكة الأطراف بين اليهود وأحزاب الكفـّار من قريش والأعراب والمنافقين للقضاء على الكيان الإسلامي قضاءً مبرماً فارتد الأحزاب عن المدينة بسبب الخندق الذي يحميها، وبسبب ريح صرصر أقذتَهم (أحزاب ٩) « وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال » (٢٥). وجاءَ دور بني قريظة الذين أَلـَفوا الأحزاب، ومدّوها من داخل: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصهم (حصونهم) وقذف في قلوبهم الرعب: فريقاً تقتلون وفريقاً تأسرون. وأورثكم أرضهم وديارهم، وأموالهم، وأَرضاً لم تطئوها، وكان الله على كل شيء قديراً » (٢٦ و٢٧)

(١) قابل دروزة : سيرة ٢ : ١١٩ لاحظ سبب القتال والجلاء : فهو شقاق الرسول لا الكفر (حشره) .

ـ فقتلوا الرجال في الخنادق، وسبوا النساء والأطفال، وقسموا الأموال والأراضي القريبة إلى البلدة والبعيدة عنها.

ثم كانت غزوة الحديبية، وصلحها الذي فتح للمسلمين أبواب مكة بعد سنة، لكن لم تكن منها مغانم. فقفل محمد راجعاً نحو الشمال إلى وادي القرى، وأهله أكثرهم من اليهود والنصارى. وحاصروا خيبراً اليهودية لكثرة مغانمها تعويضاً لفشل الحديبية المالي: « سيقول المخلّفون إذا انطلقتم **إلى مغانم لتأخذوها**: ذرونا نتّبعكم ... قل لن تتبعونا، كذلكم قال الله من قبل! بل فسيقولون: بل تحسدوننا! بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » (فتح ١٥)؛ فحاصروا خيبراً الزراعية، « وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها ... وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه، وكفّ أيدي الناس عنكم (في الحديبية) ... وأُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » : (الفتح ١٨ ـ٢١). وهذه الأخرى هي فدك وتيماء ووادي القرى الذين صالحوا محمداً على نصف محصولاتهم.

بهذه الغزوة نحو الشمال أتم محمد تصفية الموقف مع يهود الحجاز وأمن جانبهم نهائياً. وبات الطريق مفتوحاً أمامه لغزو مكة. فكان الفتح الأعظم. ثم غزوة الجنوب إلى حنين، فدان له الحجاز كله. وفي هذه الأثناء، بينما كان الجدال والخصام والقتال قائماً بين محمد واليهود، **كان النصارى أهل المودة رغم « الانحراف »** الديني الذي عاتبهم عليه القرآن: « لتجدنّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا. ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنَّا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون: ربنا آمنَّا فاكتبنا مع الشاهدين » (مائدة ٨٥ و٨٦).

ولما دان الحجاز كله توجهت الغزوات نحو مشارف الشام حيث كانت الكثرة الساحقة من النصارى العرب: فكانت معارك مؤتة وتبوك التي تغيّر فيها الجوّ مع المسيحيين فجاءت الآية الوحيدة ـ مع ما فيها من قيود ـ بقتال النصارى وإخضاعهم للجزية، سواءً بسواءٍ مع اليهود: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » (توبة ٣٠).

تفهم هذه الآية عن اليهود الذين ظل النبي يقاتلهم طيلة العهد بالمدينة حتى أمن مكرهم

ونفوذهم وسطوتهم على العرب. وأكثر المفسرين يدخلون في مفهومها لأهل الكتاب النصارى أيضاً بسبب الآيـة التالية لها: « وقالت اليهود: عزيز ابن الله ! وقالت النصارى المسيح ابن الله ! ... قاتلهم الله أَنَّى يؤفكون! » (٣١). ولكن ليس من ضرورة منطقية لقيام وحدة بيانية بين الآية ٣٠ و٣١. فقد حذر القرآن النصارى مراراً من « الغلو » في الدين ولكن ظل دائماً على صلة مودة بهم، ولا أَثر للخصام والقتال معهم بل ختم قبل التوبة[١] مباشرة بإعلان مودة النصارى والمسلمين في المائدة (٨٥). فلا شيء يرغمنا على جعل الآيتين من التوبة ٣٠ و٣١ وحدة متماسكة، وعلى إِقحام النصارى في « أهل الكتاب » الذين توجب الآية ٣٠ قتالهم وإخضاعهم للجزية؛ والتنكّر في آخر الأمر والعهد، للمودة القائمة بين النصارى والمسلمين، طيلة العهد المكي والمدني.

وهكذا يشعرنا القرآن المدني بوجود النصارى في المدينة ومحالفتهم للمسلمين؛ ويصف الجدال فالخصام فالقتال الذي قام بين اليهود والمسلمين. ولم يأمن محمد طريق مكة، والسيطرة على الحجاز، حتى وادع النصارى فيه، وأَجلى اليهود.

فهل يفهم هذا القرآن إذا أنكرنا وجود أَهل الكتاب في مكة والمدينة والحجاز وتنكّرنا لما كان لهم من منعة وعزّة ونفوذ على محيطهم كما اعترف القرآن بذلك صراحةً وتكراراً ؟

لا يأمر القرآن بقتال أَو محالفة قوم لا وجود لهم أَو لا عزّة عندهم. إنما كان القتال أَو التحالف لانتزاع السيطرة الدينية والاجتماعية التي كان يتمتع بها أهل الكتاب في مكة والمدينة والحجاز.

فالقرآن الكريم شاهد عدل ـ لا حاجة لسواه ـ على وجود أهل الكتاب في مكة والمدينة والحجاز، وعلى نفوذهم الديني والأدبي وسط الشِرْك الحاكم.



---

(١) هناك خلاف بين أئمة المفسرين على آخر السور نزولاً : « فيه اختلاف : فروى الشيخان عن البرّاء قال: آخر سورة نزلت براءة (التوبة) ... وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة قالت: « آخر سورة نزلت المائدة ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه » . (الإتقان ١ : ٢٧) . فإذا كانت سورة المائدة آخر ما نزل ، فتكون آية « المودة » فيها ناقضة لمفهوم قتال النصارى في آية التوبة ٣٠ ـ ٣١ .

الفصل الثالث

وثنية الحجاز عند ظهور الإسلام شكلية

« وما يؤمنُ أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »
يوسف ١٠٦

من آثار انتشار دعوة التوحيد الكتابي عند العرب، اضمحلال الوثنية العربية في أطراف الجزيرة من الشمال والجنوب، وانحلالها في الحجاز ومكة موطن النبي العربي؛ وذلك قبل ظهور الإسلام.

فقد حكرت حركة التوحيد الكتابي تلك الوثنية العربية في الحجاز، وحاصرتها فيه، ونافستها حتى كادت تقضي عليها، فأخذت تنحلّ من ذاتها قبل مجيء محمد[١]. وإن لم يدخل الجميع في توحيد الكتاب وأهله، فقد قُضي على الروح الوثنية القديمة، « وزالت قداسة الأصنام من نفوس العرب » ، وأهل مكة، والقرشيين أنفسهم[٢]، سادة الكعبة، حتى أمست وثنية شكلية، جسماً بلا روح، وعادة موروثة لا عبادة معقولة مقبولة. قال الشهرستاني: إن العرب كانوا يقولون « الشفيع والوسيلة » منا إلى الله هم الأصنام المنصوبة فيعبدون الأصنام التي هي الوسائل[٣].

وهذه الوثنية الشكلية لنا عليها البرهان الأكبر في القرآن الذي يسمّيها « شِرْكاً »

---

(١) هيكل : حياة محمد ٨٩.
(٢) نقل القرآن اعترافهم هذا : « إنا وجدنا آباءَنا على أُمّة وإنا على آثارهم مهتدون » (زخرف ٢٢) .
(٣) الشهرستاني : كتاب الملل والنحل ١٠٩.

لا وثنيّة. والشِرْك في القرآن يعني معرفة الله وعبادتَه، ولكن مع شريك له من خَلْقه في هذه العبادة: « وما يؤمن أكثرهم بالله إِلا وهم مشركون » (يوسف ١٠٦): فهم إِذن يؤمنون بالله ، ولكن يشركون في عبادتهم له.

والقرآن كله يقاوم في مكة والحجاز شِرْكاً لا وثنية بالمعنى الصحيح. فالوثنية قد زالت بتأثير الدعوات التوحيدية من مسيحية ويهودية وحنيفية مستقلة؛ ولم يبقَ منها سوى الشكْليات لا غير حول الكعبة؛ وهذه الشكليات نفسها كانت في سبيل الزوال لو لم تقف منافع الحج المادية من ورائها. ولنا شاهد على مدى هذا الزوال قَسَمٌ في يوم الدين ينقله القرآن على لسان المشركين: « ثم لم تكن فتنتهُم[1] إِلا أن قالوا: واللهِ ربِّنا ما كنَّا مشركين » (أنعام ٢٣) قد يكذبون في الدنيا على الله والناس؛ ولكن هل من سبيل إلى الكذب يومَ الدين في نور الله ؟!

*

وهناك رأي علمي إِن الشعوب السامية ـ ومنهم العرب ـ كانوا في الأصل على التوحيد، وإنما الوثنية والأصنام والشِّرك عرَضٌ طرأ على حياتهم الدينية لأسباب عديدة[2]. وهذه النظرية العلمية تؤيد ما ذهبت إليه التوراة من أن التوحيد هو دين الأجداد والآباء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم، وكان الوحي والتنزيل يتكفّل بتصفيته من جيل إلى آخر.

وتذكر كتب السيرة أن الوثنية دخيلة على العرب.

ووثنية العرب العاربة في الجنوب كانت من نوع الوثنية الفلكية، انتهت إلى عبادة «ثلاثية » كوكبيّة: القمر والشمس والزهرة: الأب والأم والابن: الإله وَدّ والإِلهة شمس، وعشتر ابنهما[3] وقد ذكر القرآن هذه العبادة ونهى عنها (فصلت ٣٧).

أَمَّا وثنية العرب المستعربة فقد كانت على أساس حجري، باعتبار بعض الأحجار

---

(١) قرأ ابن كثير وعامر وحفص « لم تكن فتنتهم » بالتاء و الرفع ، و نافع وأبو عمرو و أبو بكر عنه بالتاء والنصب . والباقون بالياء والنصب . ـ وفتنتهم تعنى اعتذارهم عند الله ، أو جوابهم له تعالى يوم الدين (عن البيضاوي).
(٢) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٢٠ ثم ١٢٠.
(٣) تنقلب الأجناس عند البابلين : فالشمس ذكر وهو المقدم والقمر مؤنث وعشتروت مؤنث .

بيت الله. وهذا انحراف أيضاً عما نجده في التوراة من اتخاذ بعض الأحجار والأنصاب معبداً ورمزاً للإله[1].

فقد كانت وثنية العرب، قبل انتشار الدعوة التوحيدية الكتابية، بدائية كالتي وجدها إبراهيم وأولاده في كنعان عند دخولهم إليها، شبيهة بديانات الساميين الأوائل الذين جسّموا عبادة إله التوحيد. فاقتصرت على عبادة أحجار مخصوصة يدّعون أنها مسكن الإله، يُقام حول هذه الأحجار المقدسة بناءٌ بسيطٌ تحيط به قطعة أرض مباركة تُدعى « حَرَماً » يقدّس كل ما فيه من أشجار وحيوانات وأشخاص. لذلك يصير هذا الحرم ملجأً أميناً لكل مَن دخله. وفي هذا الحرَم أو دونه جُبّ ماء يكون هو أيضاً مقدَّساً لأنه ينقذ العطشى من الهلاك، كما فعلت، بحسب السيرة، بئر زمزم بهاجر وابنها إسماعيل[2]. ويكون بقرب المعبد جب لا ماء فيه لدم الضحايا. وفي أرجاء المعبد والحرم شجرة مقدسة تعلّق بها النذور والتقادم والهدايا. وكانت زيارة ما يسمونه « بيت الله » أو الحج، في أوقات من السنة معلومات يسمونها الأشهر الحُرُم لتحريم القتال والصيد فيها، فالإنسان والحيوان آمن في غضونها. وكان الحجاج يؤمّون المزار حالقين رؤوسهم، متشحين ثوباً مستعاراً ـ « الإحرام » ـ أو يكونون شبه عراة؛ ثم يطوّفون حول البيت سبعاً[3]، ثم يدخلون فيقبّلون الحجر الأسود ويلحسونه وهذا ما يسمونه « الحج إلى بيت الله الحرام » .

وقد حفظ الإسلام كل هذه المراسيم الوثنية بعد ما طهّرها من معانيها الوثنية إلى عبادة توحيدية. فما كعبة مكة إلاَّ أحد تلك البيوت المكرّسة للإله. وما الحجر الأسود المحفوظ فيها ـ والذي قالوا عنه إن جبريل نزل به من السماء إلى إسماعيل يوم جدد بناء الكعبة التي كان آدم ثم نوح قد بنياها من قبلُ ـ سوى أحد الحجارة المقدسة عند العرب. وما زمزم إلا أحد الآبار المباركة في الجاهلية. وما الحج إلى كعبة مكة، والطواف والتلبية، ولحس الحجر الأسود إلا من آثار الماضي الجاهلي.

---

(١) كما حدث ليعقوب لمّا رأى الله في منامه في بلدة لوز : « بكر يعقوب في الغداة وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه نصباً وصب على رأسه دهناً و سمّى ذلك الموضع « بيت إيل » ، أي بيت الله وكان اسم البلدة أولاً لوز » (تكوين ٢٨ : ١٨) .

(٢) تجعل التوراة هذا الحادث قرب بئر سبع من فلسطين (تكوين ٢١ : ١٥ ـ ٢٠).

(٣) الطواف سبعاً من عادات الساميين الدينية كما فعل العبرانيون حول أريحا طالبين إلى الله سقوطها. (سفر يشوع ٦ : ٤).

وأشهر « بيت إله » كان في الحجار كعبة مكة لوقوعها في الوسط من طريق القوافل؛ لذلك لزمت قريش جوارها، وقامت بسدانتها. وكانت زعامة قريش الدينية والمدنية على مكة والحجاز تأتيهم من ذلك الجوار وتلك الوظائف التي يشغلونها، خاصة في مواسم الحج. وتقاسم بنو قُصيّ، الجدِّ الأعلى للنبي، تلك الوظائف فكانت السقاية والرفادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار[1].

وذكر المؤرخ اليوناني ديودورس السيكيلي (قبل المسيح بستين عاماً) إن الكعبة كانت معتبرة في عهده مسجداً مقدساً[2].

وحوت الكعبة أصناماً لكل القبائل، وبهذا الدهاء جعل القرشيون كعبتهم قبلة القبائل كلها. وكان كبير الآلهة فيها الصنم « هُبل » جعلوه على صورة إنسان من عقيق أحمر، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب[3].

وكان قدامه سبعة أقداح يستقسمون بها في كل أمر ذي بال، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه؛ فكانت وظيفته إذن الإفتاء في مشكلات الناس. وكان قربانه مئة بعير[4].

« وكان المقدم على المعبودات التي حوتها الكعبة إذ ذاك « الله » ... ويسوغ الاستنتاج إن الله كان المعبود القبلي لقريش قبل الإسلام[5] » . وقال الدكتور جواد علي: « يظن بعض المستشرقين أن « الله » هو اسم صنم كان بمكة ـ لعلّه هبل ـ أو أنه إله أهل مكة بدليل ما يُفهم من القرآن في مخاطبته ومجادلته أهل مكّة[6]، من إقرارهم بأن الله هو خالق هذا الكون » . ويضيف ـ ونحن نؤيده بناءً على شهادة القرآن: « وأرى أن « الله » هو الإله في نظر من كان يدين بالتوحيد من العرب عند ظهور الإسلام[7] » .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ : ١٣١ و١٤٠ ـ الحجابة أن تكون مفاتيح البيت عندهم فلا يدخلها أحد إلا بإذنهم؛ والسقاية من زمزم يضعون بمائه شراباً يمزجونه ، في موسم الحج للحجاج ، تارة بعسل وتارة بلبن وتارة بنبيذ ؛ والرفادة : طعام تجمعه قريش كل عام لأهل الموسم ؛ والندوة : دار خاصة للاجتماع والشورى ؛ واللواء : علم الحرب لا يحمله إلا قوم معلومون.

(٢) تاريخه : الكتاب الثالث .

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ٢٨ ، قابل سبائك الذهب ١٠٤.

(٤) الأزرقي ١: ٦٨ .

(٥) حتي : تاريخ العرب ١ : ١٣٩ و١٤١.

(٦) إنه سوء فهم منهم لهذا الجدال : فلقد تفاهم محمد ومشركو مكة على أن « الله » خالق السماء والأرض يعني إنهم لا يعتبرونه إلهاً قبليّاً بل الإله الخالق الأوحد.

(٧) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٢٤ .

فلا يعنينا هنا شأن الوثنية العربية القديمة، وأصل اسم « الله » وعبادته عندهم، بل ما آلت إليه حالُها عند ظهور الإسلام، وما يقوله لنا القرآن عن الله وعبادته في مكة، وهو الشاهد العدل الوحيد على بيئتِه.

فالله هو اسم الجلالة العام والخاص عند الحجاز، بحسب القرآن، وليس اسم صنم أو معبود قبلي. وما يراه المستشرق ولهاوزن ـ من أن كلمة « الله » لم تكن تعني إلهاً معيّناً وإنما تعني ما تعنيه كلمة ربّ وإله، استعاضوا بها من اسم الصنم الخاص وذكره[1]، ـ قد يكون ذلك قديماً. أمّا عند ظهور الإسلام فلفظة « الله » تعني اسم الجلالة عند عرب مكة والحجاز كما يشهد القرآن.

وكان اسم الجلالة الآخر « الرحمان » معروفاً في تهامة واليمن أخذاً عن الحبشة، من حيث جاءَت به سورة مريم. و « الرحيم » اسم الجلالة عن عرب الشمال حتى البلقاء وتدمر ومواطن بني تنوخ. وقد دخل إلى نصارى سوريا والعرب نعتاً لله في صلواتهم، وكما جاءَ في البسملة القرآنية.

وتوصّلاً إلى توحيد العرب حول اسم الجلالة الواحد، القائم في الحجاز، جعل محمد اسم الجلالة « الرحمان » واسم الجلالة « الرحيم » صفات لله في بسملته الجامعة، أو ألقاباً تقوم مقام اسم الجلالة « الله » ؛ إيلافاً لعرب الجنوب والشمال وتوحيدهم معه.

*

ولكن السبيل كان قد تهيأ له وكان التوحيد الكتابي في مكة وحول الكعبة قد نقّى الجوّ والنفوس. وكانت تأثيراته قد دخلت في حياتهم الدينية والاجتماعية. قال الشهرستاني أيضاً: «وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت شريعة الإسلام بها: فكانوا لا ينكحون الأمهات والبنات. وكان أقبح شيء عندهم الجمع بين الأختين. وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه الضيزن. وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويُحْرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار. وكانوا يكسبون في كل ثلاثة أعوام شهراً. ويغتسلون من الجنابة. وكانوا يداومون على المضمضة والاستنشاق، وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان. وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى[2] » فلولا روح التوحيد الكامنة فيها لما جاءَ بها الإسلام.

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤١٩ .
(٢) الشهرستاني : الملل والنحل.

ففي حج قريش وصلاتهم كانت التلبية توحيدية رغم ظاهرها: « لبَّيْك اللهم لبَّيك، لبَّيك **لا شريك لك**، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك[1] » ، فهل هذا الشريك المملوك يحمل معنى الشريك المعبود كما يقتضيه الشِرْك الوثني: إنه عبدٌ لله تعالى المعبودِ الوحيد.

إنه شركٌ ظاهري، باللفظ فقط، ولكنه بالمعنى توحيدي.

ومن شعائرهم الدينية: الصوم. كانت قريش في الجاهلية تصوم يوم « عاشوراء » إقتداءً وتأثيراً بيوم الكفَّارة « كبّور » عند اليهود[2]. جاءَ في التوراة: « هذا يكون لكم رسماً أبديّاً: في اليوم العاشر من الشهر السابع تذلّلون نفوسكم ... لأنه في هذا اليوم يكفر عنكم لتطهيركم ... يلبس الكاهن الثياب المقدسة ويكفّر عن جميع الخطايا مرة واحدة في السنة » ونقل « بلوغ الأرب » عن عاشوراء إن العرب في هذا اليوم كانوا يحتفلون ويعيدون، ويكسون الكعبة ويدخلونها مستغفرين[3].

« ويرى بعض المستشرقين أنه بالنظر إلى حرمة الأيام العشرة الأولى من شهر «تشري » تشرين عند العبرانيين، منذ القديم، وحرمة هذه الأيام عند الجاهلين لا يُستبعد أن تكون حرمتُها قد ظهرت عند الجاهليين من اتصالهم باليهود ومن تأثرهم بهم: ولهذا التأثير نفسه أثر في جعل المحرّم الشهر الأول في التقويم[4] » .

وأنواع الوضوء في الجاهلية، كالاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى، قد فشت في قريش وغيرها من العرب بتأثير أهل الكتاب من اليهود. ولتأصّلها في أخلاقهم الدينية رأى القرآن أن يقرّ هذا السَّنَن، وأن يُستعاض عن الماء، عند الضرورة، بالتيمّمْ.

وعقيدة القدر والتعابير الجاهلية عنها، حتى في شعرهم، توحي بسيطرة روح التوحيد على عقول الناس، ويرى نُلْدِكه، المستشرق الكبير، أن أمثال هذه التعابير: « المنون » «والدهر » أسماء تعبّر عن معانٍ مجرّدة للألوهية، ولا تعني إلهاً معيناً أو صنماً خاصّاً بذاته.

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤٠٤ مع الحواشي : المحبر ٣١١ و البخاري : كتاب الحج: الحديث ٣١.
(٢) المرجع نفسه ٤٠٥. وسفر الأحبار ١٦ : ٢٩ ـ ٣٤.
(٣) بلوغ الأرب ٢٨٨/٢ .
(٤) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤٠٨ ؛ مع المصدر : Noldeke. Qoran T S 170 .
(٥) المرجع نفسه ٤٠٥ .

ويرى ولهاوزن، المستشرق الأكبر، أن التعابير « قضاء » و « منيّة » أصلها « قضاء الله » و « منية الله » سقط عجزها وبقي صدرها[1].

فشعائر العرب الحجازيين الدينيّة لم يبقَ لها من الوثنية سوى مظاهرها التي أُدْخلت عليها روحٌ توحيدية جديدة، بتأثير الدعوة الكتابية.

*

وتعابير القوم في أَقوالهم وصلاتهم تتَّجه نحو التوحيد؛ فالعرب تستعمل عادةً في كلامها: « لله دَرَّه » . قال لبيد:

كم شامتٍ بي إن هلكْتُ ، و قائل : للهِ درُّه !

وتقول في الخير: « جزى الله » ، وفي التقبيح: « لحى الله » كما جاءَ في لبيد:

« لحى الله صعلوكاً جُنَّ ليله » .

وقول أحدهم:

جزى الله الشدائد كلَّ خيرِ   عرفتُ بها عدوي من صديقي

وكقول الحطيئة :

أرى لي وجهاً قبّح الله خلقه !   فقبُّحَ من وجهٍ وقُبّح حامله !

*

والعقود والعهود تُستفتَح « باسمك اللهمّ » . وهذه عادة توحيدية محضة، فقد جُرّدت من كل معاني الوثنية والشرْك التي كانت عالقة بأصلها. واستعمال هذا التعبير بين جميع العرب، خاصة الحجازيين، يفيد أنه اسم الإله عامةً » لا اسم إله قبلي أو مخصوص.

وعندنا على هذا الاستفتاح التوحيدي مثال رائع في كتابة صلح الحديبية بين محمد وسهيل بن عمر ممثل أهل مكة. أمر محمد كاتبه أن يبدأ: « باسم الله الرحمان الرحيم » فاعترضه سهيل قائلاً: « لا أعرف هذا ! ولكن اكتب: باسمك اللهمّ ! » . ليس اعتراض سهيل على التوحيد بل على استعمال الرحمان والرحيم في البسملة ممَّا لم يكن شائعاً في الحجاز[3]؛

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤١٥ ـ « نموتُ ونحيا وما يهلكُنا إلا الدهر » (جاثية ٢٣).
(٢) ديوان لبيد ـ تحقيق بركلمن ص٢.
(٣) في سورة الأنبياء دليل على رفضهم « الرحمان » اسماً للجلالة : « وهم بذكر الرحمن هم كافرون » ٣٦.

فاسم الجلالة التوحيدي في الحجاز هو « الله » فقط ، لذلك طلب سهيل إتباع عادة أهل مكة التوحيدية في عهودهم. ومجاراة النبي له في طلبه تفيد أن التعبير توحيدي عند قريش وأهل مكة.

*

والأقسام عند العامة تعبّر عن صميم اعتقادهم. والحال أن عرب مكة والحجاز لم يكن دارجاً بينهم سوى القسم « بالله » . أما الأقسام بآلهتهم فقد اندرست. ويتبع القسم بالله في عاداتهم « التشفّي والتمنّي وأمثال ذلك من حالات[1] » .

فجميع هذه التعابير الدينية، والاجتماعية، والأدبية، ذات النزعة التوحيدية تعني أنَّ وثنية الحجاز أمستْ شكلية، أقرب إلى التوحيد منها إلى الشِّرْك الحقيقي. قال القرآن: ـ وهو الشاهد العدل ـ : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون » (يوسف ١٠٦) فالكثرة على التوحيد المشرِك، ولكن هناك أقلية على التوحيد الخالص، قبل ظهور الإسلام.

وهكذا كان العرب على وثنية متطرفة، فلكية أو حجَرية، قبل اتصالهم بأهل الكتاب. ولمَّا اتصلوا بهم تطورت فكرة الألوهية بينهم إلى عبادة إله قومي، ظنّاً منهم أن « يهوه » اسم إله اليهود، فصار لكل قبيلة إلهُها كما كانت لكل جماعة من الساميين الأوائل إلههم الأوحد[2]. وتحت ضغط الدعوة الكتابية في الجزيرة سمت فكرة التوحيد إلى عبادة الإله الأكبر، ربّ السماء والأرض، تحت أسماء توحيدية متعددة كما مرَّ بنا: « الرحمان » في الجنوب، و « الله» في الحجاز، و « الرحيم » في الشمال. وقبول هذه الأسماء التوحيدية في القرآن ودمجُها في صيغة موحَّدة « الله الرحمن الرحيم » برهان على أنها كانت حقيقة أسماء توحيدية عند أصحابها. وتطورت نظرتهم إلى معبوداتهم القديمة من « أنداد » لله (بقرة ١٦٥) « وشركاء» (أنعام ١٠٠) بالمعنى الصحيح إلى شفعاء (زمر ٣) وأولياء (فصلت ٣١) يتقرّبون بهم «زلفى » إلى الله الحق. وهؤلاء الأولياء والشفعاء ، كانوا الملائكة (أنبياء ٢٤ ـ ٢٧)؛ وقد يقصدون بهم أيضاً الشهداء والأنبياء، إقتداءً بالعقيدة الكتابية، من يهودية ومسيحية، المنتشرة بينهم.

وإذن وثنية شكلية، وشرْك ظاهري، ولكن توحيد حقيقي رغم مظاهر الوثنية وتعابير الشرك.

*

---

(١) جواد علي ٥ : ٤١٩ .
(٢) نظرية العالِمَين Max Muller, Bleidler التي تعارض نظرية رينان التي مرت بك.

وللدكتور جواد علي[1] نظرية طريفة في تطور الوثنية العربية إلى الشرْك فالتوحيد الصِرْف: ((مِنْ حصْر صفات الآلهة وضبطها تتمكن من تعيين صفات الله أو الآلهة في نظر الجاهلين: إنها صفات تدل على معانٍ خلقية مجرَّدة. وأعني بالمجردة أنها معانٍ غير مادية وذلك يساعدنا كثيراً على فهم الصورة التي كانت في مخيلة أهل الجاهلية عن الآلهة. وقد أقر الإسلام هذه الصفات لأنها لا تصادم أصول الإسلام في التوحيد.

((ويفيدنا حصر هذه الصفات من ناحية أخرى وهي معرفة عدد الآلهة عند الجاهلين. فأسماء الآلهة التي سجلها العلماء تبلغ العشرات. ولكن هذا الرقم سينزل كثيراً عن مستواهُ الأعلى إلى مستوى منخفض جدّاً بتحليلنا هوية هذه الأسماء وإعادتها إلى عناصرها الأولى. إذ سيظهر لنا من هذه الدراسة أن أكثر تلك الأسماء ليست أسماء آلهة وإنما هي صفات لها. وأن الكلمات التي لا يُشكّ في كونها أسماء صحيحة قليلة جدّاً ربما لا يتجاوز عددها بضعة أسماء. ومَن يدري؟ فقد تكون بالنتيجة اسماً لإله واحد. ـ وعندئذٍ يمكن أن نتوصل إلى نتيجة علمية بالقياس إلى عقيدة الشِرْك أو التوحيد عند العرب)) .

وقد يقول قائل: إن إبقاء الأصنام في الكعبة، وتعبُّد القوم لها، وتلبية كل قبيلة عند ((إلهها)) منهم، دليل على بقاء الوثنية في حقيقتها عند عرب مكة والحجاز.

رأينا أن بقاءَها والتعبد لها كان من رواسب الماضي البائد لأسباب اقتصادية، هي المتاجرة بالدين، لا لمعانٍ دينية عقائدية. وصار بقاؤها من باب التقرب والزلفى إلى الله: ((وقد كانت الأصنام من جملة الشفعاء الذين تشفَّعَ بهم أهل الجاهلية في التقرّب إلى آلهتهم باعتبار أنها رموز ترمز إلى تلك الآلهة. ولعلّ لليهودية والنصرانية أثراً في شيوع هذه الفكرة بين أهل الحجاز، خاصة بين أهل مكة والمدينة، فالشفاعة معروفة بين هاتين الديانتين[2])) .

فاعتبار الأصنام رموزاً إلى شفعاء لا إلى آلهة، واعتبار هذه الآلهة شفعاء لا آلهة، والتعبّد لها كوسطاء عند الله الواحد الأحد نتيجة جهاد شاق طويل قامت به الدعوة الكتابية في مكة والحجاز.

وقد حلل الشهرستاني، بناءً على القرآن والحديث، أديان العرب كما يلي: ((والعرب الجاهلية أصناف. فصنف أنكر الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيي والدهر المغني كما

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٥٦ .
(٢) جواد علي: تاريخ العرب ٥ : ٦٥ .

أخبر عنهم التنزيل: « وقالوا: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ؛ وقوله « وما يهلكنا إلاَّ الدهر » (جاثية ٢٣). وصنفٌ اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » (ق ١٤). وصنفٌ عبدوا الأصنام، وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل ... وكان منهم من يميل إلى اليهود ومنهم من يميل إلى النصرانية ومنهم مَن يميل إلى الصابئة[1] ... » .

وقد وصلت هذه الدعوة الكتابية في مكة والمدينة والحجاز إلى التوحيد الحقيقي رغم مظاهر الشِرْك، الغالبة في بيئة بدوية، كما يشهد القرآن بذلك: « وما يؤمن أكثرهم بالله ، إلا وهم مشركون » (يوسف ١٠٦). فجميع أهل مكة إذن يؤمنون « بالله » الواحد الأحد. ولكن أكثرهم يشركون به لا شِرْكاً حقيقياً يمسّ حقيقة الله ولاهوته، بل ويشهدون شِرْكاً ظاهرياً ليس له من الوثنية أدنى معنى إذ يشهدون في القرآن أن تعبّدهم للملائكة أو الشهداء أو الأنبياء - لا إلى الأصنام - إنما هو « زلفى » إلى الله لا مشاركةً له في حقيقته وعبادته: « إنما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى » (زمر ٣)؛ فالمعبود الحقيقي عند من يسميهم القرآن « مشركي العرب » هو الله وحدَه، وإن تكن العبادة بحاجة إلى بعض التطهير من رواسب الوثنية القديمة[2].

وقول القرآن « أكثرهم » (يوسف ١٠٦) يعني أن بين عرب مكة الأقحاح قوم لا يشركون بالله بل هم على التوحيد الخالص الذي يعلّمه القرآن: « ثم إذا مسّكم الضر فإليه تجئرون ثم إذا كشف الضرّ عنكم إذا **فريق منكم** بربهم يشركون » (نحل ٥٣ و٥٤) فيما البقية الناجية على التوحيد الخالص.



(١) كتاب : الملل والنحل .
(٢) قابل أنعام ١٤٨ ونحل ٣٥ حيث يصرحون للنبي إن الله أمرهم بعبادة « شفعائهم » = شركائهم » ؛ واعتبار الشركاء المزعومين شفعاء يدل على أن ما عدّه القرآن شِرْكاً ليس إلا توحيداً مشوباً بحاجة إلى تطهير.

الفصل الرابع

شِرْك العرب في القرآن

- « **واللهِ ربِّنا : ما كنـّا مشركين** » (أنعام ٢٣)
- « **ويستغفرون لمن في الأرض** » (شورى ٥)
- « **نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا و في الآخرة** » (فصلت ٣١)

الشرْك الذي يقاومه القرآن شهادة نهائية على مدى انتشار التوحيد عند العرب؛ وعلى سيطرة الدعوة الكتابية في مكة وفي جوار الكعبة.

الشِرْك العربي والحجازي والمكّي كما نعرفه من القرآن، بعيد جداً عن الوثنية، ليس له منها سوى مظاهرها التي ظل يتكالب على منافع الحج منها سادة مكة.

وأهل مكة وصناديدها لم يقاوموا محمداً لدعوة التوحيد، فهي قائمة بين ظهرانيهم منذ أمد بعيد[1]. بل قاوموا دعوته لمَّا تصدّى « لشركائهم » الذين كانوا يتخذون « زلفى » إلى الله ، وشفعاء لديه تعالى؛ ولتخوّفهم من انقطاع وارد الحج إذا انقلب العرب عن التعبد لأصنام مكة.

---

(١) قال الأخوان شاكر في تفسير الطبري :

شهادة القرآن على « أن العرب في جاهليتها كان عندها من العلم بوحدانية الله ، فإنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم، نظير الذي كان عند أهل الكتابين ، التوراة والإنجيل » . (طبري ١ : ٣٧١ ـ ٣٧٢) .

وقال الطبرسي : « إن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانيته ، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها . فقال جل ثناؤه : « ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولنَّ الله » (زخرف ٨٧) ؛ وقال : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم مَن يملك السمع والأبصار ؟ ومَن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومَن يدبّر الأمر ؟ ـ فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون ! » (يونس ٣١).

وهذا الهلع قد شعر به المسلمون أنفسهم، في آخر حياة محمد، لمَّا نزلت سورة التوبة في ختام الدعوة بإقصاء المشركين عن المسجد الحرام: « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا. وإن خفتم عيلة (فقراً) فسوف يغنيكم الله من فضله » (٢٩)؛ فالخوف من فوات مغانم الحج عند أهل مكة مرض جاهلي وإسلامي؛ كما هو موجود في سائر المذاهب.

فالقرآن إذن شاهد عدل على التوحيد عند مشركي مكة.

كان مشركو مكة يعرفون الله ، ويعرفون إنه هو **الخالق،** لا خالقَ سواه. يسألهم نبي القرآن: « مَن ربُّ السماواتِ والأرض؟ ـ قل الله ! » (رعد ١٦).

يسألهم من جديد متأكداً من جوابهم الواحد: « ولئن سألتهم مَن خلق السماوات والأرض؟ ـ ليقولُنَّ الله ! قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (لقمان ٢٥). فهذا إقرار قريش ومكة الدائم في القرآن بوجود خالق واحد خلق الكون كله.

وعندما يتحدى النبي مَن « دون الله » يُخوّفونه: « ويخوّفونك بالذين من دونه! » (زمر ٣٦) فيسألهم من جديد: « ولئن سألتهم مَن خلق السماوات والأرض؟ ليقولنّ الله » (٣٨) إقرار صريح بالتوحيد الخالص رغم تعبدهم « للذين من دونه » .

ويعرفون صفات الله العزيز الحكيم في خلقه. يعيد نبي القرآن الكرة فيجيبونه « ولئن سألتهم مَن خلَق السماوات والأرض؟ ليقولُنَّ: خلقهنَّ العزيز الحكيم » (زخرف ٩).

يعرفون الله ويعبدونه، ويوحدونه، ويعدّدون صفاته المميّزة. ولا يرون شِرْكاً أو إفكاً أو كفراً في استشفاع الأولياء عنده: « ولئن سألتهم مَن خلقهم؟ ليقولن الله ! فأنّى يؤفكون » (زخرف ٨٦ ـ ٨٧).

*

الله هو الخالق. وهو **مدبّر الكون** في اعتقادهم.

هو الذي خلق الكائنات ويديرها: « ولئن سألتهم مَن خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر؟ ليقولُنّ الله ! فأنى يؤفكون » (عنكبوت ٦١). وقريش كانت تعتقد أن الله هو الذي ينزّل المطر من السماء ويحيي الأرض بعد مواتها: « ولئن سألتهم: مَن نزَّل السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ليقولُنّ الله ! قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » (عنكبوت ٦٣).

لاحظ التعبير القرآني في اتهام أهل مكة بالشِرْك: الأكثرية موحدة ولكن تشرِك في عقيدتها وعبادتها لله . فهناك إذن أقليّة قائمة على التوحيد الخالص كما يدين به القرآن، وقبل القرآن.

الله هو مدبر الكائنات، وهو **المهيمن على الأقدار** والحياة. لذلك إذا مسّ الإنسانَ شرٌّ فهو ذو دعاءٍ عريض إلى الله: ((وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وناء بجانبه. وإذا مسَّه الشرّ فهو ذو دعاءٍ عريض)) (فصلت ٥١). وإذا تجسموا الأخطار اتجهوا إلى الله المخلص وحده: ((فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين. فلمّا أنجاهم إلى البر إذا هم يشركون)) بدعائهم غيره معه (عنكبوت ٦٥) أي أولياءَهم مع الله . وكانوا يتضرعون إلى الله ويستغيثون به في الكوارث والملمَّات. والأيمان المغلّطة عندهم كانت في الله : ((وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم: لا يبعث الله من يموت! ـ بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (نحل ٣٨). ورغم تعبدهم لأوليائهم كانوا على يقين من أنه لا منقذ لهم من الضيق إلا الله : ((وإذا مسّ الإنسانَ ضرٌّ دعا ربّه منيباً إليه)) (زمر ٨). وفي كل ضيق كانوا يُخلصون له الدين: ((وإذا غشيهم موج كالظـُّلـَل دعوا الله مخلصين له الدين)) (لقمان ٣٢). ويعلمون أن المخلوقات كلها من الله وهي في قبضته يديرها كيفما شاء: ((قل لمن الأرضُ ومن عليها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله ! قل: أفلا تذكرون! قل مَن ربُّ السماوات السبع والعرش العظيم؟ سيقولون: الله ! أفلا تتّقون؟ قل مَن بيده ملكوتُ كل شيء وهو يُجير ولا يُجارُ عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقلون: الله. قل فأنّى تسحرون؟)) (مؤمنون ٨٥). فلله عندهم عبادة عملية: ((وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا)) (أنعام ١٣٦).

ويستنتج الدكتور جواد علي: ((فلم يكن أَهل مكة إذن، كما يتبيّن من القرآن الكريم ومن الشعر المنسوب إلى الجاهليين، قوماً وثنيّين على النحو المفهوم من الوثنية؛ وجماعة جاهلة مشركة لا تفهم شيئاً عن وجود خالق وخلـْق، اعتقدت بآلهة عديدة، وبأن الأصنام هي أَرباب حقّاً تنفع وتضر. لا، لم يكن الجاهليون على هذا النحو من الدين. بل كانوا يعتقدون بوجود إله واحد خلق السماوات والأرض. فهم إذن في عقيدتهم بالله موحدون ... **توحيدهم توحيد إسلامي** أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي ... وإن استعمال الجاهليين لاسم الجلالة يشير إلى أنهم كانوا ينظرون إليه نظرة المسلمين. أَي إنه كان اسم عَلـَمٍ خاص بالجلالة، فهو مقابل ((يهوه)) عند العبرانيين[1])) .

---

(١) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

فما هي إذن معبوداتهم التي يشركونها في عبادة الله ؟

يشهد القرآن أن أهل مكة بإكرامهم اللاَّت والعزّى ومناة إنما يتعبدون للملائكة كما نقلت السيرة: « نحن (مشركي مكة) نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزاً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم[1] » . فالآلهة التي تتعبّد لها العرب هي الملائكة: « وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً! ـ أشَهِدوا خَلْقهم ؟ سنكتب شهادتهم ويُسْئَلون » (زخرف ١٩ [2]). يتعبدون لهن على اعتبار أنهن « بنات الله » وأحق بالشفاعة عنده تعالى من سواهنّ. فحمل القرآن عليهم:

فجوابه **الأول**: إن هي إلا أسماء! « أفرأَيتم اللاَّت والعزى، ومناة الثالثة الأخرى ... ألكم الذَّكر وله الأنثى: تلك إذاً قسمة ضيزى ! إن هي إلا **أسماء** سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؛ أن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . وهب أنهن ملائكة فلا تغني شفاعتهنّ شيئاً: « وكم من ملَكٍ في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » (نجم ١٦ ـ ٢٤).

وجوابه الثاني: تهكّم على جعل الملائكة إناثاً، بنات لله: « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسمّون الملائكة تسمية الأنثى! وما لهم به من علم إنْ يتبعون إلا الظن » (نجم ٣٧) « أم اتخذَ (الله) مما يخلق بنات واصطفاكم بالبنين ؟ » انها قسمة ضيزى: « وإذا بُشّر أحدهم بما ضُرِب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم » (زخرف ١٦ و١٧). ويستمر تهكم القرآن طويلاً بعبادة إناث: « أفاصطفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً: إنكم لتقولون قولاً عظيماً » (إسراء ٤٠).

وجوابه **الثالث**: ليس الملائكة إناثاً، وليسوا أَولادَ الله أو بناتِ الله بل « عباد الله المخْلصون » (صافات ١٦٠). وقالوا اتخذ الرحمن **ولداً!** سبحانه، بل عباد مُكرَمون! لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وخلفهم. ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » (أنبياء ٢٦ ـ ٢٨) . ويستعلي عن عبادة الإناث: « فاستفتهم: أَلربك البنات ولهم البنون؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون؟ ألا إنهم

---

(١) ابن هشام ٢ : ٢٨٥ .

(٢) تعبّد العرب للملائكة، وتسميتهم إياهم أبناء الله مأخوذ عن اليهود : فالزَّبور يسمّي الملائكة أبناء الله ، ويدعوهم إلى تمجيد ربهم : « قدّموا للرب يا أبناء الله ، قدّموا للرب مجداً وعزة » (مزمور ٢٨ : ١) ؛ ولكن التحريف العربي في ذلك أنهم جعلوا « أبناء الله » بنات الله ، فتهكّم منهم القرآن .

من إفكهم ليقولون: وَلَدَ الله ! وإنهم لكاذبون! أصطفى البنات على البنين! ما لكم، كيف تحكمون؟ أفلا تتذكرون؟)) (صافات ١٥٠ الخ).

وجوابه **الرابع**: آلهات العرب جِنّة: ((وجعلوا بينه وبين الجِنة نسبا، ولقد علمت الجِنّة أنهم لَمُحْضَرون! سبحان الله عمّا يصفون!)) (صافات ١٥٨). قال السيوطي (في أسباب النزول) إنها نزلت في ثلاثة أحياء من قريش، سُليم وخزاعة وجُهينة: ((قال كبار قريش: الملائكة بنات الله ؛ فقال لهم أبو بكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: بنات سُراة الجن، فنزلت)). ولكن أينـقل القرآن هنا اعتقاد العرب، أم هو في زحمة الجدل يتهجم عليهم وينسبها إلى الجِنّة، كما فعل الكتاب من قبله: ((نحن نعلم أن الوثن ليس بشيء في العالم، وأنّه لا إله إلا الأحد ... فماذا أقول؟ أَإنَّ ذبيحة الوثن شيء أَو إن الوثن شيء؟ لا! بل إن ما تذبحه الأمم إنما تذبحه للشياطين، ولما ليسَ إلهاً: فلا أريد أن تكونوا شركاء الشياطين)) (١ كو ٤٨ و١٠ : ١٩).

*

وما نوع العبادة التي يتعبد بها العرب للملائكة؟ ـ إنها زلفى إلى الله: ((ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)) (زمر ٣)؛ وزلفى للشفاعة عنده: ((أَم اتخذوا من دون الله شفعاء؟)) (زمر ٤٣). فليس تكريم الملائكة في نظرهم عبادةً بالمعنى الصحيح، بل تعبّدٌ للزلفى والشفاعة.

فيتنكّر القرآن للشفاعة بكل أنواعها، لأنها في نظره تربيب وتأليه.

ليس الملائكة **شفعاء** عند الله ، يسبقونه بالقول، بل لله الشفاعة جميعاً: ((له ملك السماوات والأرض، ثم له تُرجعون)) (زمر٤٣ ـ٤٤). وإن كان للملائكة من شفاعة عند الله فهذه الشفاعة مقيّدة بإذنه تعالى: ((من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ... ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)) (أنبياء ٢٨؛ نجم ٢٧).

وليس الملائكة **أَولياء** عند الله ينقاد لهم: ((قل مَن رب السماوات والأرض؟ قل: الله . أَفتـخذتم من دونه أَولياء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً)) (الرعد ١٧).

فالتعبّد للملائكة ـ إن صحّ إنه للملائكة لا للجِنّة ـ كأولياء وشفعاء يجعلهم شركاء الله في قدرته الإلهية: ((أَم جعلوا له شركاء، خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم؟ قل: الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار!)) (رعد ١٨).

فيجيبونه: إن دعاءنا للملائكة باسم اللات والعزى ومناة، لا يجعلنا نشرك بالله: فهم عنده «عبيدٌ مُكْرَمون» وهو أمرنا بالتعبّد لهم: «وقالوا: لو شاءَ الرحمان ما عبدناهم! ـ ما لهم بذلك من علم، إنْ هم إلا يخرصون» (زخرف ٢٠).

وقالوا: تعلمنا ذلك من أهل الكتاب الذين تستشهد بهم: «آتيناهم كتاباً من قبله، فهم به مستمسكون» ؟ (زخرف ٢١). ليس ذلك من الكتاب الأول ولا من كتاب غيره: «أم لكم سلطان مبين؟ فَأتوا بكتابكم[1] إن كنتم صادقين» (صافات ١٥٦) فلا حجة لهم في عبادتهم تلك، من العقل أم النقل، وإنما جنحوا إلى تقليد آبائهم في جهلهم لله.

فقالوا: هذه عادة مقدسة ورثناها عن آبائنا: «بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ[2] وإنا على آثارهم مهتدون» (زخرف ٢٢) ـ «قال: أوَلو جئتكم بأهدى ممَّا وجدتم عليه آباءَكم ؟! ـ قالوا: إنَّا بما أُرسلتم به كافرون» (زخرف ٢٤).

إن تعبّد العرب للملائكة عادة كتابية تتفق والتوحيد الخالص. ولكن العرب في جاهليتهم انحرفوا بها في شكلها ـ لا في جوهرها ـ لمَّا جرّدوا معبوداتهم القديمة (اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) من معاني الوثنية، وجعلوها ملائكة، ثم أعطوا هؤلاء الملائكة أسماء إناث «بنات الله[3]» فاستحقوا بذلك حملة القرآن عليهم وتهجمه وتهكمه.

لقد أخطأُوا شكلاً، ولكنهم في موضوع تكريمهم للملائكة اتبعوا طريقة أهل الكتاب وتعلموا منهم، مع التوحيد، الاستشفاع بهم عند الله زلفى إليه تعالى.

لذلك، كما حمل القرآن على مشركي مكة في مبدإ الشفاعة، حمل على أَهل الكتاب في المدينة لمَّا انفصل عنهم: «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله ! أيأمركم بالكفر بعدَ إذْ أنتم مسلمون؟» (آل عمران ٨٠). فإسلام أهل الكتاب، بحسب القرآن، يتنافى مع استشفاع الملائكة لأن شفاعة العبد في حدّ ذاتها تربيب وتأليه. وهذا شرك وكفر[4].

---

(١) صافات ١٥٧ «كتابكم» أي التوراة (الجلالان) ـ ليس الخطاب لليهود حتى يكون المعنى التوراة فلا جدال في مكة مع أهل الكتاب، إنما تحداهم بكتاب منزل يستندون إليه.
(٢) زخرف ٢٢ «أمّة» فسرها البيضاوي «طريقة» وهذا أفضل من الجلالين «مِلة».
(٣) القرآن في سورة الصافات يقول عن الملائكة مرة «والصافات صفاً» (الجلالان: الملائكة تصف نفوسها) ومرة «وإنا لنحن الصافون» ١٦٥.
(٤) قال الدكتور جواد علي. : «فعقيدتهم (العرب) في التوحيد نوع من عقائد النصرانية في الملائكة والقديسين، الشفعاء بين الله والناس. وهذا ما حاربه ورفعه الإسلام بأن اجتث الوساطة وشجبها وجعل الدين خالصاً لله، وعبادة بينه وبين عبده. وطهر التوحيد من زوائد الشرك». (تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤٢٤).

مع ذلك فنظرية القرآن الذي يحمل على مبدإِ الشفاعة، لا تبتعد عن عقيدة أهل الكتاب كما لقنوها للعرب.

فالقرآن يجعل الملائكة وسطاء النبوّة: فالملائكة هم رسل الله إلى الأنبياء: « الله يصطفى من الملائكة رسلاً » (حج ٧٥). وهم يبلغون الأنبياء ما يجب أن يُنذروا به: « ينزّل الملائكة بالروح من أمره على مَن يشاء من عباده: « أَن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون » (نحل ٢). لذلك يحمد الله على وساطة الملائكة: « الحمد لله ، فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة » (فاطر ١).

والملائكة وسطاء وأعوان المؤمنين في الجهاد: فهم يثبتون المؤمنين في المعارك (أنفال ١٢) ويحاربون معهم (أنفال ٩، وآل عمران ١٢٤). كما يحضرون المؤمنين في موتهم (نحل ٣٤) ولا يُفلت منهم الكافرون (أنفال ٥، نساء ٩٧) ـ أَليست هذه المعونة أكثر من شفاعة.

وهم يستغفرون لأهل الأرض: « يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن في الأرض » (شورى ٥)، يستغفرون خاصة للذين آمنوا (مؤمن ٧) ـ أليس الاستغفار هو الشفاعة ؟

وينتهي القرآن بأن يجعل الملائكة أولياء المؤمنين في الدنيا والآخرة: « إن الذين قالوا: « ربُّنا الله ، ثم استقاموا، تنزَّل عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون: « نحن أَولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة » (فصلت٣٠ ـ٣١): ها هو ذا القرآن يعترف بولاية الملائكة أي بشفاعتهم ومساعدتهم للناس في الدنيا والآخرة.

ويختم القرآن بأن يجعلهم شفعاء بإذن الله: « ويشفعون بإذنه لمن ارتضى » (أنبياء ٢٦، نجم ٢٨). الاستئذان في الشفاعة عند الله من صفات العبد، ولكنه لا ينفي قيام مبد الشفاعة والعمل به.

أليس هذا هو اعتقاد النصارى واليهود الذي لقنوه للعرب فآمنوا به معهم؟ ـ إنه هو هو في جوهره ولو طرأ عليه عندهم بعض الانحرافات التي تُعذر في بيئة بدائية بدوية، وكان لابدَّ من تقويمها. ولكن من هذا التقويم إلى نقص مبدإِ الشفاعة فالبون شاسع. والقرآن الذي يرفض مبدأ الشفاعة مرةً يقبل به عمليّاً مراراً: فالملائكة « يستغفرون لمن في الأرض » (شورى ٥) ويقولون لهم: « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة » (فصلت ٣١).

أخيراً يعيب القرآن على الموحدين من العرب والكتابيين نعبّدهم للملائكة وينتهي بأن يتهمهم بشرْك لذلك. والقرآن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وهو سجود الأعلى للأدنى. وهذا أبلغ من تعبد الكتابيين والمشركين للملائكة؛ وهو سجود الأدنى للأعلى أي إكرامه.

وصوّر الدكتور جواد علي الموقف بين محمد والمشركين العرب في مكة بقوله: « إن القرآن الكريم لم ينكر على أهل مكة تعبّدهم لإله واحد، **بل هو يصرّح بأن قريشاً كانت تتعبد لله.** أما بشأن الأصنام فقد ورد فيه أن قريشاً كانت تدّعي أنها لا تعبدها إلا لتقرّبها إلى الله . فهي لا تعبدها لذاتها: إذن فهي مادة لا نفع يُرتجى منها ولا ضر. إنما تدّعي أنها تتقرّب إليها لأنها تقرّبها إلى الله رب العالمين: فهي رمز له، وهي واسطة وسبب. ثم إننا نجد إنها لم تتحرّش بالرسول **ولم تقاومْه حينما بشّر بإله واحد،** وحينما كان يدخل الكعبة ويصلّي فيها ويرفع رأسه إلى السماء. إنما قاومتْه حينما تجاوز ذلك فأخذ يدعو إلى التوحيد الخالص، وإلى نبذ الأصنام والأوثان لأنها شِرك لا تتّفق مع القول بوجود إله واحد. وحينما أخذ يسخر من أوثانهم ويسفّه أحلامهم ويدعوهم إلى العمل بأشياء لم يعرفها آباؤهم الأولون، عندئذٍ هاجوا وثاروا. وقد هاجهم من الدعوة خاصة ما مسّ عُرفهم وما ورثوه من عادات سار عليها آباؤهم وآباءُ آبائهم. وللعادات عند العرب أهمية كبيرة، بل هي في نظرهم أساس الدين[1] » .

فشِرْك العرب في القرآن أقرب إلى التوحيد منه إلى الوثنية.

*

ويظهر من القرآن أن العرب كانت تعبّر عن التوحيد « بالإسلام » قبل القرآن، وتمثّلاً بأهل الكتاب العرب. وذلك بنصّ القرآن القاطع: دعا محمد أهل الكتاب إلى الإسلام والقرآن فأجابوه: « الذين آتيناهم الكتاب من قبله (القرآن) هم به يؤمنون: وإذا يُتلى عليهم قالوا: آمنا به، إنه الحق من ربنا! **إنا كنّا من قبله مسلمين!** أولئك يؤتون أجرهم مرتين » (قصص٥٢).

والعقيدة الراسخة في القرآن هي أن أنبياء الكتاب ما نادوا بالتوحيد فقط ، بل كانوا أيضاً مسلمين: فإبراهيم وابنه إسماعيل مسلمان (بقرة ١٢٨) وذرية إبراهيم من إسماعيل مسلمة (بقرة ١٢٨) مثل الأسباط أولاد يعقوب من إسحاق (بقرة ١٣٣). (والنبيّون

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤١٧ .

الذين أسلموا » يحكمون بالتوراة للذين هادوا (مائدة ٤٧). والربانيون في زمن محمد، الذين يندّد بغلوّهم في إكرام الملائكة والأنبياء، هم مسلمون « بعدَ إذْ أنتم مسلمون » (آل عمران ٨٠). والمسيح نفسه، ورسله الحواريون مسلمون: « نحن أنصار الله، آمنَّا بالله وأشهد بأنَّا مسلمون » (مائدة ١١٥ - ١١٧). وإيمان أهل الكتاب بالإسلام « ليس ممَّا أحدثوه حينئذٍ وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة **وكونهم على دين الإسلام** قبل نزول القرآن » (البيضاوي: قصص ٥٢). وقال الجلالان: « قدم على النبي أسقف نجران والعاقب فعرض عليهما الإسلام. فقالا له: إنَّا كنَّا مسلمين قبلك! » . وقال الجلالان أيضاً: «لما نزلت الآية: ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، قالت اليهود: فنحن مسلمون! » .

ويشهد القرآن أيضاً بأن هذا الإسلام في التوحيد انحدر من إبراهيم إلى إسماعيل إلى ذريتهما « ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك » (بقرة ١٢٨). ونقل القرآن أيضاً كتاب سليمان إلى ملكة سبأ في حديث الإسلام: « قالت يا أيها الملأ: إني أُلقي إليَّ كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه: بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين » (نمل ٢٩)؛ وإسلام التوحيد الكتابي يتنقل بين العرب جيلاً بعد جيل، فقد ورد في السيرة النبوية لابن هشام أن عبد الله بن التَّامر كان يتردد على رجل مقيم في خيمة بالقرب من نجران حتى أسلم، فوحّد الله وجعل يسأله **عن شرائع الإسلام** حتى إذا فقّهه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم.

والشعر الجاهلي - إن صحّ - يؤيد ذلك. قال تبّع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشَدُ

وسورة الكهف تؤيد معنى هذا الشعر فترينا ذا القرنين « ملكاً مسلماً » قبل الإسلام وبعيداً عن مواطن الوحي والتنزيل في صميم الجاهلية الأممية الوثنية. وتناقل العرب مع أهل الكتاب قصص إسلام الاسكندر حتى بلغ القرآن.

ومظاهر التوحيد الإسلامي عند العرب قبل القرآن عديدة :

منها أسماء الأعلام المركّبة: فوالد النبي اسمه « عبد الله » ، وهذا يعني أن التوحيد دخل بيت محمد قبل ميلاد محمد.

وأسماء الآلهة عند العرب قبيل الإسلام تعني أنهم كانوا على شكل من التوحيد في

تطور[1]، وأسماء الآلهة تعني التوحيد لا الوثنية[2] بدليل قبولها في القرآن، مثل ((الرحمان)) عند عرب الجنوب و ((الرحيم)) عند عرب الشمال، و ((رب العالمين)) و ((الله أكبر)) عند عرب الحجاز. فهذا القبول لها في القرآن يدل على أنها كانت عند العرب أسماء توحيدية.

وعقيدة المشركين في شركائهم كما نقلها القرآن ذاته توحي بأن أصحابها موحدون لا وثنيون، موحدون مسلمون لا مشركون بالمعنى الحقيقي؛ فما يسميه القرآن ((شركاؤهم)) هم أولياء الله وشفعاء لديه لا شركاء بالمعنى الحصري (أنعام ١٤٨، نحل ٣٥). وعبادتهم ((زلفى إلى الله)) تقرّبهم منه تعالى وتشفع فيهم لديه، فيستغفرون الله لهم (شورى ٥)، ويكونون أولياءَهم في الحياة الدنيا والآخرة (فصلت ٣١). لذلك يُقسم المشركون يوم الدين إنهم لم يكونوا مشركين: ((ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ - ثم لم تكن فتنتُهم، إلا أن قالوا: واللهِ ربِّنا، ما كنّا مشركين)) (أنعام ٢٢).

*

وهكذا يشهد القرآن الكريم أن وثنية أهل مكة لم تكن بالوثنية المعروفة، إنما هي ((شِرْك)) : فهو يقاوم عندهم ((الشِرْك)) بالله الذي يعرفونه ويعبدونه: إنها وثنية شكلية. فلم يحفظ أهل الحجاز من الوثنية القديمة سوى مظاهرها من تكريم الكعبة، والحجر الأسود، والحج إليهما. وإبقاء الإسلام على هذه المراسيم يعني تجرّدها من معنى الوثنية.

وقد ارتقى أهل مكة والحجاز، تحت ضغط الدعوة الكتابية، إلى إفراغ آلهتهم القديمة من معانيها، وإلباسِها تحت أسمائها معاني جديدة توحيدية، من التعبّد للملائكة زلفى إلى الله وشفاعة. فأتهمهم القرآن بالشِرْك. ولكنه شِرْك ظاهري أيضاً لا يمت إلى صلة لاهوتية ذاتية مع الله في شيء: يستشهدهم القرآن مراراً من خلق السماوات والأرض، فيشهدون: الله . ويحمل القرآن عليهم لإشراكهم في عبادة الله من خلقه، فيجيبونه: إنها ((زلفى)) لا ((شرْك)) .

وفي هذه الحملة المجلجلة عليهم، يشهد القرآن أنَّ بين المشركين أنفسِهم قلةً على التوحيد الخالص: ((وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)) (يوسف ١١١). إذا عبد الله أكثرهم مشركين به، فإن بعضهم مسلمون.

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٦٥ .
(٢) المصدر نفسه .

فشهادة القرآن أن الدعوة الكتابية في مكة والحجاز كما في الجزيرة كلها قد أثمرت فنقلت العرب من الوثنية إلى الشِرْك، فإلى التوحيد.

ونختم بهذه الشهادة للدكتور جواد علي: « إن عقيدة الجاهليين هذه في الله ، وحجّهم إلى البيت، وقسَمهم به نتيجة تطور طويل مرَّ على الحياة الدينية لعرب الجاهلية اختُتِم بظهور الإسلام ودخول أكثرهم فيه ... فقد كان أهل مكة على مقالة من التوحيد والدين، وعلى تيقّظ وشك في أمر الشفعاء والشركاء والأصنام حمل الكثيرين منهم على الشك في ديانة قومهم وعلى الدعوة إلى الاصلاح[١] » .

واستنتج أيضاً: « **فعبادة أهل مكة هي عبادة محمد، وتوحيدهم توحيد إسلامي،** أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي[٢] » .

فلم تكن الدعوة القرآنية دعوة التوحيد البكر في مكة والحجاز بل جاءِت في أعقاب دعوات توحيدية غيرها، جنت هي ثمارَها.



(١) الدكتور جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ٤٢٤ .

الفصل الخامِس

الشعر الجاهلي أقرب إلى التوحيد منه إلى الشِرك

((**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:**
ألا كل شيء ما خلا الله باطل))
(حديث شريف)

الشعر ديوان العرب. وهو صورة صادقة عن ميولهم. فما كانت صبغة الشعر الجاهلي الدينية؟

من نتائج انحلال الوثنية في الحجاز، قبل الدعوة القرآنية، سلامة الشعر الجاهلي من الصبغة الوثنية، بتأثير الدعوة الكتابية.

الشعر بالفطرة فن مستقل: لا يعني بالدين إلا من بعيد؛ ولا يتطرَّق إليه إلا إذا كان مقصوداً بذاته. وقد يكون الشاعر ديّناً ولا يظهر ذلك في آثاره. إذا كان هذا الوصف صادقاً في كل شاعر؛ فهو أكثر صدقاً في الشعر الجاهلي.

ولكن الشعر مرآة النفس، تنعكس عليها مشاعرها من غير قصد. ونوع الثقافة الدينية يبرز من خلال التعابير. لذلك لهذه الومضات قيمة تاريخية كبرى: تعرف من صوفية الشاعر، البادية أو المستترة، ميوله الدينية. هكذا ترى الوثنية بادية على الشعر اليوناني والروماني. وترى الشعر العربي الجاهلي سالماً من كل صبغة وثنية: ((**يُهملُ ذكرُ الأصنام فيه**[1])) .

*

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤١٥ .

أجل من المعروف عن البدوي حتى اليوم أنه غير ميالٍ من طبعه إلى الشؤون الدينية؛ وأنه قليل الاكتراث بالدين. وهو لإن أتى عملاً دينيًّاً قام به عن تقليد وبقوة الاستمرار. ونرى في حياة النبي العربي، في آخر سورة من القرآن آية تدل على مبلغ المرارة التي شعر بها محمد تجاه هذا الموقف الجامد: « وممن حولهم من الأعراب منافقون (توبة ١٠٢)، والأعراب أشد كفراً ونفاقاً! وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » (توبة ٩٨).

« ليس في مجمل الشعر الجاهلي ما يدل على شعور ديني عميق أو عاطفة روحية شديدة[١] » . لذلك فالظاهرة العامة في الشعر الجاهلي هي قلة شعوره بالعاطفة الدينية.

ولكن حيث تبدو هذه العاطفة فهي بعيدة جدًّاً عن الوثنية والشرك بل ترى النزعة التوحيدية غالبة عليه: « وقد ورد اسم الجلالة في أشعار أكثر الشعراء الجاهليين، إن لم نقل جميعهم[٢] » وكان الشعراء نخبة العرب المثقفة[٣].

وهذا يدل على أن الشعراء صحافيي تلك الأيام، وقادة الرأي في تلك البيئة البدائية. كانوا وإن لم يعتنقوا جميعهم التوحيد الكتابي، موحدين على طريقتهم وطريقة الكثيرين من مفكري مكة والحجاز.

*

نبغ كثير من شعراء اليهود. « وفي (طبقات الشعراء) تأليف محمد بن سلام الجمْحي (المتوفى ٨٤٥ م) باب خاص باليهود من شعراء المدينة وأرباضها. وجاء في (الأغاني) عرض لعدد من شعراء بلاد العرب اليهود. ولكن لم يخلّف أحد منهم ديواناً إلا السموأَل ابن عادياء، صاحب الأبلق الفرد قرب تيماء[٤] » وشعره شعر توحيدي.

ونبغ كثير من شعراء النصرانية وقد حفظ لنا الدهر شيئاً من ديوانهم وشعرهم. ونذكر من شعراء الجاهلية **عديّ** بن زيد (نحو ٦٠٤ م) الذي عاش في الحيرة وساهم بحظ وافر في بلاد اللخميين[٥]. **وقسّ** ابن ساعدة (نحو ٦٠٠ م) الذي سُمّي خطأً أسقف نجران

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ١ : ١٣٣ .
(٢) جواد علي :تاريخ العرب ٥ : ٤١٩ .
(٣) « Les Poètes étaient l'étaient l'élite intellectuelle des Béduins » (Tor Andrae)
(٤) حتي ١ : ١٥١ .
(٥) عدي شاعر مسيحي من الحيرة يذكر الإنجيل الذي نقرأه صراحة ، ويسميه كتاب الله الذي يقسم عليه (شعراء النصرانية ١٨٥ و٤٧٢).

وهو مشهور بفصاحته وحِكَمِه. **وعنترة** بن شداد (٥٢٥ ـ٦١٥م) الذي أصبح اسمه في الأدب العربي مرادفاً للشعر والفروسية. هؤلاء وأمثالهم من شعراء الجاهلية كانوا نصارى[١])).

وقد أَلف الأب لويس شيخو كتاباً في ((شعراء النصرانية)) عند العرب وجد فيه أن الكثيرين من شعراء الجاهلية كانوا نصارى. ونحن لا نذهب مذهبه وندّعي أنهم كانوا جميعهم نصارى؛ ولكن لا بد من الاعتراف بأن أكثر شعراء الجاهلية كانوا موحدين. وعلى رأسهم أصحاب المعلقات، ((التي يعتبرها الأدباء أَبدع ما أخرجت صناعة الشعر[٢])) .

والشبهة القائمة أن أصحاب المعلـّقات، ولو كانوا في عقيدتهم التوحيدية كمسيحيين، فقد ظلوا بأخلاقهم أقرب إلى الجاهلية منها إلى النصرانية.

ولكن هذا التناقض بين العقيدة والحياة يُفهم في بيئة بدائية بدوية، بعيدة عن مراكز النصرانية وإشعاعها. لم تتأصل بعد في الحجاز روح النصرانية وصوفيتها حتى تتغلب على تلك الروح البدائية البدوية. ومع ذلك فقد كسبت الرأي العام ونرى أثر ذلك في القرآن والشعر الجاهلي .

ولا بدَّ من التنويه بالرأي الذي تزعَّمه عميد الأدب العربي في القرين العشرين ، الدكتور طه حسين في كتابه (الأدب الجاهلي): ((لقد أَظهر البحث العلمي الحديث إن هذه القصائد (المعلقات) قد مرّت بتطورات نُقّحت وهذّبتْ وعدّلت فيها بحيث أصبحت تتفق مع روح الإسلام[٣])) .

وقد سبقه إلى ذلك المستشرق الكبير (نلدكه) فزعم أن رواة الشعر في الإسلام حذفوا من شعر الجاهليين ما لا يتفق مع عقيدتهم، وما وردت فيه أسماء الأصنام. فهم الذين حذفوا من الشعر أسماء الأصنام وأحلوا محلها اسم الله .

ولكن يرى (ولهوزن) المستشرق الأكبر أن عدم ورود أسماء الأصنام في الشعر الجاهلي ـ إلا في النادر (حالة القسم أو الإشارة إلى صنم أَو موضع عبادة) ـ ليس بسبب تغيير الرواة الإسلاميين وتبديلهم لأسماء الأصنام. وإنما سببه أدب الجاهليين وعادتهم في

(١) حتى ١ : ١٥١ .
(٢) حتي : تاريخ العرب ١ : ١٢٥ .
(٣) قابل حتي ص ١٢٨ .

عدم الإسراف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة، تأدّباً ـ على حسب عادة اليهود في التهيّب من ذكر يهوه ـ فاستعاضوا عن الصنم الخاص بلفظة « الله » العامة[1].

ولكن لنا على هذه الانتقادات والشبهات الأجنبية والعربية شهادة القرآن نفسه، وهو الشاهد العدل على بيئته. فالقرآن يشهد كما رأينا أن أهل مكة والحجاز يعرفون « الله » باسمه القرآني: الله ، الرحمان، الرحيم، في الحجاز واليمن والشمال. ويعترفون بأنه هو الخالق، وأنه هو الرازق، وأنه هو العالم بكل الخفايا. لذلك يتوجهون إلى « الله » باسمه الإسلامي الذي أخذه القرآن عن بيئته، يستغيثون به ويقسمون به ويتجنبون الإثم بسببه. وما يقوله القرآن عن مشركي مكة وعقيدتهم التوحيدية لا سبيل إلى إنكاره أو الشك فيه.

من جهة أخرى لا بد أنه كان لزعماء الشعر الجاهلي ـ وكانوا في الأكثر نصارى ـ نفوذ أدبي ديني في أسلوب شعرهم على غيرهم من الشعراء.

فهذا امرؤ القيس، سليلُ البيت الحاكم في نجد، وزعيم الشعر الجاهلي على رأي الأكثرين كان على الأرجح نصرانياً. وكانت معلقته مضرب المثل « أشهر من قفا نبكِ » وصارت مثالاً لسائر المعلّقات. فلا أثر صريحاً للوثنية أو الشرْك في شعر امرئ القيس؛ بل ينضح بالإيمان بالله واليوم الآخر: مما يشهد بتوحيده إن لم يكن بنصرانيته. كانت بيئته نصرانية فقد انتشرت النصرانية في كندة؛ وأُمّه أخت المهلهل كانت نصرانية. وأحداث حياته تؤيد ما نذهب إليه: بعد مقتل والده استنصر بقيصر لا بكسرى، كما كان يفعل ذوو الميول المسيحية من عظماء العرب؛ وإذ تعذّرتْ نجدتُه في نجد أَمّرَهُ قيصر على عرب النصارى في فلسطين[2]. وشعره الباقي شعر توحيدي، فهو يؤمن بالله والحساب، ويعرف أنَّ الإثم يقترف تجاه الله الذي يعاقب عليه:

فاليوم أشرب غير مستحقبٍ	إثما من الله ولا واغل

ويعلم أن الخير والشر من الله لا من سواه:

ألا قبّح الله البراجم كلَّها	وجدَّع يربوعاً وعفَّر دارها

---

(١) قابل الدكتور جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤١٨ ـ ٤١٩ .
(٢) فؤاد أفرام البستاني : الروائع : امرئ القيس ص. ل.

ويذكر الرهبان ونسكهم وصلاتهم[1]. ويشبه مثل غيره الطلل المهجور بخط الزَّبور على لوح من اليمن، أو كالزَّبور في مصاحف الرهبان[2].

وقبيلة تغلب الشهيرة كانت نصرانية في كل ديارها، وظلت على نصرانيتها إلى القرن الثالث والرابع الهجري. وكان شعراء تغلب من النصارى الذين لهم زعامة متبوعة في الشعر الجاهلي مثل **عمرو بن كلثوم.**

والنابغة الذبياني، نبغ موحداً في بلاط الملوك المسيحيين في بصرى والحيرة : عمرو بن الحارث الغساني، والنعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس ـ والنابغة يذكر الله كموحد مسلم:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبُهُهُ	ولا أحاشي من الأقوام من أحدِ
إلاّ سليمان إذ قال الإلـه لـه :	قم في البريّة فأحددها عن الفنَد

وهو يتكلَّم عن الغساسنة وإنجيلهم (الذي يسميه مجلة كما تسمّي العربُ مجلة لقمان) ودينهم كأنه واحد منهم:

مجلتُهم ذاتُ الإلـه، ودينـهم	قويم فما يرجـون غير العواقبِ
ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده	ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازب

والنابغة يذكر أيضاً حفلات عيد الفصح والشعانين، واشتراك ملوك غسان فيها[3] ويذكر من أساطير سليمان بناء تدمر له « بالصفاح والعمد » بواسطة الجن، قبل ذكر القرآن لها. ويذكر أخبار الأولين، ويعطي نوحاً مثالاً للأمانة.

والشاعر الحكيم **زهير بن أبي سلمى،** حكيم موحد في شعره، وشعره في معلقته توحيدي محض:

فلا تكتمنَّ الله ما فـي نفوسكم	ليخفى، ومهما يُكتم الله يعلَم
يؤخّر فيوضع في كتاب فيُدَّخر	ليوم الحساب أو يعجّل فيُنتقَم

---

(١) شيخو : شعراء النصرانية ٣٩٢ و٤٥٣ .
(٢) المرجع نفسه ٢٢٤ .
(٣) شعراء النصرانية ٢١٦ ـ لاحظ من شعر النابغة أن التعبير « الدين القيّم أو القويم » سابق للقرآن ولاحظ في قوله: « مجلتهم ذاتُ الإله » روايته لإيمان النصارى عن ألوهية المسيح في الإنجيل ...

هل أصرح من هذا التعبير الرائع عن الإيمان بالله واليوم الآخر قبل القرآن وبعده ؟! والله في شعر زهير يعتني بمخلوقاته ويجزي المحسن على جميل إحسانه:

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وهو الذي يعصم من السيئات والعثرات مَن يتقونه:

ومن ضريبته التقوى ، ويعصمه ... من سيّئ العثراتِ الله والرحم[1]

وعلى لسان **عبيد بن الأبرص** نجد هذا الشعر الكتابي الإسلامي في التوحيد الخالص:

مَن يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيبُ
بالله يُدرَكُ كل خيرٍ ، ... والقول في بعضه تلغيبُ
والله ليس له شرك ... علاّمُ ما أخفتِ القلوبُ

وعروة بن الورد يتكلم كمسلم عن عناية الله بالإنسان:

فالأرض هي بلاد الله :

فسرْ في بلاد الله والتمس الغنى ... تعشْ ذا يسار أو تموتَ فتعذرا[3]

وهو رب العدالة:

فهداهم بالأسودين وأمرُ ... الله بَلْغٌ يشقى به الأشقياء[4]

والأعشى يذكر قصص الأولين مثل نوح وبنائه للفلك[5] ويذكر صلاة الصبح والمساء عند العباد، وخمرة التقديس كمطلّع على حياة المسيحيين[6].

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل
وكل امرئٍ يوماً سيعلم سعيه ... إذا كُشفت عند الإله المحاصل

لا يقول هذا الشعر إلاَّ موحد مسلم أَو مسيحي.

---

(١) شرح ديوان زهير ١٠٩ و١٣٢.
(٢) شيخو : شعراء النصرانية ٤ : ٦٠٧ .
(٣) ديوان عروة ٥١ .
(٤) تاج العروس ٤/٦ كلمة بلغ . وكذلك اللسان ٢٠٣/١٠ .
(٥) شيخو : شعراء النصرانية ٣٨٩ و٢١٠ قابل اللسان ٣٠١/٣ .

فالشعر الجاهلي يخلو من ذكر الأصنام، ولا أثر فيه للشرك والوثنية. **بل صبغته الدينية العامة التوحيد، والتوحيد الكتابي.** وأكثر شعراء الجاهلية **كانوا ميالين إلى النصرانية، ان لم يكونوا مسيحيين.** فالأعشى يقسم بثياب الرهبان وبناة الكعبة على السواء[1]. والمرّيس الأكبر يذكر جعجعة باب الدير عندما يفتح صباحا للصلاة[2]. وعنترة يذكر طواف الزرافات حول بيت عبلة مثل طواف النصارى حول بيت الهيكل، والأعشى والنابغة وعدي، أعياد النصارى وأوقات صلاتهم[3] ويذكرون مثل امرئ القيس الرهبان ونسكهم وصلاتهم[4] ويذكرون الصليب على البتل[5]. وينقلون أساطير الأولين كذكر عاد وثمود ونوح كما سيفعل القرآن. قال لبيد بن ربيعة:

((أخبّر أخبار القرون التي مضت   أدبُّ كأني كلما قمتُ واقع))

لا بل شعراء الجاهلية قد طهّروا في شعرهم الكعبة ورب البيت من كل روح شِرْكٍ قبل أَن يطهرهما محمد يوم فتح مكة. فكعبة مكة عندهم هي بيت الله لا بيت هُبَل: ربحت فكرة التوحيد الكتابي الكعبة وإلهها. ورب البيت في مكة قبل الإسلام هو الله لا هبل، فقد صار التعبير الوثني ((رب البيت)) توحيديَّاً. وصار النصارى يشتركون في حفلات الكعبة كأنها من مقدساتهم، ووضعوا في الكعبة صور مريم والمسيح وصار عدي بن زيد يقسم برب الكعبة والمصلوب معاً[6].

وهكذا فالقرآن الكريم والشعر الجاهلي يشهدان ((أَنَّ الجاهليين كانوا يعتقدون بوجود إله واحد أَعلى، خلق هذا الكون. ولذلك توجهوا إليه وأَقسموا به وسموه ((الله[7])) .

فالشعر الجاهلي إذن أقرب إلى التوحيد منه إلى الشرْك. ومهما كان شعر أمة متحفظاً فلا بد أن تظهر من بواطنه عقيدتها: والشعر الجاهلي ((يُهملُ فيه ذكر الأصنام)) : فليس مشركو العرب بوثنيين عبدة أصنام!

---

(١) شيخو : شعراء النصرانية : ٤٥١ .
(٢) المرجع نفسه : ٢٠٧ .
(٣) المرجع نفسه : ٢١٦ ـ قابل في كتاب الحيوان (٤ : ٦٦) للجاحظ قصيدة عدي بن زيد عن الخطيئة في تعابيرها المسيحية . وعدي شاعر في بلاط الحيرة يحمل آثار ثقافة سورية نصرانية .
(٤) المرجع نفسه : ٣٩٢ و٤٥٣ .
(٥) المرجع نفسه : ٢٠٥.
(٦) النصرانية بين عرب الجاهلية ١٩٤ شعراء النصرانية ٤٥١.
(٧) جواد علي: تاريخ العرب ٥ : ٤٢١ .

كان الشعراء في الجاهلية العربية ممثلو الرأي العام وقادته. وقصائدهم عنوانُ حضارتهم وثقافتهم ودينهم، والأثر الوحيد الذي بقي لنا منهم. والشعر الجاهلي توحيدي بقدر ما تـُطيقُهُ وتوحيه بيئتـُه البدائية البدوية.

وذكر ((الله)) فيه ليس كنايةً مستورة عن الآلهة القـَبَلِيّين، ولا استعارة لعقيدة غامضة للألوهية وتوحيدها. ((فالله)) هو فيه اسم التوحيد الكتابي والقرآني وقد أخذه محمد عن بيئتِه الموحَّدة وفرضـَهُ.

يشهد بذلك القرآن الكريم نفسه وهو خيرُ شاهد ـ في استجوابات المشركين المتواترة: ((وإذا سألتهم مَن خلقهم ليقولـُنَّ: الله)) .

ولنا على ذلك أيضاً الحديث الشريف: أصدق كلمة قالها شاعر، كلمةُ لبيد:

((ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطل))



الفصل السّادس

الدعوات التوحيدية المستقلة عند العرب قبل الإسلام

- « ثم إذا كشف الضر عنكم ، إذا فريق منكم بربهم يشركون »
(نحل ٥٤)
- « و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون »
(يوسف ١٠٦)
إذن في ما بين العرب وما عدا الكتابيين فريق لا يشرك بالله .

لقد كانت البيئة الحجازية قبل الإسلام بيئة بدائية بدوية، ورغم ما يُظهرُ لنا الشعر الجاهلي من تطور ورقي في بعض نواحيها. والبدوي مادّي بالفطرة أكثر ممّا هو ديّنٌ، يتّجه تصويرُه وتفكيره إلى محسوسات حياته أكثر ممَّا إلى المدركات العقلية. لذلك كانت الدعوة الدينية بينهم شاقة طويلة الأمد؛ وقد أصاب القرآن بتسمية تلك البيئة « بالجاهلية » . ولكن هذه التسمية، والصورة التي تثيرها، لا تحجبان الحقيقة التاريخية :

« إن الرأي المعروف بين الناس حتى الطبقة المتعلمة منهم أن العرب الجاهليين كانوا على جانب عظيم من الانحطاط الديني قبل الإسلام. وأن تفكيرهم في ذلك منحط لا يتجاوز تفكير القبائل البدوية. وهو رأي خاطئ تعرّضتُ له سابقاً والقرآن الكريم يفنّده. وإذا كان ما يقولونه صحيحاً بالقياس إلى بعض القبائل، فإنه لا يصح أن يكون حُكما على الكل، ولاسيما على المتحضّرين منهم وعلى مَن كان لهم اتصال بالعالم الخارجي[1] » .

لقد رأينا من القرآن الكريم تأثير الدعوة الكتابية في الجزيرة، ونجاحها نجاحاً باهراً

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٢٩ .

في الشمال والجنوب حيث اجتذبت إليها الكثيرين من العرب، وتأسست فيهما جاليات يهودية قوية وأسقفيات مسيحية عامرة تتنافس على السيطرة الدينية على العرب؛ ونجاحَها نجاحاً نسبيًّاً، سلبيّاً أكثر منه إيجابيّاً، في الحجاز ومكة، حيث زالت روح الوثنية، وعمّت روح التوحيد، وشاعت عاداته « الكتابية » في الحياة الدينية والاجتماعية والأدبية.

وكان ذلك نتيجة تطور شاق طويل تحملت مشاقّه الدعوة الكتابية. فمن الوثنية الحقة التي حفظ لنا الأخباريون[1] أسماء أصنامها ومعابدها إلى الوثنية الشكلية التي يسمّيها القرآن «شِرْكاً » إلى التوحيد الفعلي عند الذين اندمجوا منهم في الدعوة الموسوية أو الدعوة المسيحية، أو الدعوة التوحيدية المستقلة التي أخذت بها جماعات عربية، مستقلة عن أهل الكتاب، في اليمن والشمال والحجاز.

فهذا كله ساعد على ظهور الإسلام وانتشاره في مكة والمدينة والحجاز: « إن عقيدة الجاهليين في الله ، وحجهم إلى البيت، وقَسَمهم به نتيجة تطور طويل مَرَّ على الحياة الدينية لعرب الجاهلية، اختُتِم بظهور الإسلام وبدخول أكثرهما فيه[2] » .

نجد في اليمن عبادتين توحيديتين انتشرتا فيه نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولهما العربية الجنوبية.

أولاً: عبادة « ذي سموى » أي « رب السماوات »

بدأت الدعوة الكتابية في اليمن إلى رفع عقول الناس من عبادة الكواكب، والقمر والشمس، إلى عبادة ربّ السماء كلها. فشاع اسم لرب الأرباب بينهم، اسم « ذي سموى » : رب السماء أو السماوات، دليلاً على التفخيم. وهذا الإله « لم يكن إله جماعة معينة أو إله قبيلة مخصوصة. إنه إله ولدته عقيدة جديدة ظهرت في اليمن بعد الميلاد، على ما يُظن، تدعو إلى عبادة إله واحد هو « رب السماء » ... ويرى بعض المستشرقين أن هذه العقيدة هي نتيجة اتصال أهل اليمن باليهودية والنصرانية على أثر دخولهما العربية الجنوبية فظهرت **طبقة** تدعو إلى عبادة إله واحد هو « رب السماء[3] » .

---

(١) مثل ابن الكلبي في « كتاب الأصنام » .

(٢) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٤٢٨ .

(٣) المرجع نفسه ١٤٤، وقابل المراجع التي يذكرها : Reste : Noldeke, 4919, CIH 537 Rykimans Handbuch 15104.- Le Museon 1954 tome LXVII p. 103 et 118 -520

وتسمية « يهوه » إله التوحيد عند العبرانيين في الكتاب والزَّبور والنبيين « بإله السماء» ، أو « إله السماوات » ـ والجمع، كما قلنا، دليل التفخيم ـ شاعت منذ الجلاء البابلي، في جميع مهاجر بني إسرائيل حتى وصلت إلى اليمن.

وقد أطلق اليهود هذه التسمية بدلاً من « يهوه » تستيراً لدلالته القومية، وإيلافاً للأمم التي كانت تعبد النار مثل فارس والكواكب مثل اليمن، ودليلاً على سيادة الله المطلقة على المخلوقات، أو معبودات الأمم.

وسفر عزرا، من الكتاب المقدس، يحمل آثار هذا التطور. فكورش يفتخر بأن « جميع ممالك الأرض قد أعطانيها الله إله السماوات، وأوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي بيهوذا » (١ : ٢). ولما مانعهم عمال ملك الملوك أجابوهم « نحن عبيد إله السماوات نبني البيت بحسب أمر كورش (٥ : ١١ و١٢) . وساعد كورش بمال الدولة في البناء وتقديم المحرقات « لإله السماوات » (٦ : ٩). وأصدر أرتحششتا الأمر بتكميل البناء: « عزرا الكاهن الكاتب، كاتب كلمات وصايا الله ورسومه لإسرائيل ... من أرتحششتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة اله السماء الكامل » (٧ : ١٢ و٢١ و٢٢).

وشاع هذا اللقب الإلهي بين اليهود في جميع مهاجرهم، وعنه أخذه الأمم الذين كانوا بين ظهرانيهم كما يشهد التاريخ المقدس (٢ أيام ٣٦ : ٢٣) والقصص النبوي (يونان ١ : ٩)، والزّبور (١٣٦ : ٢٦).

وعزرا هذا هو الذي كان يهود العرب يسمونه « عُزير » ويقدسونه في غلو حتى أتهمهم القرآن بتأليهه (توبة ٣٠)[1] .

وشاعت عبادة « إله السموات » التوحيدية في اليمن كما تشهد بذلك آثار اليمن. وقد فضل موحدو أهل الكتاب هذه التسمية في محيط تغلب عليه عبادة الكواكب، تأليفاً لهم واستعلاءً على معبوداتهم، ودعوة للتوحيد.

*

ثانياً: عبادة « الرحمان »

وتطورت الدعوة التوحيدية في اليمن، وشاع فيها اسم إله التوحيد المأخوذ عن الكتاب « الرحمن » أي « ذو الرحمة » ـ والنون أداة تعريف في لغة الجنوب، مثل « آل »

---

(١) وقد نقل العرب هذا التأليه (عن اليهود في كتاب عزرا الرابع المنحول) ـ قابل : Blachére : Coran II 1083, note 30.

التعريف عند عرب الحجاز ـ « تألق اسمه في العربية الجنوبية بعد ظهور عقائد التوحيد فيها[1] » .

ويُرجع بعض المستشرقين أصله إلى دخول اليهودية إلى اليمن وانتشارها هناك ... وقد نُشر نص بالمسند وردت فيه جملة « الرحمن، الذي في السماء، رب يهود » وهو يشير إلى تأثر صاحبه بعبادة الرحمان؛ وباليهود كذلك[1]. ويدل هذا النص على أن عبادة « إله السماء» وعبادة « الرحمان » عبادة واحدة توحيدية.

وعبادة « الرحمان[2] » توحيدية بتأثير أهل الكتاب، من يهود ونصارى. تدرجت إليه منذ توراة موسى: ظهر الله لموسى في سيناء « ومرَّ الله قدامه ونادى: الله! الله! هو الإله الرحمان الرحيم، طويل الأناة كثير المراحم والوفاء » (خروج ٣٤ : ٦). وانتشر التعبّد لله تحت اسم « الرحمان » ، خاصة بعد جلاء بابل، إعلاءً لرحمة الله في خلاص بني إسرائيل من مهاجرهم، وتأليفاً للأمم، أكثر من اسم « يهوه » الذي حمّلوه مع الأيام صفة قومية.

وعند النصارى صار اسم الرحمان مرادفاً لاسم « الله، الآب الذي في السماوات » اللقب الإنجيلي. وتشهد كتابة يمنية كُتبتْ « باسم الرحمان ومسيحه » ان عبادة الرحمن مسيحية أيضاً.

ولم تقتصر « عبادة الرحمن » على جماعات موحّدة مستقلة في اليمن بل تعدّته إلى الحجاز. والقرآن يذكر جماعة « عباد الرحمن » الموحدين في الحجاز.

ومما يدلنا على أن « عبادة الرحمان » لم تكن في يوم من الأيام وثنية، أو مشركة، اقترانُ الرحمن في نصوص المسند بالنعت التوحيدي، رب السماء والأرض » ؛ قالوا: «رحمنن بعل سمين » أي « الرحمان إله السماء » وقالوا: « رحمنن بعل سمين وأرْضِنْ » أي « الرحمان إله السماء والأرض » . وقد اقترن أيضاً اسم الرحمان في نصوص المسند باسم المسيح في بسملتهم « بسم رحمنن ومشيحو » مما يدل على أن عبادة الرحمن في اليمن، ثم في الحجاز، كانت عبادة كتابية استقل بها الذين وحّدوا الله ولم يندمجوا في اليهودية أو المسيحية.

---

(١) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ١٤٥ قابل Margoliouth : Relation 68 والأولى الترجمة هكذا : « الرحمان ، إله السماء » لأن الأصل « ذي سموي » يعني صاحب السماء ، رب السماء إله السماء .

(٢) كلمة رحمان من رحيم مع زيادة « ن » وهي « أل » التعريف عند عرب الجنوب : ففي قولنا «الرحمان » تعريفان جنوبي فحجازي .

وقد أجمعت الآثار التي اكتشفت في جنوب الجزيرة العربية على أن اليهود كانوا يستعملون «رحمنن» بدل «يهوه» والنصارى بدل «الآب» في بسملاتهم[1].

فهناك اذن دعوة وعبادة وجماعة، باسم الرحمان، توحيدية بكل معنى الكلمة يشهد بذلك أيضاً أن القرآن جعل «الرحمان» صفة لله في بسملته، ومرادفاً لله. ولم يكن الاسم شائعاً في الحجاز لذلك رفضه المكيون أوّل الأمر «وهم بذكر الرحمان هم كافرون» (أنبياء ٣٦) ولكن لما تعلموا من القرآن أنه اسم الجلالة المفضل أصبح عندهم الاسم المحبّب كما كان عند أهل الكتاب العرب.

وكانت عبادة الرحمان منتشرة في اليمامة كعبادة توحيدية. وقد اتخذها النبي الكذاب مسيلمة محوراً لدعوته الدينية عند بني حنيفة، وتسمّى باسم رسول الرحمان. كان يدعو للتوحيد واليوم الآخر ويبشر بملكوت السماوات وبالنازل من السماء في يوم الدين. والطبري، في تاريخه[2]، يذكر لنا أيضاً أنه كان يسمّي تلاميذه «الأبرار» ـ نقلاً عن الزبور ـ ويتكلم عن «الخلاص» مثل النصارى، مما يدل على أنها عبادة كتابية استقل بها بنو حنيفة في اليمامة، وتزعمها مسيلمة. لذلك، لما دعا محمد في مكة، بعد الهجرة إلى الحبشة، إلى عبادة الرحمان قاومه أهل مكة: «وهم بذكر الرحمن هم كافرون» ، حتى اضطر النبي إلى دمج اسمي الجلالة معاً «ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحسنى» . ويزيدنا بياناً أن النبيّة «**سجاح**» بعدما ردّها قومها بنو تميم جاءت مسيلمة وتزوجت منه. وسجاح كانت قد تتلمذت إلى بني تغلب النصارى. وهذا الزواج يعني الاتفاق في الدعوة، وموافقتها التامة لدعوة أهل الكتاب.

«فعبادة الرحمن» إذن دعوة توحيدية مستقلة في اليمامة وجوارها. وكانت تشكل خطراً على الإسلام في وحدة العرب الدينية، ولذلك قضى عليها الخلفاء الراشدون بسيف خالد بن الوليد.

*

عبادة «الله» في مكة والحجاز

قبل الإسلام كانت عبادة «الله» التوحيدية شائقة في الحجاز، بشهادة القرآن والحديث، والشعر الجاهلي الصحيح ـ لا الهجين ـ والآثار والأخبار.

فالله، ليس اسماً قرآنياً أو إسلامياً جاءَ به محمد. بل هو اسم الجلالة الشائع في الحجاز

(١) Ryckmans : les origines arabes préislamiques, Louvain 1951 p.47.

(٢) تاريخ الطبري ، طبعة القاهرة ٣ : ٢٣٩ ـ ٢٤٩ .

قبل مبعث الرسول العربي. وحَسبُنا شاهداً أن حوار القرآن مع مشركي مكة كان على « الله خالق السماء والأرض » ، وان اسم والد محمد كان « عبد الله » - والأسماء المركبة تعني مذهب أهلها في العبادة؛ فقد دخلت عبادة « الله » التوحيدية بيت النبي قبل مولده - واتخاذ القرآن « الله » علماً لإِله التوحيد يدلنا بصراحة على أن أهل مكة و الحجاز الذين يسميهم القرآن « مشركين » لتعبّدهم للملائكة، تحت أسماء وثنيّة جرّدوها من معانيها القديمة، كانوا في الحقيقة موحدين يعبدون الإِله الذي لا إله إلاَّ هو، تحت الاسم الساميّ العربي الحجازي المكّي « الله » جلّ جلاله.

تلك عبادة عامة. ولكن، نجد في الحجاز عبادة توحيدية خاصة « لله » عند جماعة موحّدة مستقلة كانت تملك « **مجلة لقمان** » ، وفيها من تعليم التوحيد الخالص ما جعل أحدَ أتباعها **سويد بن الصامت** يضارع بها القرآن ويكتفي بها. كان سويد في يثرب يدعو إلى التوحيد بحسب هذه المجلة. ولما ذاع خبر محمد من مكة، جاءها سويد حاجّاً أو معتمراً. فتصدّى له محمد يدعوه إلى الإسلام. فقال له سويد « **لعلّ الذي معك مثل الذي معي.** فقال له الرسول: وما الذي معك؟ قال « مجلة لقمان » . فقال محمد: اعرِضْها عليّ. فعرضها عليه. فقال: إن هذا **الكلام حسن**؛ والذي معي أفضل منه، قرآن أنزله الله عليّ؛ ثم تلا عليه محمد من القرآن. فقال: إن هذا **القول حسن**، ولم يزد. ثم رجع سويد إلى قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج[1]. - فمحمد إذن يستحسن توحيد مجلة لقمان، وسويد يستحسن توحيد القرآن!

وهكذا فقد أعدّ سويد يثرب للتوحيد الكتابي المستقل: وسيجني محمد ثماره.

*

وكذلك عند عرب الشمال من البتراء إلى تدمر نجد العبادات التوحيدية المستقلة تحت أسماء توحيدية متنوعة قد دخلت كلها القرآن.

عبادة « الرحيم »

كما وردت عبادة « الرحيم » في نصوص سبئية، جاءَت في نصوص صفوية أيضاً[2]، مع أداة التعريف في لغتهم « ها » : « هـ ر ح م » أي الرحيم. وعبادة الرحيم كعبادة الرحمان توحيدية.

---

(١) أسد الغابة ٢ : ٣٧٨ قابل : جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ١٤٥ و١٥٥ و١٧٥ .

(٢) راجع مصادر الآثار الشرقية : Handbuch 15, 288; - De Vogue : Syrie centrale, Paris 1868, 142/402; - Dussaud: Voyage archéologique au Safa, n° 258; Mission 88;. Les Arabe en Syrie 152; - Corpus inscriptionum Sem. IV t. 2 p. 63.

بأدوات تعريف مختلفة، نشأت بتأثير الدعوة الكتابية. ولم يزل إلى اليوم يختم نصارى سوريا صلواتهم برفع الحمد والتمجيد للإله الرحيم « لأنك الإله الرحيم، إليك نرفع المجد والشكر و السجود » . وقبول « الرحيم » نعتاً لإله التوحيد في البسملة القرآنية، لتأليف عرب الشمال، يدل على استعماله التوحيدي عند عبادِه.

عبادة رب البيت

ويقابل كعبة نجران في الجنوب، وكعبة مكة في الحجاز، كعبة البتراء عند العرب الأنباط. كانوا يعبدون فيها « **ذا الشرى** » تحت لقب « **رب البيت** » . وهو « دو شارا » بالآرامية. نعرف عبادته مما ذكره عنه الأنباط في آثارهم، والسريان واليونان والرومان في كتاباتهم. ويمثلونه في بيته كالحجر الأسود في كعبة مكة. كان في الأصل في موضع مرتفع على صخرة عالية، قائماً على قاعدة مكسوة بالذهب، في بيت موشّى بالذهب، ومن حوله صور القرابين. وهذا يشعرنا بأصل عبادته الوثنية. ولكن، مع الأيام، يظهر أنها تطهرت ومالت إلى التوحيد، رغم مظاهر الشرْك، كما كانت الحال في مكة. وكان الحج إليه في ٢٥ من كانون الأول من كل عام « وهو الذي يفرّق الليل عن النهار » . وقد أخذ القرآن الاسم والصفة تأليفاً لعرب الشمال، مما يدل على نزعتهم التوحيدية في بيئة أمست كلها على دين المسيح قبل الإسلام: « لإيلاف قريش: فليعبدوا رب هذا البيت » (سورة قريش).

وكانت أيضاً قبائل بكر بن وائل وإياد تحجّ إلى ذي « الكعبات » الذي لم يكن، على حد قول ابن الكلبي، بيت عبادة، وإنما كان مزاراً شريفاً. وقد قال الدكتور جواد علي في هذا الصدد: « ولا أستبعد أن يكون هذا البيت بيعة أو كنيسة يقصدها نصارى القبائل ولاسيما أن أكثر القبائل التي كانت تحج إلى هذا الموضع هي قبائل عُرف أنها كانت على دين المسيح[1] ». وهذا دليل على تطور كعبات العرب من الوثنية إلى الشرك إلى التوحيد، بتأثير أهل الكتاب.

عبادة رب العالمين

وفي تدمر نجد التوحيد في تعابيره القرآنية: « رب العالمين » ومعها مرادفات: «العلي، مالك الأبد، الرحمان، الرحيم » . وقد وجد العلماء أكثر من مئتي أثر[2] حجري، خصوصاً هياكل بخور من القرن الثاني والثالث، نقرأ على أحدها: « للذي اسمه مبارك إلى الأبد،

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ١٧٥ قابل الكلبي : كتاب الأصنام ٤٥.
(٢) Syria 1933 p. 118; Handbuch I S 258; Brillant: Histoire des Religions p 207-8.

الصالح، الرحمان، الرحيم: عمل مكّي بن يشَمْش هذا شكراً له على خلاص ابنه، فإنه دعاه واستجاب له آب سنة ٥٦٤ » (أي ٢٥٣). ولهم في تسمية الإله تعابير من الأدب الرفيع جروا فيها مجرى العبرانيين في وصفهم الإِله بصفة توحيدية، تهيّباً من ذكر اسم الجلالة، كقولهم جميعاً « تبارك اسمه! الله المحسن، ربّ العالمين، رب العالم الذي اسمه مبارك إلى الأبد. وكما يصفون الإِله « برب العالمين » يصفونه بالرحيم وبالرحمان » . والقرآن باتخاذه في لغته، هذه الألقاب يدلّ على معناها التوحيدي عندهم، وقد غزتهم الدعوة الكتابية.

ولئن حفظ التدمريون ولاءً لآلهتهم القديمة، كما فعل أهل الحجاز، أَو أَخذوا بتكريم آلهة الفاتحين، فقد أفرغوها مع الوقت من معاني الوثنية: فقد صار عندهم « زفس » مرادفاً لرب العالمين. ويؤخذ من مجموعة الآثار أنهم أقرب إلى التوحيد منهم إلى الوثنية بدليل هذه الكتابة لرئيس مجلس الشيوخ عندهم ملكس بن بَرَئس بن مليكس : « لله الواحد الأحد الرحمان » . أليس لهذا التعبير صدى في سورة الإخلاص؟ وهذه الكتابة الأخرى: « في الشدة دعاه، وهو استجاب له وأوسع عليه » تشبه كثيراً ما جاء في الزَّبور عند اليهود والنصارى (مز ١١٨ : ٥).

وفي أعمال المجمع النيقاوي ٣٢٥ اشترك أسقف تدمر، واسمه مارينس.

والعرب في ذهاب وإياب ما بين تدمر والحيرة والحجاز. وكم خلبت حضارة تدمر مخيلة شعراء الجاهلية فوصفوها في أشعارهم. وفي تبنّي القرآن هذا التعبير « رب العالمين » دليل على استعماله التوحيدي عند التدمريين وعلى بلوغه إلى الحجاز.

عبادة « الله أكبر »

لا بل حتى التعبير الإسلامي « الله أكبر » كان شائعاً في الأوساط السامية الآرامية حتى وصل إلى الحجاز. وأصله « Rabbel » أي « الله كبير » وقد ورد في سفر أشعيا، وفي سفر أيوب. وترجمه أهل الحجاز والقرآن « الله أكبر[١] » .

وكلها عبادات ودعوات توحيدية مستقلة، يظهر فيها أَثر الدعوة الكتابية من إسرائيلية ومسيحية، خاصة في الجنوب والشمال حيث كانت السيطرة للنصرانية.

ونجد في القرآن اهتماماً بالغاً بتوحيد هذه العبادات حول اسم الجلالة الحجازي «الله » ، وتوحيد جميع أسماء التوحيد في هذه البسملة: « باسم الله الرحمن الرحيم » رب العالمين ورب البيت، لا إِله إلاّ هو.

---

(١) *Brillant*: Histoire des Religions p 203 وقد نقل يوحنا الدمشقي في كتابه (ينابيع المعرفة) صفة « الأكبر » عن العربية والسريانية « Κεβιρ » : كبير مما يعني معنى واحداً بلهجة متنوعة.

الفصل السابع

الموحدون المصلحون من العرب قبل محمد

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيّةٍ ينهون عن الفساد في الأرض إلاَّ قليلاً ممّن أنجينا منهم »
(هود ١١٧)

كانت الحركة الدينية، قبل محمد والإسلام، نشيطة في البيئة الحجازية على ما نقل الأخباريون. وكانت هذه الحركة، كما رأينا، ذات نزعة توحيدية بتأثير الدعوة الكتابية كما يتضح من شهادة القرآن في مشركي مكة: « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (يوسف ١٠٦).

إن كثيراً من العرب، خاصة في الشمال والجنوب، دخلوا في دين أَهل الكتاب، ولكن في الحجاز كانت النزعة الاستقلالية التوحيدية أعمّ: « يذكرون أُناساً لهم آراء ومقالات في الدين. ولبعضهم إطلاع على اليهودية والنصرانية. ولبعض آخر دعوة ورسالة في الحث على الدخول في تلكما الديانتين كما كان بعض آخر حائراً. ومنهم مَن مزج بينها فأوجَدَ خليطاً مركباً من الوثنية والتوحيد[١] » .

ومن هؤلاء الموحدين المستقلين ـ فضلاً عن جماعة الحنفاء ـ حكماء وأَنبياء وشعراء ومصلحون ودعاة توحيد، جاؤوا قبل محمد في بيئته وشقّوا له الطريق: « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا قليلاً ممّن أنجينا منهم » (هود ١١٧)، قليل من القرون الماضية نهوا عن الفساد في الأرض ونجوا وأَنجوا غيرهم.

---

(١) جواد علي : العرب في التاريخ ٥ : ٣٥٧ .

أولاً: الحكماء الموحدون قبل محمد

قام بين العرب، حتى في الحجاز، أفراد سمت عقولهم عن شِرك قومهم فكانوا يدعون « بالحكمة والموعظة الحسنة » إلى توحيد الله ، دون الدخول في جماعة معينة.

ويرجع انتساب هؤلاء الحكماء إلى لقمان، وينتهي بقسّ ابن ساعدة الإيادي.

لقمان حكيم موحِّد، ذهب مضرب المثل في الحكمة والتوحيد بين العرب. وهو صاحب مجلة باسمه « مجلة لقمان » من لغة القرآن. وكان من مثـله وتأثير مجلته إن كانت جماعة توحيدية تعرف باسمه، منها في المدينة سويد بن الصامت الذي ناظر محمداً في مكة.

والأخبار عن لقمان مضطربة. ودخل في قصصه إسرائيليات كثيرة حتى عدّه بعضهم قاضياً في بني إسرائيل وآخرون وزيراً حكيماً عند النبي داود؛ وعدّه بعضهم ـ بعد القرآن ـ عبداً حبشياً رزقه الله العقل والحكمة وفصل الخطاب؛ وعده بعض المفسّرين نبيَّاً من أنبياء الله[1]. وقال البيضاوي: « والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً (سورة لقمان ١٣). والشعر الجاهلي يعتبره حكيماً، مثل قُسّ على حد قوله لبيد:

وأخلف قساً ليتني ولعلّني　　　　وأعيى على لقمان حكم التدبُّرِ

وتكفينا شهادة القرآن، في سورة لقمان، بأنه كان حكيماً موحِّداً: « ولقد آتينا لقمان الحكمة[2] ... » . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تُشرِك بالله ، إن الشِرك لظلم عظيم... يا بني أقم الصلاة، وأمر بالمعروف وأنهَ عن المنكر، واصبرِ على ما أصابك: إن ذلك من عزم الأمور » (لقمان ١٣ ـ١٧) ـ يستشهد القرآن بحكمته وتوحيده، كأنه مسلم قبل الأوان.

ومن السنن التي تناقلوها عنه الجاهلية: إنه أول مَن سن رجم الزوج الخائنة ـ وقد رَجَمَ زوجه لمَّا خانته؛ وإنه أول مَن سنّ قطع يد السارق[3].

ولقمان، مثل أيوب، من حكماء العرب الذين تمدحهم التوراة، ضاربة بهم المثل:

---

(١) بلوغ الأرب ٢٧٨/٢ .
(٢) « الحكمة » في القرآن هي الحكمة المنزلة كما نزلت في الكتاب وكما نزلت مع الإنجيل على المسيح . ومحور هذه الحكمة التوحيد المنزل ، الإسلام ـ وهذا يعني إنه حكيم ، ونبي .
(٣) Ency. of Islam p 289 .

وينقل سفر الأمثال تعاليم حكيمين من عرب الشمال بلغت أقوالهم إلى إسرائيل « كلام آجور بن يافة، المقول الرزين » (ف٣) « كلام لموئيل الملك الذي أدبته به أمه » (ف٣١)؛ وكلاهما من قبيلة مَسّى بن اسماعيل (تكوين ٢٥ : ١٤). والشبه كبير بين حكمة لقمان وحكمة أحيقار في الكتاب[١].

وقصة حكيم المدينة سويد بن الصامت مع النبي في مكة، وتنازعُهما على أفضلية الحكمة والتوحيد بين القرآنِ ومجلة لقمان، واستحسانهما المتبادل للقرآن والمجلة توحي لنا بأنه كان للقمان في الحجاز مجلةٌ وجماعةُ حكمةٍ وتوحيد.

*

ومن حكماء العرب الموحدين: **عامر بن الظِرْب العدواني**. نسبوا إليه أقوالاً في الحِكَم والتوحيد. منها: « إني ما رأيتُ شيئاً خلق نفسه، ولا رأيتُ موضوعاً إلاَّ مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً[٢] » . وقد أدخله الجاحظ في عداد الخطباء البلغاء. وقد سنَّ هو أيضاً للعرب سنناً أقرّها الإسلام. منها حكم في « الخنثى » . وكان إذا أشكل على العرب أمرٌ التجاوا إلى حكمه وعملوا به. ومَن كان حُكمه وحكمتُه لا يُردّان، فدعوته للتوحيد معقولة مقبولة[٣].

ومن حكماء العرب الموحدين: **عبد الله القضاعي**. وهو ابن ثعلب بن وبرة بن قضاعة. نسبوا إليه أيضاً الإيمان بالله واليوم الآخر قبل أن يدعو إليهما محمد. وكان من الحكماء الخطباء، ولمثلِه و حِكَمِه وأحكامه تأثير توحيدي عند العرب[٤].

قس بن ساعدة الإِيادي

إن ورود اسمِه وقصصه في الحديث والأخبار وفي أشعار الجاهلية دليلٌ كافٍ على حقيقة وجوده التاريخية. ولا مستند لزعم المستشرق « **لامنس** » بأنه شخصية خرافية، رغم كثرة الشعر المنسوب إليه.

وجعله شيخو من نصارى العرب العظماء[٥]، وغالى بعضهم فجعله كاهناً نصرانيّاً بل أسقفا

---

(١) قابل حِكَم لقمان في الثعلبي (المجالس) .
(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٧٥ .
(٣) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٣٩٥ ـ ٣٩٦ .
(٤) بلوغ الأرب ٢/٢٨٠.
(٥) شعراء النصرانية : ٢/٢١١ .

على نجران. والمنافسة بينه وبين محمد على زعامة الحكمة الدينية والنبوّة يُبعِدُ تنصُّره. وذهب « سبرنكر » إلى أنه كان من « الركوسية » ، فرقة بين النصارى والصائبين. والقول عندي إنه كان من الحكماء الموحّدين، ومن دعاة التوحيد قبل الإسلام.

إليه، قبل محمد، انتهت حكمة العرب التوحيدية. وقد جعلوه خطيب العرب كافة. وذكروا أن له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب، وإن الرسول روى كلامه في عكاظ وأعجب به وقال عنه: « يحشر أمّة وحده » (أغاني ١٤/١٤).

فهو عندهم أول (؟) من آمن بالبعث وخطب فيه.

وأسلوبه في الخطابة ظل مشهوراً: فهو أوّلُ من توكأ على سيف أَو عصا. وأول من أقام على شُرُفٍ وخطب من فوقه. وأَول من قال « أما بعد » وأول من كتب « إلى فلان بن فلان » وأول مَن قال: « البيّنة على من ادَّعى واليمين على مَن أَنكر » . فكأن كل ما عرفه العرب من مثل هذه المواقف هو من ابتكار قسّ[1]!

وكان يغشى عكاظ ويخطب ويدعو إلى التوحيد، فيخلب القوم بحكمته التوحيدية، حتى حفظوا وحفظ محمد عنه هذه المواقف في عكاظ - ولا يذكر الحديث والسيرة إن محمداً وقف خطيباً في عكاظ يدعو إلى التوحيد! - « وقدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ص. فقال له رجل منهم: هل تعرف قسَّ بنِ ساعدة؟ فقال رسول الله: ليس هو منكم. هذا رجل من إِياد، تحنَّف في الجاهلية، فوافى عكاظ والناس مجتمعون فيكلمهم بالكلام الذي حفظ عنه[2].

وهكذا نجد بين عرب الحجاز حكماء مالوا بالفطرة والتفكير إلى التوحيد. ودعوا إليه في خطبهم الخاصة والعامة. وسوقُ أدب العرب، عكاظ، كانت تسمع، قبل محمد مع الشعر دعوة التوحيد.

ثانياً: الأنبياء العرب الموحدون قبل محمد

من القرآن ومن روايات الأخباريين يظهر أنَّ التنبُّؤ في حياة العرب الدينية لم يكن مجهولاً في الحجاز والجزيرة كلها. وهذه الظاهرة رافقت تطور العرب نحو التوحيد على ممرّ العصور. ويظهر إن حركة النبوّة عند العرب من تأثير كتابي.

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٧٧٢ .
(٢) طبقات ابن سعد ١ : ٢ / ٥٥ .

« وموضوع التنبّؤ والآراء الدينية قبيل الإسلام يحملنا على التنبيه على أن الآراء الدينية عند الجاهليين كانت ككل ناحية من نواحي حياتهم ـ وحياة كل أمة ـ عرضة للتطور والتغيّر. وأن الحالة التي كانت عليها قُبيل البعث هي نتيجة تطور مستمر دامَ آلافاً من السنين قام به رجال من أهل الجاهلية إما بشعور ذاتي مبعثُه عاطفة دينية وحس مرهف؛ وإمَّا بتأثير من الخارج، وأمَّا بواسطة أناس من المبشرين أو التجار أو السياسيين الذين وفدوا على جزيرة العرب في أوقات مختلفة فاحتكوا بأهلها وأثروا فيها وأدخلوا إليها آراءَهم ومعتقداتهم. فكان في كل ذلك أثر في التطور الفكري للجاهليين[١].

وحركة النبوّة عند العرب، ظهرت قبل محمد، وعاصرتْه، ودامت بعده. وفي حوادث التنبّؤ المذكورة في السيرة تأييد صريح لوجود مثل هذه الدعوات عند الجاهليين والمعاصرين للرسول العربي.

ذكر القرآن من أَنبياء **العرب العاربة** هود وصالح.

نقل القرآن مراراً دعوة **هود** قومَه عاداً إلى التوحيد[٢]. وتسمّت سورة باسمه نقلت بعضاً من أقواله في التوحيد « قال يا قوم: اعبدوا الله. ما لكم من إله غيره. إن أنتم إلاَّ مفترون ... يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ... قال إني أشهد الله وأشهد إني بريء ممّا تشركون ... ولمَّا جاء أمرنا نجينا هوداً ومن معه برحمة منَّا ... ولكن عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ... » (هود ٥٠ ـ٦٠). فهود نبي عربي نزل عليه الوحي، وترك جماعة موحِّدة بين العرب الذين افتقدهم الله بالرسل قبل محمد، بشهادة القرآن.

ونقل القرآن أيضاً، بصور مختلفة دعوة **صالح** قومه ثموداً إلى التوحيد[٢] « قال: يا قوم اعبدوا الله. ما لكم من إله غيره: هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إنَّ ربي قريب مجيب ... ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ... فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منّا ... وأخذ ظلموا الصيحة في ديارهم جاثمين »

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب ٥ : ٣٥٨ .
(٢) هود وأخباره مع قومه بني عاد : أعراف ٦٥ ـ ٧٢، هود ٥٠ ـ ٦٠، المؤمنون ٣١ ـ ٤١، شعراء ١٢٣ ـ ١٣٩، ص ١٢، فصلت ١٥ ـ ١٦، أحقاف ٢١ ـ ٢٨، ذاريات ٤١ ـ ٤٢، القمر ١٨ ـ ٢١، الحاقة ٦ ـ ٨ .
(٢) صالح وأخباره مع قومه بني ثمود، خصوصاً ذكر ناقته : أعراف ٧٣ ـ ٧٩، هود ٦١ ـ ٦٨، إسراء ٥٩ ، الشعراء ١٤١ ـ ١٥٨، النمل ٤٥ ـ ٥٣ ، ص١٣ ، القمر ٢٣ ـ ٣١ ، الحاقة ٥، الشمس ١١ـ ١٥.

(هود ٦١ ـ ٦٨). وفي سورة الأعراف يستخلف الله قوم عاد بعد قوم نوح (٦٨) وقوم ثمود بعد قوم عاد « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً » (٧٣) فقد كان بين العرب أنبياء وجماعات توحيدية مسلمة قبل القرآن وبشهادة القرآن. وهذه النصوص توحي بأن التوحيد، والنبوّة وراثة عند العرب، قبل محمد.

*

فالتوحيد والنبوّة كانا شائعين بين العرب البائدة والعاربة. وظهر خصيصاً بين **العرب المستعربة** منذ إبراهيم وابنه إسماعيل الذي يعتبرونه جدّ العرب المستعربة. **فإبراهيم** كان يصلّي مع إسماعيل عند بناء الكعبة، بحسب شهادة القرآن: « ربنا واجعلنا مسلِمَين لك ... ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتبْ علينا ... ربنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة » . (بقرة ١٢٧ ـ ١٣٠). وورث **إسماعيل**[١] النبوة والتوحيد عن أبيه: « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّاً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيّاً » (مريم ٥٤) وأوحي إليه مثل سائر النبيين (نساء ١٦٢). وتحدَّر التوحيد والنبوة عنه إلى العرب مثل إسلام القرآن، فلم ينقطع التوحيد فيهم وظل لهم أمل متواصل بالنبوة.

بعد شهادة القرآن بالنبوة والإسلام لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط (نساء ١٦٢) يدعي الأستاذ العقاد[٢] أن العبريين اتخذوا كلمة النبوة من عرب مدين عند دخولهم إلى فلسطين، وإطلاعهم على أربعة من أنبياء العرب واتصالهم بهم. **وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام ويثرون:** « وتاريخ النبوات العربية التي وردت في التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبي بدلاًَ من كلمة الرائي والناظر. وتلمذة موسى لنبي مدين (يثرون) مذكورة في التوراة قبل سائر النبوآت الإسرائيلية » .

ويذكر القرآن، من بين أنبياء العرب الكثيرين[٣] **شعيباً** عند مدين من عرب الشمال. كان بنون مدين من ولد إبراهيم أيضاً فأرسل الله إليهم شعيبِ بن يشخر بن مدين. وكان يقال

(١) إسماعيل وأخباره : بقرة ١٢٧، آل عمران ٨٤ ، نساء ١٦٣، أنعام ٨٦، إبراهيم ٣٩ ، مريم ٥٤ ، أنبياء ٨٥ ، ص ٤٨ .
(٢) العقاد : حقائق الإسلام ٦٣و٦٤.
(٣) قال الجلالان في سورة النساء ١٦٣ « روي أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي : أربعة آلاف من إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس . قاله الشيخ في سورة غافر » .

له « خطيب الأنبياء » لحسن مراجعته قومه: « قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءَتكم بينة من ربكم! فأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ... » (بيضاوي: أعراف ٨٤ ـ ٩٤). ويظهر أن قومه جاؤوا بعد قوم لوط: « يا قوم لا يجرمنَّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود، أو قوم صالح. وما قوم لوط عنكم ببعيد » (هود ٨٩). ويظهر من القرآن أن دعوة شعيب في قومه كانت مثل دعوة محمد في مكة؛ ومقاومة قريش محمداً كانت مثل مقاومة مدين شعيباً.

وروى الأخباريون أسماء أنبياء من العرب لم يرد لها ذكر في الكتاب أو القرآن. ذكروا من حمير: **حنظلة بن صفوان**[1]. كان نبيّاً بعثه الله إلى أهل الرسّ: فكذبوه وقتلوه.

وذكروا أيضاً **خالد بن سِنان** بن غيث العبسي، من أنبياء الفترة. ويذكرون له قصة العنقاء. دعا عليها فانقطع نسْلُها. جاءَ عنه في الحديث: « ذاك نبي أضاعه قومه » .

ففكرة التوحيد قائمة بين جميع العرب، وفكرة النبوّة قائمة بينهم لم تُحرَم مَن يدّعيها قبل « النبي الأمّي » .

*

زادت عدوى النبوة عند العرب في زمن محمد، ونجاح دعوته.

رأينا أنه ظهر باليمامة في بني حنيفة **مسلِمة** يزاحم محمداً ويدَّعي أنه بُعث مع محمد لردّ الناس عن الوثنية والشِرْك إلى التوحيد باسم « عبادة الرحمان » . فلقبوه رحمان اليمامة. وتوطد أمره طيلة حياة النبي. وبعد محمد، في حروب الردة ظهر خطره على الإسلام. فأرسل إليه أبو بكر خالدِ بن الوليد، فحاربه وقتله وشتت جماعته وطاردهم حتى ارتدوا إلى الإسلام. وبقي اسمه في تاريخ الإسلام « مسيلمة الكذاب » .

وفي السنة العاشرة للهجرة، سنة وفاة محمد، قام أيضاً **عيهلة العنسي** الملقب «بالأسود» يتمثل بمحمد ويدّعي النبوة. كان رجلاً فصيحاً يجيد سجع الكهان. وسمّى ملاك الوحي إليه « ذا خمار » . شعر النبي بخطره وكذبه فأرسل إلى ذويه أن يقتلوه، ففعلوا ليلة وفاة محمد.

ودامت عدوى التنبؤ بعد محمد.

قام **طليحة** بن خويلد من بني أسد يدّعي النبوة ويقطف ثمار دعوة الرسول. وكان يقول إن ملاك الوحي عنده اسمه « ذو النون » . وكان يعترض على السجود في الصلاة

---

(١) راجع أخبار حنظلة وخالد بن سنان : جواد علي ٥ : ٣٦٠.

ويقول: صلوا قياماً فإنَّ الله لا يُعبد بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم! فتصدَّى له أيضاً خالد بن الوليد فهرب إلى الشام، فأقام فيها إلى أيام عمر بن الخطاب. ولما فتح العرب الشام رجع طليحة إلى الحجاز وأسلم وبايع أمير المؤمنين. وانتهى أمره.

ولحقت عدوى النبوة النساء أيضاً. فقامت **سجاح** بنت المنذر، أم صادر، من بني تميم تتنبأ في قومها حتى تزوجت مسيلمة.

ودامت عدوى النبوة إلى أيام الخلفاء أنفسهم. فادعى **عطاء بن هاشم** الملقب بالحاكم المقنّع أو البرقعي، الحلولية. فحاربه المهدي، ثالث العباسيين وقتله.

وقام بعده **بايك الخرْمي**. ودام ادعاؤهُ من زمن المأمون إلى زمن المعتصم الذي ضايقه فهرب إلى الأرمن. وهناك أراد أن يتطاول على بطريركهم، سهل بن سنباط. فقبض عليه وأرسله إلى الخليفة العباسي فقتله. ومن ابتكارات نبوته إنه كان يقتل كل امرأة أو طفل مسلم أو ذمّي يراهم ...

ولم يكن آخر دَعِيّ للنبوّة في شبابه، الشاعر الأكبر، المتنبئ، الذي عرفه الأدب العربي بهذا الاسم.

ويختم الدكتور جواد علي بقوله: « **لم يُعدم العرب إذن من الأنبياء**. وليست النبوة إذن حقّاً خاصّاً وملكاً خصصه الله ببني إسرائيل. بل شاركهم أبناء عمهم فيه وبهم اختتمت النبوة بظهور خاتم الأنبياء[1] » .

*

ثالثاً: الشعراء الموحدون عند العرب قبل محمد

اجتاحت موجة التوحيد الحجاز، وظهرت دلائله في الشعر الجاهلي، وهو الأثر الوحيد الذي بقي لنا من ذلك العصر، فيما عدا القرآن. وقد رأينا أنه أقرب إلى التوحيد منه إلى الوثنية والشرك. وقد ينتسب كثيرون من شعراء الجاهلية إلى أهل الكتاب؛ فمنهم من تهوّد؛ ومنهم من تنصّر؛ ومنهم من بقي مستقلاً في توحيده وقد ظهر أثر ذلك في شعره. والشعر الجاهلي، بصفة عامة، توحيدي، وإن لم ينتسب صاحبه إلى ملة خاصة من مِلل التوحيد. لقد مرّ بك ذلك فلا حاجة إلى الإطالة ههنا.

---

(١) جواد علي ٥ : ٣٦٠ .

فهذا لبيد لا يذكر غير الله في شعره، ويؤمن بأن ما يُرزقه هو من فضل الله عليه

فما رزقت فإن الله جالبُهُ   وما حُرِمْتُ فما يجري به القدرُ

حتى كان محمدٌ يستنشد شعره، مع سخطه على الشعراء[1] وقد أنشده في سفر الشريد بن سويد من شعر لبيد مئة بيت فقال « كاد ليُسلم » . وكان النبي يقول: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[2]!

ورأينا توحيد **زهير** بن أبي سلمى وإيمانه بالله واليوم الآخر كأنه نصراني من بني غسان، أو كأنه مسلم من أنصار محمد وشعره الصحيح توحيدي خالص:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلـم
يؤخر فيودع في كتاب فيدّخـر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم[3]

و هذا **عبيد** بن الأبرص يعلن في شعر صورة الإسلام قبل القرآن :

و الله ليس لـه شـريكٌ   علاّم مـا أخفتِ القلوبُ !

وهذا **سويد** بن عامر المصطلقي كان شاعراً موحداً، وربما من الحنفاء، له في شعره مسحة توحيدية. وقد أنشدوا منه للرسول فقال: « لو أدركته لأسلم[4] » .

وغيرهم كثيرون. مما يوحي بأن التوحيد قد عمّ مظاهر الجاهليين في حياتهم الدينية والاجتماعية والأدبية قبل ظهور القرآن.

*

رابعاً: الدعاة والمصلحون الموحدون قبل محمد

في كل ناحية من نواحي الجزيرة قام مع الأيام مصلحون يدعون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر. وعندما تقرأ سِيرهم عند الأخباريين يتخيل إليك أنك تقرأ سيرة الرسول لابن هشام.

فهذا **أسعد أبي كرب،** نبي محارب في حمير. ومنهم مَن قال إنه تبع الأوسط. وزعموا أن بلقيس كانت ابنة عمه. وقالوا إنه أوّل من كسا البيتَ الأنطاع والبرود. كان يدعو إلى التوحيد، ويفرضه على قومه بغزواته.

---

(١) سورة الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ١٢٤.
(٢) صحيح مسلم : كتاب الشعر ٤٢/٧ طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٧٦ .
(٣) شعراء النصرانية ج ٤، ٦٠٧ .
(٤) بلوغ الأرب ٢٥٩/٢ .

ونجد في أخبارهم عن **سيف بن ذي يزن** إنه مثال العربي الموحّد القوميّ. يريد أن يفرض الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكن دون انتساب إلى أهل الكتاب؛ بل اتصل بالفرس حتى أجلى الأحابيش عن بلاده دون أن يتأثر بمجوسيتهم. فهو البطل القومي الموحد في اليمن على غرار محمد في الحجاز.

أمّا « **وكيع بن سلمة** بن زهر بن إِياد، فهو صاحب الصَرْح بحزورة مكة. وقد أكثروا فيه فقالوا كان كاهناً. وقالوا صدّيقاً من الصديقين[1] » .

جاءِ عنه في البيان والتبيين: « الإِيادي صاحب الصَرْح الذي اتخذه سُلـَّماً لمناجاة الرب ... وهو القائل: وصلة الرحم وحسن الكلِم زعم ربكم ليجزيَنَّ بالخير ثواباً وبالشر عقاباً... من رشد فاتبعوه ومن غوى فارفضوه. وإياه يعني الشاعر بقوله:

ونحن إياد عبيد الإلـه	ورهط مناجيـه في السُلـَّم
ونحن ولاة حجاب العتيقِ	زمان الرعاف على جرهم[2] »

قال ابن الكلبي إنه ولي البيت بعد جرهم فبنى صرحاً بأسفل مكة وجعل فيه أَمَة يقال لها « حزورة » فسمّي الصرح باسمها. وجعل في الصرح سلـّماً كان يرقاه لمناجاة الله واستنزال الوحي معروفاً في مكة قبل محمد.

وزعموا عن أبي قبَس، **صرمة بن أبي أَنَس** أنه كان قد ترهّب ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها. ودخل بيتاً اتخذه مسجداً لا تدخله طامث ولا جُنُب قائلاً: « اعبد رب إبراهيم » ! فلما جاء النبي إلى يثرب أسلم وهو شيخ كبير. وذُكر أنه كان له شعر وأن ابن عباس كان يختلف إليه يأخذ عنه الشعر[3] » . وكان مثالاً لمحمد في اتخاذ مسجد في يثرب، يعتكف فيه ويصلي ويدعو إلى التوحيد.

أمَّا **أمية بن أبي الصلت** من ثقيف في الطائف فقد كان نداً منافساً لمحمد في شخصه وقومه وقريته وطريقتِهِ.

ودعوة أمية إلى التوحيد يشهد لها حديث شريف: « كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم[4] ».

---

(١) المحبر ص ١٣٦ وبلوغ الأرب ٢٦٠/٢ .
(٢) البيان والتبيين ١٠٩/٢ .
(٣) جواد علي ٥ : ٣٩٥ .
(٤) صحيح مسلم : كتاب الشعر ٤٨/٧ .

وأمية أفضل مثال، بعد محمد، للحنفاء الموحدين. نذكره هنا لتشابه الدعوة والسيرة؛ كمثال لدعاة التوحيد، والمصلحين في قومهم، قبل القرآن، ومعه.

أدرك أمية الإسلام ورفضه؛ وكان يرى نفسه أولى بالنبوة من محمد، لأنه على زعمه أوسع اطّلاعاً منه على أخبار الكتاب والأمم، ويحسن فهم العبرانية ولغة بني إِرم (أي الآرامية) وإلى هذه المعرفة عزوا أكثر استعماله للكلم الغريب[1].

وأمية مثل مثل محمد وسائر الحنفاء، سافر إلى الشام واتصل بأهلها وأوى إلى الأديرة، والرهبان، والأحبار يسأل عن التوحيد والمعاد. وكان تاجراً يذهب مع القوافل في تجارته ويعود منها غنيًّاً بالمال والدين.

وقد جعل المتقربون إلى الحجاج بن يوسف ـ وهو من ثقيف أيضاً ـ سيرة لأمية هي أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ، وضعوا سيرته على مثال سيرة النبي لابن هشام. فجعلوا الرهبان يتوسمون معالم النبوة فيه أو يكادون. كما رووا قصصاً عن شق طيرين لقلب أمية لتنظيفه وتهيئته للنبوة. كذلك رووا أنه كان مثل سليمان يعرف منطق الطير والحيوان؛ وأنه تنبّأ حينما نعب عليه الغراب[2].

ولكن مما لا مراء فيه أن أمية كان يدعو إلى التوحيد مثل محمد الذي كانت تربطه بأمية قرابة عن طريق أمة آمنة. وقد التقى به في مكة وتحاجًا في ظل الكعبة، **وشهد أحدهما للآخر بالحق**. وطلبت قريش من أمية شهادته في محمد فشهد له. « كان قد قرأ الكتب القديمة وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً فرجا أن يكون هو ذلك الرسول. فاتفق أن خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله ص. فأقام هناك ثماني سنين. ثم قدم ولقي رسول الله ص. في جماعة من أصحابه. فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه سورة يس حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ فقال: أشهد أنه على الحق. قالوا: فهل نتبعه؟ قال: حتى انظر في أمره. فخرج إلى الشام ـ وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يُسلم، فلمَّا أخبر بها ترك الإسلام، وقال: لو كان نبيّاً ما قتل ذوي قرابته. فذهب إلى الطائف ومات فيها[3] » .

---

(١) من جملة التشابه بين أمية ومحمد لجوؤهما إلى الكلم الغريب: « حجارة من سجّيل » (سورة الفيل) « طعام من غسلين » (حاقة ٢٦).
(٢) البداية والنهاية ٢٢٧/٢ و٢٢٦ .
(٣) يروي ابن هشام ٤٠١/٢ أنه لما وصل إلى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر وعلم أن بينهم عتبة وشيبنة ابنا خالة أمية جدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى ورثى قتلى بدر وعاد إلى الطائف .

وقد دخل في سيرته كثير من القصص الموضوع والأساطير، ونُسب إليه كثير من الشعر الهجين[1]. وفي الصحيح منه يظهر أن نزعته التوحيدية كانت كتابية ولو لم يتهود أو يتنصّر.

ومن أثره في نشر التوحيد في عرب الحجاز أنه أشاع بينهم افتتاح الكتب والمراسلات والمعاهدات بقوله: « باسمك اللهم »[2]. وقد استبدلها منافسه في مكة، محمد بن عبد الله ، بالبسملة « باسم الله الرحمن الرحيم » ، هذه الجوهرة التوحيدية الجامعة.

وقد اتخذ أمية الخطابة والشعر لنشر التوحيد، ولم يتخذ أسلوب القرآن لما له من صلة الشبه « بسجع الكهَّان » . وأمية خصم لمحمد عنيد أراد أن تكون النبوة له فحسده على إتباع الناس له واعتزل طريقة وحيه.

ان الدعوة للتوحيد في القرآن وشعر أمية واحدة، والتعابير متشابهة، وكيف نفهم هذا التشابه والتطابق؟ عندي إن محمداً لم يأخذ عن أمية ولو أنه استنشد شعره، ولم يأخذ أمية عن محمد مع ما نسب إليه في شعره من تعابير قرآنية. بل تأتي وحدة التعابير من وحدة الدعوة ووحدة البيئة الحنيفية الكتابية التي ينتسب إليها محمد وأمية.

فقد كان أمية أعظم ممثل لدعاة التوحيد المصلحين في زمن محمد وبيئته. ولا يبعد أن يكون محمد تمثل به واستلهمه واستنشد شعره، ثم تغلب عليه في نجاح دعوته وبيان قرآنه.

*

ولا ننكر أنه كان بإزاء هؤلاء الموحدين وهذه الدعوات التوحيدية حكماء وشعراء ودعاة غير موحدين من أشهرهم عمرو بن لحيّ الذي ينسبون إليه نشر عبادة الأصنام بين العرب وإبعادهم عن دين إبراهيم وإسماعيل، وقُصي، وابن أبي كبشة، جزء بن غالب الخزاعي، من أجداد الرسول؛ وكان يشدّ أزرهم « الكهان » رجال الوثنية بين العرب. وكان العرف الشعبي يرى عندهم اختصاصهم الرجمَ بالغيب والإخبار عن الأسرار والخوافي.

---

(١) لأمية نوعان من الشعر: شعر المدح والرثاء والوصف عليه مسحة أسلوب الجاهلية . والشعر الديني ذي الصبغة الإسلامية يختلف عن الأول أسلوباً وديباجة فهو منحول عليه.

(٢) اللهم : جهل أو تجاهل العرب الأقدمون أصل اسم الجلالة في صيغته هذه ، فاعتبروه منادى بصيغة لا عهد للعرب بها . وعندنا إنها صيغة جمع بالعبرانية لاسم الله ، على سبيل التعظيم والتفخيم كما وردت في التوراة ، نقلت على علّتها وصيغتها إلى العربية عن طريق الآرامية ، وضاع أصلها : فتخبط النحاة في قياس الكلمة حتى عدوها منادى .

أمَّا هم فكانوا يدعون أن علمهم عن تلقين وتنزيل لذلك فهو عندهم أمر وشريعة وعلى السامع أن يعمل به. وكان أكثرهم قضاة بين الناس، يفقّهون الناس في أمور الدين والدنيا.

فقد اشتهر أسلوبهم « بسجع الكُهَّان » : أسلوب البلاغة في ذلك الزمان، وإلى عهد طويل، وأسلوب التنبّؤ في كل مكان.

وكان لقرابة « سجع الكهان » من أسلوب القرآن المكّي الأول شبهة جعل القوم يستغلونها ضدّ الرسول: « إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر ... ولا بقول كاهن ... تنزيل من رب العالمين » (حاقة ٣٨ ـ ٤٤)، « فذكر فما أنت بنعمة ربّك بكاهن ولا مجنون» (صور ٢٩).

ويلحق بهم لا دينيّو ذلك الزمان، الدهريون الذين يؤلهون الدهر بدل الله ، ونُقل عنهم قولهم:

حيـاة ثم مـوت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو!

وحكى القرآن حكايتهم: « وقالوا ما هي إلاَّ حياتنا الدنيا: نموت ونحيا وما يهلكنا إلاَّ الدهر[1] » .

*

ويذكر لنا الأخباريون أن الدعوات التوحيدية المستقلة، والموحدون العرب المستقلون كانوا يتبعون كتباً توحيدية مستقلة عن أهل الكتاب، يذكرون منها، كما يذكر القرآن « **كلمات إبراهيم** » أو « صحف إبراهيم » : « وإذا ابتلى إبراهيم ربَّهُ بكلمات فأتمهنّ » (بقرة ١٤٢).

ويذكرون « **مجلة لقمان** » الذي فاضل بها سويد بن الصامت من يثرب قرآن محمد في مكة[2].

ويذكر الأخباريون « **سنن الجاهلية** » التي قبـِل الإسلام أكثرها، وأدخلها في تشريعه القومي: الطلاق ثلاثاً ـ خطبة المرأة إلى ولي أمرها ـ ، العمرة أو الحج إلى البيت والطواف والتلبية والوقوف بعرفات، والهدي ورمي الجمار ـ والاغتسال من الجنابة ـ وتغسيل الموتى وتكفينهم والصلاة عليهم ـ والإيمان بالحساب ـ وقطع يد السارق ـ وصلب قاطع الطريق ـ والوفاء بالعقود ـ والامتناع عن أكل الميتة ـ والصوم[3].

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ وأظن أن الآية مقلوبة: نحيا ونموت.
(٢) أسد الغابة ٣٧٨/٢ .
(٣) جواد علي : ٥ : ٤٠٣ .

فهذا التوحيد الكتابي أو المستقل، وهذه الصحف والمجلات والكلمات التوحيدية المستقلة، وهؤلاء الحكماء والمتنبئون والشعراء والمصلحون والموحدون من العرب، في الحجاز خاصة، قد هيئوا البيئة وشقوا الطريق لمحمد وقرآنه.

وقد شهد القرآن بأنه كان، من القرون من قبله، أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض (هود ١١٧) حتى أمسى أهل مكة والحجاز يؤمنون بالله واليوم الآخر، إيماناً توحيدياً صادقاً مخلصاً، ولو كان غير خالص تماماً من رواسب الشِّرْك: ((وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون)) .

فالإسلام إذن نتيجة تطور توحيدي طويل في الحجاز بتأثير الدعوات التوحيدية من يهودية ومسيحية وحنيفية. فقد كان في مكة والحجاز، قبل القرآن والإسلام، **دعوات** توحيدية كتابية ومستقلة، **وجماعات** موحدة، كتابية ومستقلة، وكتب أو صحف أو **مجلات توحيدية** غير الكتب السماوية من توراة ونبؤة وحكمة وزبور وانجيل.

فقد سبقت محمداً الدعوة إلى التوحيد في الحجاز وعاصرته. ففي أيامه كان يدعو إلى التوحيد الخالص الذي شهد له محمد بنفسه في مكة واستحسنه: سويد بن الصامت في المدينة، وأمية بن أبي الصلت في الطائف، ومُسيْلمة[1] في اليمامة. ولأسباب توقفت دعوتهم وتعطلت، ونجحت دعوة محمد. اكتفوا هم بالموعظة الحسنة فلم ينجحوا في بيئة بدائية بدوية، واعتمد هو النبوّة ثم الجهاد، وهما اللغة التي يفهمها مثل أهل تلك البيئة، فنجح وساد.

فليس القرآن زهرة يانعة من أرض بكر قاحلة. بل إنما هو ثمرة طيبة من بيئة قد اختمرتْ بفكرة التوحيد الكتابي أو المستقل:

والقرآن المكي ينتسب إلى الكتاب وأهله.

والقرآن المدني ينتسب صراحة إلى الحنيفية، ملة إبراهيم.

---

(١) ويسمّونه ((مسيلمة الكذاب)) .

الفصل الثامن

الحركة الحنيفية في مكة والحجاز قبيل الإسلام

« ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »
نحل ١٣٣ أنعام ١٦١ يونس ١٠٥ حج ٣١ روم ٣٠

على هامش الحركة الكتابية، من يهودية ومسيحية، قامت في الجزيرة والحجاز وخاصة في مكة، حركة توحيدية فكرية مستقلة تزعّمها قوم من المفكّرين الموحدين، لُقّبوا «بالحنفاء» . وذلك في زمن ما قبيل الإسلام الذي تميّز بفوران المشاعر والأفكار الدينية والنزعة التوحيدية الجارفة.

نتبيّن هذه الحركة التوحيدية العربية المستقلة من أَقوال الأخباريين، ومن أحاديث السيرة النبوية، وخاصة من القرآن الذي يسمّي هذه الحركة « ملة إبراهيم » : « ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (نحل ١٣٣).

*

يقول فيليب حتي: « تضعضعتِ الوثنية فخرج عليها فئة اعتنقوا نزعة توحيدية غامضة: هؤلاء الحنفاء ... مفردها حنيف وهي مستعارة من الآرامية عن طريق النبطية[1] » . ولكنَّ النزعة لم تكن غامضة، ولا الحركة مجهولة، فالقرآن صريح عن معانيها ومراميها؛ ولكن اندماجها بالإسلام، أو امتصاص الإسلام لها أَضاع علينا شيئاً من معالمها المميّزة.

---

(١) فيليب حتّي : تاريخ العرب ١ : ١٥٢ . وقد أَرجعها بعض المستشرقين إلى أصل عبراني « Tahinoth» ونلدكه إلى أصل عربي « تحنّف » يؤيده ما ذهب إليه صاحب اللسان ٤٠٢/١٠ والأغاني ٤٧/١٦ ولكن المسعودي يجعلها معرّبة من أصل آرامي سرياني وتعني عندهم في الأصل « النصرانية المنحرفة » Enc. de l'Islam: Hanif II p 275. وصفة القدح تتحول إلى مدح ، من فئة إلى فئة تعاكسها .

لقد توصلت الحركة التوحيدية الكتابية إلى دحر الوثنية العربية، وإلى القضاء على الشِرْك بمعناه الحصري، وإلى إزالة قداسة الأصنام من نفوس الحجازيين، والمكيّين والقرشيين أنفسهم؛ وإلى إعلان الدعوة الجريئة العامة، في نواديهم وأسواقهم إلى التوحيد.

وأخذ القوم يدخلون في دين التوحيد الكتابي.

ولكن هناك جماعة من العقول المستقلة أبت أن تقبل اليهودية والنصرانية كما هما؛ بل اكتفت بعبادة الله لا شريك له، مع إتباع « عادات » قومهم[١]. واتخذوا لهم إماماً قبل الإنجيل والتوراة، إبراهيم الخليل « كليم الله » ، « أَب الآباء » الذي كان على أصل التوحيد الكتابي المنتشر في العالم والجزيرة.

وهؤلاء أطلق عليهم الشعب لقب « حنفاء » لميلهم عن دين العامة؛ وارتضوا به اسماً لهم. والمسعودي يسمّي الجماعة « أهل الفترة » بين المسيح ومحمد حسب الآية « على فترة من الرسل[٢] » .

أما عزة دروزة فقد استنتج من القرآن هذه التلقينات في شأن تلك الحركة: « فهذه الآيات وأمثالها تُلهم أنَّ ملة إبراهيم ص. التوحيدية الحنيفية كانت ممّا **تتداوله الألسن** قبل البعثة وعنواناً عن الملّة المثلى لمعرفة الله وعبادته. ولقد وردت روايات عديدة عن أفراد من العرب في **مكة ويثرب** تخلّوا قبل البعثة عن تقاليد العرب الشِرْكية ووحّدوا الله. ومنهم مَن تنصّر بعد ذلك. ومنهم مَن عبد الله على ملة إبراهيم أو ما ظنه ملة إبراهيم. ومنهم مَن خرج ينشد اليقين عنهما ـ على ما ذكرناه في كتابنا (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) ـ وممّا ورد في تلك الروايات أن النبي لقي بعضهم قبل البعثة مثل زيد بن عمرو وورقة بن نوفل وأميّة ابن أبي الصلت وعبد الله بن جحش[٣] » .

*

---

(١) بلوغ الأرب ٢/١٩٦.
(٢) هذه الآيات (بقرة ١٣٥، آل عمران ٩٥ ، نساء ١٢٤، الحج ٧٨، النحل ١٢٠ ـ ١٢٣) تصف الحركة الحنيفية بأنها « ملّة » أي جماعة معروفة بطريقتها الدينية ، قبل ظهور محمد والقرآن والإسلام. وهذه الشهادة القرآنية تنقض ما ذهب إليه بعض المستشرقين (Blachère : Problème de Mahomet p 22) والإسلاميين (جواد علي ٥ : ٥٩) من أن الحنفاء كانوا أفراداً مستقلين لا جماعة معينة تربطهم طريقة معروفة. ولا نذهب مذهب سبرنكر الذي يشبههم بالجماعات اليهودية أو المسيحية B D. Is. 57 .
(٣) عزة دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣١ .

فطريقة الحنفاء كما استنتجنا هي التوحيد والزهد. والحنفاء لم يكونوا مشتتين لا تجمعهم رابطة، ولم يكونوا جماعة دينية بالمعنى الحصري. بل كانت تربطهم بعض العادات وتميّزهم وتميّز دعوتهم. وممّا كان يجمعهم أيضاً كفرهم بشرك قومهم وسخريتهم من أصنامهم وذبائحها، ثم دعوتهم إلى التوحيد التي تحملوا في سبيلها صفوفاً من الإهانات، « مِمّا حمل أكثرهم **وهم في الغالب من مكة وأطرافها**، على الفرار من بلدتهم إلى أطرافها المنعزلة الآمنة ليكونوا في أمان من إيذاء قومهم لهم[١] » .

كان يفصل بين الحكماء الموحدين والحنفاء أن الأولين كانوا عائشين مندمجين في مجتمعهم، فيما الحنفاء المضطَهَدون كانوا منعزلين يميلون إلى الزهد، والإقتداء برهبان النصارى ونسَّاكهم.

وكان يجمع بينهم أيضاً أسفارُهم إلى ديار النصرانية والاتصال بعلمائها: « وقد جعلوا وجهة أكثرهم أعالي الحجاز وبلاد الشام وأعالي العراق أي المواضع التي كانت غالبية أهلها على النصرانية يومئذٍ؛ وجعلوا أكثر كلامهم وسؤالهم مع الرهبان. وقد أضافوا إليهم الأحبار في أكثر الأحايين. وذكروا أن الرهبان والأحبار أشاروا عليهم بوجوب البحث والتأمل[٢].

وتستخلص من القرآن أن الجماعة كانت تسمى « ملّة إبراهيم » (نحل ١٣٣ بقرة ١٣٠) وتسير على « دين إبراهيم » بحسب شريعة خاصة اسمها « كلمات إبراهيم[٣] » (بقرة ١٢٤)، أو صحيفة ـ صحف إبراهيم » . وهذا مما يوحي بأن لهم ديناً معروفاً وسنة مألوفة غير سنن الجاهلية التي كانت تجمع بينهم وبين قومهم في العادات.

---

(١) جواد علي ٥ : ٣٩٩ .

(٢) جواد علي : تاريخ العرب ج ٥ ص ٣٩٩ .

(٣) كلمات إبراهيم، كما تستخلص من سورة البقرة (١٢٤ ـ ١٣٢) ، هي إمامة الموحدين المؤبدة إذ لم يُبعث بعده واحدٌ إلا كان من ذريته مأموراً بإتباعه ؛ وتطهير البيت بعد رفع قواعده ، والدعوة إلى إسلام التوحيد ، والتبشير بالنبيين بعد موسى بحسب شريعته (البيضاوي على البقرة ١٢٤ ـ ١٣٢) ؛ ولكن الأخباريين جعلوا تلك الكلمات عشراً مثل وصايا الله لموسى وجعلوها كلها أموراً جسدية تليق بالصحراء : « خمس في الرأس : المضمضة والاستنشاق وقص الشارب وفرق الرأس والسواك . وخمس في الجسد : الاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان » (جواد علي ص ٤٠) .

كل هذا يجعل من الحنيفية حركة كتابية مستقلة، سار محمد على هداها في ما بعد، وهدفُها محاربة شِرْك العرب، والتديّن الظاهر البسيط لله كما سيكون عليه الإسلام.

*

وكان الحنفاء من كل القبائل في كل أجزاء الجزيرة؛ ولكن استقلوا خاصة في الحجاز ومكة. وقد عد الأخباريون في زمرة الحنفاء: قس بن ساعدة الأيادي، وزيد بن عمرو ابن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وأرباب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيع بن سلمة الأيادي، وعمير بن جندب الجُهَني، وعدي بن زيد العيادي، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وسيف بن ذي يزن اليمني، وورقة بن نوفل القرشي وعامر بن ظرْب العدواني، وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي والمتلمّس بن أميّة الكناني وزهير بن أبي سُلمى، وخالد بن سنان بن غيث العَبْسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن أبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي[1].

كان الحنفاء، بسبب نزعتهم التوحيدية المستقلة يدخلون في النصرانية ثم من بعدُ في الإسلام، وقد يعود بعضهم إلى توحيدهم المستقل الحنفي، بدون حرج، لوحدة التوحيد بين الحركات الثلاث.

ومن الحنفاء من تنصّر وبقي على نصرانيته فيجب إخراجه من زمرتهم مثل: عدي بن زيد وأرباب بن رئاب، والقرشيين الثلاثة الذين احتضنوا محمداً يوم مبعثه: ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث.

ومنهم من درسنا سيرتهم في فصل سابق لنزعة غالبة عليهم.

ويظهر من أوصاف الأخباريين أن الحنيفية كانت حركة كتابية مستقلة، يظهر ذلك من طواف الحنفاء على ديار النصرانية، واجتماعهم برجال دينها ودخول بعضهم في النصرانية، وترجمة بعضهم (كورقة بن نوفل) أجزاء من الأناجيل إلى العربية، واستقلال بعضهم في الخلوة والزهد والتحنث. ومن الحنفاء مَن ترهب ولبس المسوح مثل النعمان بن صيفي الراهب الذي لما هاجر محمد إلى المدينة نافسه على زعامة المدينة الدينية في دعوة

---

(١) جواد علي ص٣٧٠ .
(٢) حسين هيكل : حياة محمد ٨٩ .

التوحيد. ثم خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين في المدينة أن يعدوا السلاح. وأتى قيصراً وطلب منه جنداً ليُخرج محمداً من المدينة ويستولي عليها، فمات في الشام[1].

ودعوة الحنفاء إلى التوحيد كانت أحياناً بالحكمة والموعظة الحسنة كما فعل أمية بن أبي الصلت، من ثقيف في الطائف، الذي نافس محمداً في دعوته إبَّان عهدها المكي. وأحياناً كانت « بالحديد الذي فيه بأس شديد » ، مثل سيف بن ذي يزن الذي استنصر كسرى، والنعمان ابن صيفي الراهب الذي استنصر قيصراً. ولكن دعوتهم التي قامت باستنصار الأعاجم على بني قومهم لم تقم لها قائمة فيما استنصر محمد قومه من أنصار المدينة ومهاجري مكة فدانت له الجزيرة.

*

ومن الحنفاء الذين مالوا إلى النصرانية عصبة من قريش. منهم عثمان بن الحويرث الذي منحه قيصر لقب « بطريق » وأراد تنصيبه ملكاً على مكة فأبى قومه عليه ذلك ومات بالشام مسموماً[2]. ومنهم عبيد الله بن جحش الذي هاجر مع المسلمين إلى الحبشة وتنصر فيها وكان يعيّر قومه المسلمين: « فقحنا وصأصأتم! » أي أبصرنا وأنتم تلتمسون بعد البصر[3]. وورقة بن نوفل، ابن عم خديجة بنت خويلد زوج محمد الأولى، الذي ربما تنصّر، ولكنه كان على كل حال داعية للتوحيد بالكتابة والترجمة من الكتاب والإنجيل. وللحويرث وورقة تأثير كبير على محمد عند مبعثه في تشجيعه على دعوة التوحيد كما تذكر كل السير، وذلك بسبب قرابتهم بسبب قرابتهم من خديجة التي طلبت منهم نصحهم له وتأييدهم إياه.

ومن هذه العصبة مَن بقي على حنيفيته مثل الحنيف القرشي، **زيد بن عمرو بن نفيل** من بني عدي. فارق دين قومه ودعا إلى التوحيد وهزأ بالأصنام ونهى عن قتل المؤودة وامتنع عن الذبح للأنصاب ونهى عن أكل ما أهِلّ به لغير الله وعن أكل الميتة والدم ـ وكلها تشريعات ستجد طريقها إلى القرآن. قال ابن سعد في طبقاته: « كان يُحيي المؤودة.

---

(١) يذكر صاحب (روح المعاني ٩/١١١ و ١١٢) جدال محمد والنعمان الراهب على صحة انتساب كلٍّ منهما إلى الحنيفية . قال النعمان للنبي : ما هذا الذي جئتَ به ؟ قال : الحنيفية دين إبراهيم . قال فأنا عليها . فقال : لستِ عليها ولكنك أدخلتَ فيها ما ليس منها . فقال : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً . فمات النعمان في الشام طريداً وحيداً .

(٢) ابن هشام : السيرة ٢٤٣/١ ــ الروض الأنف ١٤٦/١.

(٣) سيرة ابن هشام ١٣٨/١ .

يقول للرجل إذا أَراد أن يقتل ابنتَهُ: مَهْلاً لا تقتلْها أنا أكفيك مؤونتها: فيأخذها. فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئتَ دفعتُها إليك وإن شئتَ كفيتُك مؤونتها[1]!)) . وكان قبل محمد يتحنّف في غار حرّاء. وطوّف بأطراف الجزيرة، وانقطع إلى اليهودية والنصرانية عن طريق الرهبان والأحبار فلم يجد ضالته، وبقي مستقلاً في توحيده. وهذا الحنيف القرشي، مثل محمد، قد آذاه قومه. وكان عمه الخطاب بن نفيل يغرّر به شباب قريش وسفهاءها كي يؤذوه، ويرغموه على الاعتزال بعيداً عن مكة، في غار حراء، ويمنعوه من الاتصال بأهلها حتى يحولوا بينهم وبين دعوته. وكان يفلتُ من منفاه ومن تحنثه ويدعو أهل مكة إلى دين إبراهيم، يوحد الله ويقول : إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم. يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير الله تعالى! ـ إنكاراً لذلك واستعظاماً له[2]!

ربما أدرك زيد الإسلام. وقد رووا عنه أنه كان يسند ظهره إلى الكعبة وهو شيخ كبير ويقول: ((يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري)) لأن زملاءَه دخلوا في النصرانية أو في الإسلام وبقي هو على طريقته القديمة. ثم يقول: ((اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه. ثم يسجد على راحتيهِ[3])) . وقد حُفظ عن النبي هذا الحديث الشريف: ((يبعث أمة وحده يوم القيامة))[4] .

وظل زيد يدعو أهل مكة إلى توحيد الحنيفية، فيما محمد يتلو قرآنه، حتى مات ودُفن بأصل حرّاء.

وهكذا نرى في الحنيفية القرشية وتوحيدها وسُنَنِها، وطريقة أهلها في التحنف في غار حرّاء، نواة لسيرة محمد، ولدعوة الإسلام والتشريع القرآني.

وقد سبق محمداً أيضاً حنفاء موحدون كانوا يدعون في الكعبة إلى التوحيد مثل **المتلمّس** بن أمية الكناني. كان يقف في فناء الكعبة يخطب ويدعو ويعظ، كما فعل بعده

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٣ : ٢٧٦ .
(٢) أسد الغابة ٢٣٦/٢ وبلوغ الأرب ٢٤٨/٢ .
(٣) أسد الغابة ٢٣٦/٢ وبلوغ الأرب ٢٤٨/٢ .
(٤) سيرة ابن هشام ٢٣٩/١ ـ ٢٤٠ .

محمد في سور القرآن القصار. ومن قوله: « إنكم قد تفرّدتم بآلهة شتى وإني لأعلم ما الله راضٍ به: إن الله تعالى رب هذه الآلهة، وإنه ليحبُّ أن يُعبَدُ وحدَه » .

فتجنبه قومه ونسبوه إلى دين بني تميم[1] .

*

ودخلت الحنيفية بيت هاشم. وكان **كعب بن لؤي** من أجداد محمد موحداً وهو الذي ابتدع لحفيده محمدٍ اجتماعَ يوم الجمعة للصلاة والإرشاد. فكانت تجتمع إليه قريش في كل جمعةٍ فيعظهم ويدعوهم إلى التوحيد. وسبق القرآن في براهينه من الخليقة فكان يحمل قومه على التأمل في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، والاعتبار بما جرى للأولين والآخرين. ويحثهم على صلة الرحم وإفشاء السلام وحفظ العهد والتصدق على الفقراء والأيتام[2] .

فالحنيفية والتوحيد، والدعوة إلى التوحيد من مشاهد الكون العجيبة وتخصيص يوم الجمعة للاجتماع في فناء الكعبة للوعظ والصلاة، كل هذا كان متوارثاً في عائلة محمد ـ مع التصلب عند بعضهم في خدمة الكعبة ـ قبل ظهور القرآن.

*

وللأستاذ دروزة في كتابه (عصر النبي وبيئته) فصل قيم على مدى انتشار الحركة الحنيفية ننقله تتميماً للفائدة، قال :

« نميل إلى الترجيح بأن هؤلاء الصابئين أو الحنفاء[3] أو المتعبدين على ملة إبراهيم لم يكونوا عدداً قليلاً؛ فلو لم يكونوا **كثرة محسوسة** لما عدهم القرآن **فئة خاصة** وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل؛ ووصول أسماء نحو عشرة أشخاص إلينا في كتب كُتبتْ

---

(١) بلوغ الأرب ٢٧٧/٢ ـ ودين بني تميم كان على الأغلب النصرانية لمخالطة تميم عشائر بكر وتغلب النصرانية (Enc. de l'Islam : Tamim IV 677 a) .

(٢) طبقات ابن سعد ١/١ : ٣٩ ، قابل بلوغ الإرب ٢٨٢/٢ وراجع جواد علي ٥ : ٣٩٩ .

(٣) في الفصل المشار إليه : عصر النبي، الفصل السادس : في الحنفاء أو الصائبين ـ « يطلق عليهم تسمية الصابئين وصفة الحنفاء » ص٤٢٦ ـ ، يمزج الأستاذ الاسمين للدلالة على مفهوم واحد وحركة واحدة لوحدة المعنى في المترادفين . وفاته أن الحنفاء عرب موحدون ، والصابئين يهود أحرار موحدون من عصر الفترة بين عيسى ومحمد. وكانت لهم مناسكهم في فلسطين في القرن الأول قبل المسيح وبعده . ولما انهارت الدولة اليهودية اعتصموا بالحجاز ودعوا إلى دعوتهم التوحيدية المستقلة .

بعد قرن ونصف أو قرنين أو أكثر من روايات ظلت تتناقلها الأفواه وتحفظها الصدور طيلة هذه المدة دليل على هذه الكثرة التي نرجّحها. هذا أولاً. وثانياً إن ظهور هؤلاء في غير مكان واحد وربما في غير وقت واحد يحمل معنى ظهور فكرة جديدة أخذت تقوى في أدمغة المستنيرين من العرب في عصر النبي ص. وبيئته وهي فكرة الاتجاه إلى ما هو أقرب إلى الحق والسداد في أمر العقيدة والتقاليد الدينية. وبكلمة أخرى أن هذا يمكن أن يُعدّ خطوة أخرى عظيمة من خطوات التطور الديني والفكري التي أدت إليها **الحركة العقلية والدينية التي ظهرت قبل البعثة النبوية وقويت قُبيلها.**

« وهكذا تكون الحركة الدينية قد تدرجت عند العرب **وفي بيئة النبي ص.** من وثنية مادية وطبيعية وقوى طبيعية إلى وثنية غير مادية روحية وخفية، إلى فكرة الله والاعتراف به **إلهاً أعظم خالق الأكوان** ومديرها، مع إشراك آلهة أخرى معه ماديين وغير ماديين؛ إلى انقلاب هؤلاء الشركاء إلى شفعاء لدى الله ووسطاء، واعتبار الأوثان المادية رموزاً، **ثم إلى الاتجاه إلى الله وحده في شيء من الحيرة**، وارتقاب نذير أو نبي ينقذ من هذه الحيرة[1] » . ـ فكان هذا المنذر محمداً.

فكان محمدٌ ذروةَ تطورِ الحركة التوحيدية بين العرب، وبدء انطلاقه جديدة لها: « فإن النبي لم يخلق حركة جديدة بقدر ما بعث تيارات كانت موجودة في أيامه لدى العرب ووجّهها هو توجيهاً جديداً[2] » .

*

وهكذا وُلدَ محمد في بيت يعرف الحنيفية والتوحيد: ثم عاش **في بيئة تدعو إليهما؛ وتزوّج في بيئة تنتمي إليهما.**

رأينا أن كعباً بن لؤي، من أجداد محمد، كان حنيفاً موحداً، وصورة مصغّرة لحفيده الآتي. واسم التوحيد القرآني « الله » كان شائعاً في العائلة يتباركون في حمله. فوالد محمد اسمه: عبد الله. فهذا الاسم المركب يعني أن الله كان معروفاً باسمه ومعبوداً في توحيده عند آباء محمد. فلم يكن عبد المطّلب ليعطي ابنه اسم « عبد الله » لو لم يكن يؤمن به؛ ولما شب عبد الله لم يكن ليتمسك باسمه لولا إيمانه بالله.

---

(١) دروزة : عصر النبي ٤٣٢ .
(٢) برنارد لويس : العرب في التاريخ ٦٣ .

فقد ترعرع محمد في هذه البيئة التوحيدية. وذكروا أنه كانت تربطه باميّة بن أبي الصلت قرابة عن طريق آمنة أم النبي. وبعد زواج محمد من خديجة بنت خويلد صارت تربطه نسابة بورقة بن نوفل، ابن عم خديجة، ذاك الحنيف المتنصّر (؟) الذي ترجم الإنجيل إلى العربية، وكذلك إلى الحويرث الذي شاء بواسطة قيصر أن يفرض التوحيد النصراني على مكة وأخفق.

وتأثير مبادِئ الحنيفية، وطريقتها في الزهد والاعتزال والتحنف في غار حراء تظهر في سيرة محمد قبل البعثة على ما نقلته كل السير وسائر الأخباريين. ومن هذه المصادر ومعارضتها مع آيات القرآن الكريم توصل المفسر العصري محمد عزة دروزة إلى هذه النتيجة:

« والذي نعتقده وهو ما وصلنا إلى استنتاجه وتقريره أيضاً في كتابنا (عصر النبي وبيئته) ونرى أن الآيات القرآنية تلهمه: أن النبي ص. كان من **هؤلاء الأفراد** الذين أَنِفُوا من تقاليد الآباء الشِرْكية والجاهلية واعتنقوا فكرة **التوحيد** وأخذوا يعبدون **الله على ملة إبراهيم** ص. أو ما ظنوه كذلك، أو أخذوا يبحثون عنها. ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية لما رأوا من انحراف أهلهما واختلافهم وتفرقهم شيعاً متنازعة. **وإنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه.** وإن اقترانه بالسيدة خديجة رضي الله عنها ساعده على التفرغ لاتجاهه وحياته الروحية هذه الحياة التي كان من مظاهرها تلك الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية في رمضان وفي غار حراء خاصة[1] ... إلى أن خصه الله بفضله فاصطفاه دون غيره من أهل طبقته لما علمه فيه من مواهب عظمى جعلته أهلاً للرسالة، وهو أعلم حيث يجعل رسالته[2] » .

فالحنيفية ولدت محمداً؛ ومحمدٌ دمجها بالتوحيد الكتابي ونشرها باسم الإسلام.

---

(١) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣١ ـ إذن الاعتكاف والصوم والصلاة في شهر رمضان عادة حنيفية أخذها القرآن عن الحنفاء وفرضها على المسلمين أجمعين : فصوم رمضان كان قبل القرآن .
(٢) الآية ٦٨ من آل عمران تميز الذين اتبعوا إبراهيم عن النبي والمؤمنين : مما يشعر بأن الحنفاء لم يمتزجوا بالإسلام ولو اتبع القرآن خطتهم في تأسيس الأمة الوسط .

الفصل التّاسع

الحنيفية والإسلام

« **قل هداني ربي إلى صراط مستقيم : ديناً قيماً ، ملة إبراهيم، حنيفاً، وما كان من المشركين** » (أنعام ١٦١)

لقد أدّى نشر التوحيد الكتابي في ديار العرب، ولاسيما في الحجاز حيث تسرّب من أطراف الجزيرة، إلى قيام حركة توحيدية مستقلّة، ألا وهي الحنيفية[١].

وكان التوحيد الحنفي كتابيّاً ينحو منحى دين قومي عرب يمزج فكرة التوحيد بعادات العرب وشعائرهم.

إنها « تعريب » التوحيد الكتابي (من التوراة إلى النبيين إلى الحكمة إلى الزّبور إلى الإنجيل) على ما كانت تقتضيه بيئة الحجاز البدائية.

ومن يتلُ القرآن يجد قرابة صميمة قوية بين الحنيفية والإسلام. ففيما نسمع القرآن يقول: « ثم أوحينا إليك أن اتّبع **ملة إبراهيم حنيفاً** وما كان من المشركين » (نحل ١٣٣)،

---

(١) نعتبر الحنيفية حركة كتابية مستقلة . ويميل العلامة شيخو في كتابه (النصرانية وآدابها في عرب الجاهلية ١ : ١١٩) إلى اعتبار الحنيفية شيعة نصرانية . ونحن لا نؤيده في ذلك رغم إيمان الحنفاء بالمسيح وأمه . ولكن ، بسبب هذا الإيمان عينه ، وبسبب استقبال الحنفاء بيت المقدس في صلاتهم ، وبسبب اعتمادهم الكتاب والنبيين أكثر من الإنجيل ، يميل بعض من كتبوا في هذا الشأن إلى حشرهم في زمرة « اليهود ـ النصارى » الذين لم يقبلوا باستقلال النصرانية عن اليهودية كما كان يدعو إليه القديس بولس ، بل أرادوا دمج النصرانية باليهودية والموافقة بينهما . ويوم خراب القدس سنة سبعين وبعدها رحلوا إلى ديار العرب والحجاز واستوطنوا هناك ونموا في دائرة ضيقة . وكانوا يعتمدون إنجيلاً منحولاً للقديس متى يجعل يسوع ابن يوسف: وهي تهمة يثور القرآن عليها وينقضها في كل مواقفه ؛ وبتسميته على الدوام يسوع « بابن مريم » يتحدى دائماً اعتقادهم الفاسد (ايريناوس : ضد الهرطقات ١ : ٢٦ و ٣ : ١١ و ٤ : ٣٣ و ١٥ : ٢١).

نسمعه يقول في موضع آخر على لسان نبيّه: وأمرتُ أن أكون من **المسلمين** » (أنعام ١٤)، بل « **أول المسلمين** » (١٦٣)؛ ثم ننتقل من مكة إلى المدينة، ومن حالة التردّد والحيرة إلى حالة الركون والصراحة فنسمعه يعلن الوحدة التامة بين الحنيفية والإسلام: فكلاهما ملة واحدة قائمة بنفسها تجاه اليهود والنصارى والمشركين: « ما كان إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكن كان **حنيفاً مسلماً** وما كان من المشركين » (آل عمران ١٩ و٨٨). والإعلان على دفعتين زيادة في التوكيد.

ونشاهد تطور هذه العقيدة في خمس سور مكية وخمس سور مدنية، تتعاقب ما بين هجرة محمد إلى الطائف وانتصار المسلمين في معركة بدر.

بدأ محمد، قبل بعثته حنيفاً مستقلاً؛ ويظهر في القرآن المكي حنيفاً كتابيّاً.

١ـ إن أول إشارة إلى الحنيفية نجدها في سورة يونس (٥١ في تاريخ النزول[١]) ترينا الوحدة القائمة بين الدعوات الكتابية والحنيفية والقرآنية: « قل: يا أيها الناس، إن كنتم في شكٍّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم. وأُمِرْتُ أن أكونَ من **المؤمنين**؛ وأن أقِمْ وجهك للدين **حنيفاً** ولا تكوننَّ من المشركين » (١٠٥ ـ ١٠٦). فالدعوة إلى الله دون سواه هي الحنيفية. والحنيفية هي إيمان المؤمنين الذين أُمِرَ بأن يكون منهم. وهؤلاء الحنفاء المؤمنون هم أهل الكتاب الذين ينتسب في قرآنه إليهم: « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن **تصديق** الذي بين يديه **وتفصيل** الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (يونس ٣٧ [٢]). وتصديق الكتاب وتفصيله هو الجمع بين الحنيفية وتوحيد الكتاب. وهذا هو إسلام بني إسرائيل الذي دان به فرعون قبل غرقه: « قال: آمنتُ إنه لا إِله إلاَّ الذي آمنتْ به بنو إسرائيل؛ وأنا من المسلمين » (يونس ٩٠).

٢ـ ومحمد لا يرى فرقاً بين الحنيفية والإسلام وتوحيد التوراة والإنجيل، لأن الحنيف هو الذي لا يُشرك بالله : « إني وجهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » (أنعام ٧٩).

---

(١) راجع الإتقان للسيوطي ـ وسيرة الرسول لدروزة ١ : ١٣٦ .
(٢) يونس ٣٧ : لقد نزل القرآن تصديقاً للذي بين يديه أي قبله من الكتب (الجلالان) ، مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها. وتفصيل الكتاب أي تفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع (البيضاوي) .

فلقد كانت اليهودية في مزاميرها خاصة تدعو إلى الصراط المستقيم أي دين الله، والنصرانية تدعو إلى الدين القيّم[1] أي دين الله والمسيح، والحنيفية تدعو إلى ملة إبراهيم أي الإسلام والتسليم لله وحده لا شريك له، وحَّدها محمد في قوله: « قل: هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيِّماً، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (أنعام ١٦١). وهذا النص الآخر بجعل من الثلاثة الإسلامَ لله رب العالمِين: « قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين » (أنعام ١٦٣) أي من هذه الأمة (الجلالان) لأن إسلام كل نبيّ متقدّم على إسلام أمّته (البيضاوي) فالإسلام في هذه السورة هو توحيد الحنيفية والكتاب، لا تمييز بينهما على الإطلاق. وإذا قارنَّا الآية ١٦١ من الأنعام بالآية ٩٠ من السورة عينها رأينا أن الصراط المستقيم والدين القيّم وملة إبراهيم الحنيف هي هدى الكتاب وأنبيائـِه: « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكمَ والنبوّة ـ فإن يكفر بها هؤلاء (مشركو مكة) فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ـ أولئك الذين هدى الله: فبهداهم اقتدِ » (٨٩ ـ ٩٠) فإلى هدى الكتاب اهتدى محمد، وبه يؤمر أن يقتدي.

٣ـ وفي سورة النحل وهي (٧٠ في تاريخ النزول) نجد إبراهيم أول حنيف ومحمد آخرهم: « إن إبراهيم كان أمَّةً (إماماً) قانتاً لله، حنيفاً ولم يكُ من المشركين، شاكراً لأنعمه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ... ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (نحل ١٢٠ ـ ١٢٢) ولكن هذه الحنيفية هي الإيمان بالكتاب، فإذا شكّ المكيون في ذلك فليسألوا أهل الكتاب: « فسْئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزُّبُرِ. وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم لا يتفكرون » (٤٣ ـ ٤٤)؛ وإن إحالة السامعين على أهل الذكر، العلماء بالتوراة والإنجيل (الجلالان)، لتوحي بأن محمداً يتفق معهم بإيمان واحد في الذكر الأول. ووحدة الاسم (الذكر) بين الكتاب والقرآن تدل أيضاً على وحدة الدعوة والإيمان بين الكتابيين، « المؤمنين » الأولين، والمسلمين: « قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت

(١) الدين القيم (أنعام ١٦١، بينة ١ ـ ٦) هو الإيمان الأرثذكسي كما وصفه يوحنا الدمشقي أي الصراط المستقيم .

الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (١٠٢): فالقرآن إذن تثبيت للمؤمنين الأولين وهدى للمسلمين.

٤- وفي سورة إبراهيم (وهي الثانية والسبعون) يصرح إبراهيم في دعائه إلى الله أن مَن تبعه فإنه منه، لذلك يدعو محمد أهل مكة إلى حنيفية إبراهيم الكتابية ليكونوا جديرين بجدّهم خليل الله في الدين والقومية: « وإذ قال إبراهيم: ربِّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام. ربنا إنهن اضللنَ كثيراً من الناس: فَمَن تبعني فإنه منّي، ومَن عصاني فإنك غفور رحيم » (٣٥ ـ ٣٦) ـ إنها شهادة متواترة في القرآن بأن أكثرية أهل مكة على الشرك، ولكن هناك مَن لم يزَلْ على التوحيد الإبراهيمي: فمن كان على هذا التوحيد فإنه «مِن » إبراهيم.

٥- وفي سورة الروم (وهي الثالثة والثمانون) يعلن محمد أن هذا التوحيد الذي يدعو إليه مع أهل الكتاب والذكر هو الدين القيّم، وهو الحنيفية التي فُطِر الناس عليها: « فأقم وجهك للدين حنيفاً **فِطْرَتَ** الله التي فَطَرَ الناس عليها ـ لا تبديل لخلق الله ـ ذلك الدين القيّم لكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠).

ففي جميع الآيات المكية يأتي ذكر الحنيفية مقروناً بالتوحيد الكتابي كأنه لا فرق بينهما: والنبي الحنيف يعلن بصراحة كاملة إيمانه بالكتاب الذي نزل من قبل لأن الدين واحد من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد: « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا وإليك ـ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ... وقل آمنتُ بما أنزل من كتابٍ ! وأُمِرْتُ لأعدل بينكم. الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم! لا حجة بيننا وبينكم! الله يجمع بيننا وإليه المصير » . (١٣ ـ ١٦): فمحمد يعلن إيمانه وإيمان جماعته بالكتاب، وبالتوحيد الواحد بينه وبين الكتابيين لأنه دين جميع الأنبياء.

ويختم محمد كرازته في مكة بإعلان الوحدة الدينية بين أتباعه والكتابيين: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن ـ إلاَّ الذين ظلموا منهم ـ وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » (عنكبوت ٤٦): وحدة الإله، ووحدة التنزيل ووحدة الإيمان والدين. ويؤكد أيضاً وحدة الكتاب الجديد والقديم ووحدة الإيمان بهما: « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب

يؤمنون به ... بل هو (القرآن) آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم » ، أهل الكتاب الأول (٤٧ ـ ٤٩).

فالحنيفية في القرآن المكّي، ملةُ إبراهيم، هي التوحيد الكتابي كما نزل من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى النبيين إلى عيسى إلى محمد. لذلك لم يجد هذا الحنيف الجديد حَرَجاً أن يعرِّج على النصرانية، ثم على الموسوية، وان يعود بعد لأيٍ إلى حنيفيتِهِ المستقلة، وقد دمجها بالتوحيد الكتابي، عند الهجرة إلى المدينة.

*

كانت الهجرة النبوية إلى المدينة انقلاباً في الداعي وفي الدعوة وطريقتها.

١ـ ففي الفترة التي سبقت الهجرة، بعد رجوع محمد خائباً من الطائف، أخذ يميل في توحيده إلى الاستقلال عن أهل الكتاب، ويظهر ذلك في السور المكية الأخيرة (كالعنكبوت مثلاً). وهذا التوحيد المستقل هو الحنيفية التي أخذ محمد، منذ سورة البقرة، يُحييها ويميّزها عن اليهودية والنصرانية: « وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! ـ بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (بقرة ١٢٥).

ثم جعل محمد يفكّر في تأسيس الحنيفية، ملةً توحيدية كتابية عربية مستقلة كملّتي الكتاب: وكذلك جعلناكم **أمة وسطاً** لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً (بقرة ١٤٣). يريد أن يجعل هذه الأمة الجديدة الموحِّدة « وسطاً » بين الكتابيين والأمّيين أي مشركي العرب الذين لا كتاب لهم (الجلالان) كما ستصرّح به آية آل عمران: « وقل للذين أُوتوا الكتاب والأميّين: أَأَسلمتم؛ فإِن أسلموا فقد اهتدوا وإِن تولوا فإنما عليك البلاغ » (٢٠).

ولكن، على ما تقوم هذه « الأمة الوسط » ؟ إِنها تأخذ عقيدتها عن الكتابيين وتشترك مع أنبياء الكتاب في صحة التوحيد: « قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط: وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (بقرة ١٣٦). وتأخذ شرائعها عن القومية العربية: ففي سورة النساء يوضح القرآن أنه كان يهدي بسنن أهل الكتاب ثم عدل عنها إلى عادات قومه ليخفف عنهم: « يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ... يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (٢٥ ـ ٢٧)

وهذا الاستقلال العربي في التوحيد والتشريع عن اليهود والنصارى لا ضير فيه لأن التوحيد من إبراهيم قبل الإنجيل والتوراة، فلا سبيل إلى الحجاج: « قل أتحاجوننا في الله ، وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ونحن له مخلصون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى؟ قل أأنتم أعلم أم الله؟ ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله ! وما الله بغافل عمَّا تعملون » (بقرة ١٣٩ ـ ١٤٠).

وشعار الاستقلال في قبلة الصلاة.

كانت القبلة المحمدية في مكة إلى بيت المقدس مثل أهل الكتاب. ولما استقل عنهم في المدينة عاد إلى قبلة قومه نحو الكعبة ولمَّا تُظهر بعد: قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها: فولّ وجهك شطر المسجد الحرام؛ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره» (١٤٤) وكانت وحدة التوحيد بين محمد وأهل الكتاب تظهر، في مكة من خلال وحدة القبلة، وإذا الاستقلال، في المدينة، يظهر في اختلاف القبلة، شعار الملة « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة » (١٥٠). فبدت هذه الظاهرة الجديدة « كبيرة » على بعض الكتابيين: « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ ... وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » (١٤٣).

ويُظهر لنا القرآن أن هذا التغيير والاستقلال والانقلاب لكان لمصلحة محمد الشخصية: « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه » (بقرة ١٤٣)؛ ولمصلحة أمته: « ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلّكم تهتدون » (١٥٠) لأن هذا الاستقلال في « الأمة الوسط » يعطيهم كياناً دينيّاً مستقلاً: « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلّمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (١٥١) وهذا الاستقلال العربي في التوحيد لا يعني انفصالاً عن توحيد الكتاب، فقد « آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله: لا نفرّق بين أحد من رسله » (بقرة ٢٨٥)؛ والقبلة والتشريعات الثانوية لا تضير وحدة التوحيد بينهم (١٧٧).

٢ـ وفي سورة البقرة حتى واقعة بدر استقل محمد بالحنيفية العربية الإبراهيمية «أمة وسطاً » . وبعد واقعة بدر وظهور سلطان المسلمين، بدأ محمد يدعو إلى توحيد مِلل التوحيد الكتابي تحت اسم التوحيد الجديد الذي احتكره، أي « الإسلام » . وكان في

مكة يدعو إلى توحيد الآلهة فأمسى في المدينة يدعو إلى توحيد الكتابي: « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنّ مسلمون » (موحدون: الجلالان في آل عمران ٦٤).

وما هذا « الإسلام » سوى الحنيفية الإبراهيمية العربية التي تقبل أنبياء الكتاب جميعاً ولا نفرّق بين أحد منهم، من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد، فجميعهم في التوحيد المنزل سواء. وقد شهد الله بذلك، وشهد الملائكة والكتابيون أهل العلم المنزل أنفسهم: « شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم ـ قائماً بالقسط ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم: إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم (آل عمران ١٨ و١٩). اختلفوا معه حول هذا التوحيد الإبراهيمي هل هو توحيد الكتاب: فأجاب بأن الحنيفية أو الإسلام هما التوحيد الإبراهيمي التوراتي النبوي الإنجيلي: « قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وما أوتي موسى وعيسى من ربهم: لا نفرق بين أحد ونحن له مسلمون: ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (آل عمران ٨٤ و٨٥). فلا بد حجة في ذلك: « فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني ... » (٢٠).

فالإسلام من إبراهيم، لأمراء في ذلك، وهو الدين الحنيف: « يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون: ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به عِلمٌ فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون: ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين » (آل عمران ٦٦ و٦٧ [٢]). كانت ملة إبراهيم في مكة إسلام التوحيد الكتابي، فصارت في المدينة، بعد بدر طائفة مستقلة في ذاك التوحيد المنزل تنتسب مباشرة إلى إبراهيم من فوق الإنجيل والتوراة. وصار عيسى وموسى وإبراهيم مسلمون.

لذلك فالمسلمون العرب أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى لأن الإسلام هو الحنيفية

---

(١) لاحظ أن القرآن يرفع شهادة أهل الكتاب بالتوحيد إلى مرتبة شهادة الملائكة والله عز وجل .
(٢) كان إبراهيم في مكة من المؤمنين ، فصار في سورة البقرة حنيفاً (١٢٥) ، وأمسى في آل عمران مسلماً (٦٧) .

الكتابية الإبراهيمية: « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه (الحنفاء) وهذا النبي (محمد) والذين آمنوا (المسلمون) والله وليُّ المؤمنين » (آل عمران ٦٨). وإسلام الحنيفية أفضل أمم التوحيد: « قل صدق الله، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (٩٥) والأمة التي على هذه الحنيفية هي خيرُ الأمم: « كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس » (١٠٩).

وهذا الإسلام الحنفي الذي لا يقبل الله ديناً غيره (آل عمران ٨٥) هو هدى الكتاب الذي مَنَّ الله على العرب المسلمين: « لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مُبين » (آل عمران ١٦٤).

٣ـ وفي سورة النساء يصرُّ على توحيد التوحيد الكتابي ويدعو إليه أهل الكتاب والمسلمين أنفسهم: « يا أيها الذين آمنوا، آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزَّل على رسوله والكتاب الذي أنزلَ من قبلُ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً (نساء ١٣٥). لأن الأصل هو التوحيد لا الملـّة: « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب: مَن يعملْ سوءاً يُجزَ به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً، ومَن يعمل من الصالحات، من ذَكَرٍ أو أنثى ـ وهو مؤمن ـ فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً » (نساء ١٢٢ ـ ١٢٣). ومع ذلك فأفضل مِلـَل التوحيد ملةُ إبراهيم، الحنيفية أي الإسلام: « ومَن أَحسنُ ديناً ممَّن أسلم وجهه لله ، وهو محسن، واتَّبع ملة إبراهيم حنيفاً، واتخذ اللهُ إبراهيم خليلاً» (نساء ١٢٤).

٤ـ فطلبوا منه البيّنة على أفضلية توحيده على سائر مِلـَل التوحيد الكتابي: « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة: رسول من الله يتلو صحفاً مطهَّرة فيها كتبٌ قيّمة » (بينة ١ ـ ٣) فيجيب: لقد جاءَتهم هذه البيّنة في القرآن فهو صحف مطهَّرة فيها كتبٌ قيّمة تدعو إلى الحنيفية، دينِ القيّمة: « وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة: وذلك دين القيّمة » (بينة ٥)؛ وإذ كان اليهود يدعون التوحيد التوراتي بالصراط المستقيم في زَبورهم، والنصارى يدعون التوحيد الإنجيلي بالدين القويم[1] يقول القرآن بأن التوحيد الذي

(١) الدين القويم ، أو الإيمان القويم هو الأرثذكسية كما يفصلها يوحنا الدمشقي في القرن الثامن في موسوعته « ينبوع المعرفة » .

أمروا به في كتُبهم المنزلة هو إسلام الحنيفية، دينُ القيّمة الذي ينشده المخلصون من اليهود والنصارى والعرب الحنفاء[1].

٥ـ ولكنه في سورة الحجّ، (متبعّضة[2])، يميل إلى الاعتدال فيفوّض أمر الملـّة الفضلى إلى الله: « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ... إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » (١٧) لأن الأصل الذي لا غنى عنه في الدين هو الابتعاد عن الشِرْك والتحنّف لله: « فاجتنبوا الرجْسَ من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله ، غير مشركين به: ومَن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » (٣١). وهذا هو الإسلام الذي يدعو إليه الكتاب والقرآن: وجاهدوا في الله حق جهاده: هو اجتباكم ـ وما جعل عليكم في الدين من حرج ـ مِلة أبيكم إبراهيم. هو سماكم المسلمين من قبلُ وفي هذا[3] ليكون الرسول عليكم شهيداً وتكونوا شهداء على الناس » (٧٨).

ويختـَتِمُ القرآن، في العهد المدني، على استقلال النبي في إسلام الحنيفية الكتابية: نزل يوم عرفة عامَ حجة الوداع (الجلالان): « اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً » (المائدة ٤). واستقلال المسلمين في شريعة قرآنهم لا يمس استقلال اليهود في شريعة توراتهم (٤٧) ولا استقلال النصارى في شريعة إنجيلهم (٥٠) لأنه « أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ... لكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أُمّةً واحدة؛ ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات » (مائدة ٥١). فقد كرّس القرآن نهائياً استقلال الشرائع الثلاث التوحيدية، ومساواتها في التوحيد مع أفضلية الحنيفية وهيمنة القرآن. وخُتم القرآن كما افتـُتح (في سورة البقرة ٦٢) بإعلان المساواة في عقيدة التوحيد بين أُمَم التوحيد المنزل كلها: « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى: مَن آمن بالله واليوم الآخر

---

(١) هل لنا أن نتوسع في المعنى ونقول : كانت فرق النصرانية الثلاث : الملكانية واليعقوبية والنسطورية تدّعي كل واحدة لنفسها الصراط المستقيم في دين المسيح، وتنسب لنفسها الأرثذكسية في الإيمان على أن عندها دين القيمة ـ فيقول القرآن لهم جميعاً أن دين القيمة في الحنيفية ويحددها بأنها الإخلاص لله في الدين والعبادة (بينة ٣).

(٢) متبعّضة : أي بعض آيها مكي ، وبعضه مدني .

(٣) حج ٧٨ « من قبل أي من قبل القرآن في الكتب المتقدمة، وفي هذا القرآن » البيضاوي.

وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (مائدة ٧٢). فالاستقلال بالشريعة ليس انفصالاً في العقيدة لأن عقيدة التوحيد واحدة في الكتب المنزلة الثلاثة كما جمعها القرآن في آخر سورة نزلت منه في خواتيمها: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن: ومَن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (توبة ١١٢).

وهكذا فإسلام القرآن هو الحنيفية العربية التي اهتدت في محمد إلى هدى الكتاب (أنعام ٩٠). وهذه الحنيفية القرآنية هي « تعريب » التوحيد الكتابي[1] في « أمة وسط » (بقرة ١٤٣) وتشريعٍ وسط (نساء ٢٥ ـ ٢٧).

---

(١) قال أحدهم : « إن النبي لم يخلق حركة جديدة بقدر ما بعث تيارات كانت موجودة لدى العرب في أيامه ووجها هو توجيهاً جديداً » (العرب في التاريخ ٦٣) .

الفصل العاشر

موقف محمد مـن أَديان الجزيرة

وتطور السيرة النبوية والدعوة القرآنية

« **قل هداني ربي إلى صراط مستقيم، دينا قيما، ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين** » أنعام ١٦١

« **إن الدين عند الله الإسلام** » **من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد .** آل عمران ١٨ ـ ١٩ و ٨٤ ـ ٨٥

« **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سـواء بيننا وبينكم** » آل عمران ٦٤

محمد، النبي العربي، مثل موسى وداود، شخصية دينية من الطراز الأول .

لقد مرت حياة محمد الفكرية[1] بخمسة عهود تركت لها أَثراً بارزاً في القرآن. وهي بأجمعها ترينا ما كان موقف محمد من أَديان شبه الجزيرة ، وكيف تطورت السيرة النبوية والدعوة القرآنية حتى انتهى به المطاف إلى إنشاء « أمة وسط » (بقرة ١٤٣) بين الكتابيين والمشركين من العرب، ختمها بدعوة أُمم التوحيد الكتابي إلى « كلمة سواء » (آل عمران ٦٤) في الإسلام.

*

(١) تجد التفصيل في كتابنا: « حياة محمد الفكرية » ـ وهو قيد الإعداد للطبع.

عهد ما قبل البعثة: « ألم يجدك ضالاً فهدى » (ضحى ٧).

نشأ محمد في بيئة كتابية رغم مظاهر الشرك المحيطة به. ولم يُسمَّ أبوه عبد الله إلاَّ لان الله معروفاً في قبيلته، معبوداً في بيته. وترينا السيرة محمداً الفتى يقتدي بالحنفاء منذ صباه، في أسفاره مع جده، فيتصل بالرهبان والأحبار يسألهم عن الدين والتوحيد.

ولمَّا شب وتزوّج تثقف في بيئة حنفية. فكان يسمع إلى الحويرث من ذوي قرابته يدعو إلى المسيحية، وإلى ورقة بن نوفل، ابن عمه، يدعو إلى الحنيفية المتنصرة، ويسمع إلى إشعار قس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت تجوب الحجاز وتحوم حول الكعبة تدعو العرب بلغتهم الفضلى، الشعر، إلى توحيد ربهم.

وفي سورة الضحى يرسم لنا صورة هذا العهد قبل مبعثه بقوله: « ألم يجدْك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى » (٧ ـ ٨). وفيها يقول الأستاذ دروزة: نلفت النظر إلى آية الأنعام (١٦٢) لنقول إن الآية توحي بأنه كان في نفس النبي ص. قبل البعثة شيء من الحيرة في الملـّة، أو في ملة إبراهيم فهداه إليها. ولعل هذا ما أُريد الإشارة إليه في آية سورة الضحى (٨) التي هي من أقدم السور نزولاً ... ولذلك لا يكون من التجوز أن يقال إن النبي ص. قبل بعثتِهِ كان من أولئك الأفراد الذين تخلوا عن عقائد آبائهم ولم تسترح نفوسهم إلى النصرانية واليهودية ورأوا أن الحق القويم في توحيد الله توحيداً لا شائبة فيه ولا تأويل وفي عبادته على ملة إبراهيم الحنيفية، ولم يخلصوا **مع ذلك من حيرة ما في أمر هذه الملة**. والذين كان يطلق عليهم تسمية الصابئين وصفة الحنفاء[1] » . كانت هذه الهداية الأولى إلى الحنيفية العربية. ثم أخذ في حيرته يبحث مثل الحنفاء عن التوحيد الحق. ويميل إلى التحنف والخلوة والزهد. ويتصل بأهل الكتاب ويسمع منهم.

---

(١) محمد عزة دروزة : عصر النبي وبيئته قبل البعثة ٤٢٦ ـ يقول الأستاذ « إن الصابئين والحنفاء شيء واحد أو طبقة واحدة ... يطلق عليهم تسمية الصابئين وصفة الحنفاء » . ـ والجمهور على أن الصابئين غير الحنفاء : فالحنفاء كما يقول هو « من مستنيري عرب الحجاز الذين تخلوا عن دين الآباء الشركي ووحدوا الله ولم يستريحوا إلى اليهودية والنصرانية » (٤٢٦) . والصابئون شيعة يهودية لها تقاليد ومراسيم خاصة ، ويقول عنهم الشهرستاني إنهم كانوا يصلون ثلاثاً، ويتطهرون من الميت، ويحرّمون الخنزير، ويمنعون الختان والزوجتين . والقرآن يذكرهم بين أهل الكتاب النصارى واليهود : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم » (الجلالان : طائفة من اليهود والنصارى ـ بقرة ٦٢) وفي المائدة (٧٢) يصفهم بأنهم « فرقة من اليهود » ـ وبما أن عندهم العماد فربما كانوا من تلاميذ يوحنا المعمدان .

وتنقل لنا جميع السير أخبار اتصال محمد بالأحبار والرهبان في أسفاره ونخص بالذكر منهم الراهب سرجيوس بحيرا. والاتصال الحي بواسطة البيئة والسماع أفعل وأنفذ من الاتصال بواسطة الكتب والآثار، خصوصاً في بيئة بدائية. « وقد وصلنا في الاستدلال في الفصل الثالث من الباب الأول إلى القول بوجود جالية أعجمية نصرانية في مكة، وباحتمال وجود جالية أعجمية نصرانية في يثرب أيضاً. وبترجيح وجود **عرب متنصرين** مستقرين في بيئة النبي ص. وعصره أيضاً[1] » . « فإن التأثيرات الروحية أقل تجاوباً إذا صدرت من كتاب إلى كتاب ممّا إذا حصلت عن طريق اعتناق الآراء التي تملأ البيئة وتنتقل بواسطة الاتصال الحي، ولاسيما إذا كانت موضوع اختلاف قوي الحيوية في الأفكار، وبرزت إلى الصف الأول من الاهتمام[2] » . ظلّ في اتصال واختلاء حتى اهتدى أخيراً إلى توحيد الكتاب: « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا: وإنك لتـهدي إلى صراط مستقيم ... **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** » (شورى ٥٢ و٥٣) « **وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين** » (يونس ١٠٤). وهذا الإيمان الجديد هو الهداية إلى الصراط المستقيم. فعاد من رحلاته وانعكافاته إلى مكة وقد تملكه شعور قوي بأن الله يدعوه، وتدفعه قوة خارقة للإنذار (العلق، المدثر) فانخرط كما أُمِرَ مع المؤمنين (يونس ١٠٤) أهل الكتاب الذي آمن به (شورى ١٥) وأخذ يتلو القرآن ويدعو إلى الإيمان بالله واليوم الآخر.

*

العهد الأول في مكة: الدعوة لليوم الآخر والتأثير المسيحي.

يمتد هذا العهد منذ البعثة (٦١٠ أو ٦١٢) حتى الهجرة إلى الحبشة (٦١٥).

منذ سورة العلق حتى سورة مريم التي قرأها جعفر بن أبي طالب على النجاشي،[3] وسورة طه التي كانت سبب إسلام عمر بن الخطاب.

في هذه الفترة كانت الدعوة سريّة وإفرادية. تخللها أحياناً فتور في الوحي القرآني، في مدة (سورة الضحى) تتراوح على اختلاف الروايات بين الأيام والأشهر والسنين إذ تصل في بعضها إلى ثلاث سنين[4] » .

---

(١) دروزة : عصر النبي ٤٥٢ .
(٢) جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ١٧٣ ترجمة الأزهر.
(٣) السيوطي : الإتقان ١ : ١٩ .
(٤) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٢٨ .

كانت الدعوة القرآنية في هذا العهد إصلاحية اجتماعية، والحافز لها الإيمان باليوم الآخر والإنذار به وما ينتظر البشر من وعد ووعيد: « كلا! بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين! وتأكلون التراث أكلاً لمَّا وتحبون المال حباً جماً (أعلى ١٦ ـ ١٧) وإن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » (الليل ٥ ـ ٧) والحسنى « فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة » (البلد ١٢ ـ ١٦).

وبعد فتور « الوحي » تجدّد بقوة يأمره بأن « ينذر عشيرته الأقربين » (شعراء ٢١٤): تروي السير والتفاسير أنه لما نزلت « وانذر عشيرتك الأقربين » صعد على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي ... لبطون قريش حتى اجتمعوا إليه فقال لهم: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ألكنتم مصدّقيَّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد! فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم! ألهذا دعوتنا؟ » . فالقرآن والحديث والسيرة أجمعت أن الدعوة القرآنية الأولى كانت للإيمان باليوم الآخر. ولم يكن موضوع التبشير القرآني الأولي « الله » لأن التوحيد كان شائعاً بينهم.

وهذه بالذات كانت الدعوة المسيحية، من شرقية وغربية، في أعالي الحجاز ومشارف الشام، وسائر البلاد السورية وعلى الخصوص دعوة الرهبان الذين كانوا يجوبون البلاد السورية والعربية يدعون إلى الزهد والصلاة والتقوى والصلاح والإحسان، منذرين الناس بأهوال اليوم الآخر. ونلمس آثار هذه الدعوة ونفوذها بين العرب، من قبائل العرب التي كانت تتوافد زرافات وحدانا إلى مقام السروجي أو برج سمعان العامودي في شمال البادية السورية، كما تتنقل اليوم من نجد إلى ضفاف الخابور. فتبعهم « النبي الأمي » في مطلع بعثته في مكة. والسور المكية الأولى، كما سنراه، دعوة عارمة إلى الزهد والصلاة والإحسان، مع ترهيب وترغيب بذكر الوعيد والوعد في اليوم الآخر : « إن إلى ربك الرجعى: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى ... أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ... (العلق ٨ ـ ١٢) « يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً ... إن لك في النهار سبحاً طويلاً، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً » (المزمل ١ ـ ٨) ـ « كلا! والقمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، إنها لإحدى الكبر، نذيراً للبشر ... كلا بل لا يخافون الآخرة، كلاّ إنها تذكرة » ـ (المدثر ٣٢ ـ ٣٦ و٥٣ ـ ٥٤) ـ « كلاّ بل تكذبون بالدين ... وما

أدراك ما يوم الدين! ثم ما أدراك ما يوم الدين: يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذٍ لله (الانفطار ٩ و ١٧ ـ ١٩).

ونلمس الأثر المسيحي في القرآن، في العهد الأول المكي، من هذه الدعوة للإيمان بيوم الدين. لم تكن دعوةً عربيةً فإنهم يكذبون باليوم الآخر ويوم الدين. ولم تكن دعوة يهودية لأنها لا ترد في التوراة والأنبياء الأولين. بل هي دعوة مسيحية يقوم بها الرهبان المتجولون مثل بحيرا الذي لقيه محمد، وصاحب « حزورة مكة » . ونصل إلى اليقين، في الحادث الأول من سيرة النبي العربي في توجيه هجرة جماعته إلى الحبشة المسيحية هرباً من اضطهاد قومه لهم: فلو لم يكن بين المسلمين والأحابيش وحدة إيمان لما دفعهم محمد إلى الهرب إلى النجاشي، ولما رضي هو بذلك وأَمِنَ. وقد أودعهم دستور إيمان مسيحي في المسيح وأمه، في سورة مريم. وهو القصص المسيحي الأكبر في مكة، وهو بدء القصص القرآني المفصّل. وسورة مريم الأصيلة[1] لا يقولها إلاّ مسيحي أو من كان تحت التأثير المسيحي القوي.

العهد الثاني بمكة: الدعوة للتوحيد في القصص القرآني، والتأثير الإسرائيلي.

اهتدى عمر بن الخطاب إلى الدعوة القرآنية، فأعزّ الله الإسلام بعمر وكان زعيماً متنفّذاً في قريش ومكة. فرجع المهاجرون من الحبشة. وتوسع محمد في الدعوة. ومال إلى بني إسرائيل أكثر فأكثر. لم يجد النصرة الكافية عند المسيحيين في بلاده وخارجها لدعمه في دعوة قومه إلى التوحيد الخالص، لأن نفوذهم في الحجاز كان محدوداً، ولأن المسيحيين كانوا فيه جاليات قليلة. بينما كان اليهود جاليات قوية كثيرة ذات نفوذ أدبي وديني وبما أنهم كانوا أعداء دين الدولة عند الروم فكانوا عملاء الفرس في مهاجرهم العربية، وبعد احتلال الفرس لليمن زادت شوكتهم وغزوا الحجاز بنفوذهم، من الحيرة ومن اليمن، فأخذ محمد أكثر فأكثر يدعو إلى التوحيد الكتابي.

ونشعر بنفوذ التأثير الإسرائيلي في القسم الثاني من السور المكية في تقديم الدعوة للتوحيد على الدعوة لليوم الآخر. فالإيمان بالله ، وأسمائه الحسنى قبل الإيمان باليوم الآخر.

---

(١) في سورة مريم نص أصيل (١٥ ـ٣٣) أضيف إليه نص متأخر ، بفاصلة مختلفة (٣٤ ـ٤٠) يحد من الإطراء الأول .

ويدخل في الدعوة القرآنية عنصر جديد: القصص القرآني، وهو إذا ما قوبل بالكتاب، تراه توراتياً تلمودياً، وصله عن طريق السماع: وهذه طريقة أفضل تدل على مدى تأثيرها في البيئة.

يغيب ذكر المسيح وأمه، وتظهر أخبار الأنبياء الأولين.

وتشعر بكرامة لا مثيل لها لبني إسرائيل والاستشهاد بعلمائهم وشهادتهم له. إنه يستشهد بعلمائهم: « أَو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل؟! » (شعراء ١٩٧). ويشهد لهم: « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة[١]، ورزقناهم من الطيبات، وفضّلناهم على العالمين » (جاثية ١٦). محمد يمجد دائماً موسى: « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه. وجعلناه هدى لبني إسرائيل. وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » (سجدة ٢٣) وبقي على هذا الاعتبار حتى أول العهد بالمدينة: « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وإني فضلتكم على العالمين » (بقرة ٤٧).

وهكذا جاءت دعوة محمد في مكة إلى التوحيد كتابية. كان فيها أقرب إلى طريقة أهل الكتاب، وإلى شعائرهم واستقبال قبلتهم. وظل كذلك طالما بقيت السيدة خديجة الزوج الوفية على قيد الحياة وابن عمها ورقة بن نوفل، الحنيف المتنصر. ولا أثر لخلاف في السور المكية مع أهل الكتاب. بل بالعكس ينتسب محمد في تعليمه إليهم، ويستشهد بهم، ويطمئن على صحة تنزيله لديهم. ولم يكن المحيط الحجازي يتطلب من أهل الكتاب دعوة أصرح من التوحيد البسيط . وسار محمد على هداهم « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ... أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتدِ » (أنعام ٩٠).

والكتاب الذي يتلوه محمد على العرب، القرآن الكريم، يعتبر نسخة عربية عن الكتاب الذي أنزل من قبل بغير لغة العرب، فما كانوا يقرؤونه، وكانوا عن « دراسته » غافلين: « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين » (أنعام ١٥٦). وجاءَ القرآن ليبيّن للعرب ما نزّلَ إليهم من قبل لعلهم يتفكرون: « فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر: وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون » (نحل ٤٣ ـ ٤٤). ويتخذ الكتاب إماماً

(١) الكتاب في لغة القرآن ، وعند يهود العرب هو التوراة حصراً (جاثية ١٦ وسجدة ٢٣ أحقاف ١٢) . « الحكم » في هذه الآيات تعبير عبراني سرياني بقي على لفظه الأعجمي ، والمقصود به « الحكمة » .

للقرآن: « ومن قبله كتاب موسى « **إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدِّق لساناً عربياً** » (أحقاف ٩ ـ١٢). ويستشهد طيلة العهد ببني إسرائيل « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » (أحقاف ١٠) « فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (أنبياء ٧) وأهل الذكر هم العلماء بالإنجيل والتوراة (الجلالان). وإذا شك محمد من نفسه ومن تعليمه فليسترشد عند أهل الكتاب: « فإن كنت في شك مما أوحينا إليك فسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤). وما ذلك إلاَّ لأن التوحيد واحد، والكتاب واحد، وأمّة التوحيد واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة » (أنبياء ٩٢). لقد نزل الكتاب على محمد قرآناً عربيّاً ليفهموه: « تلك آيات الكتاب المبين: إنا أنزلناه قرآنا عربيّاً لعلكم تعقلون » (يوسف ١ ـ٢). وجاء القرآن تصديقاً للكتاب وتفصيلاً عربيّاً له: « وما كان هذا القرآن أن يُفتَرى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (يونس ٣٨).

وفي هذا العهد اقتصر التوحيد القرآني على نقل التوحيد الكتابي إلى العرب في صورة بسيطة: الله هو خالق السماوات والأرضين وما فيهما من معجزات. وتأليفاً للجماعات الموحّدة من اليمن إلى الحجاز إلى البلقاء إلى تدمر، جمع أسماء الجلالة في صيغ موحّدَة: الله (في الحجاز) هو الرحمن (في اليمن) الرحيم (في الشمال). الله أكبر (في مكة) هو رب البيت (في البتراء) ورب العالمين (في تدمر). وجمعها في وصف يوحدها: لا إله إلاَّ هو. يقتصر الوحي كله على التوحيد.

كان عمل القرآن المكي التوحيدي على جبهتين: مع المشركين: توحيد الآلهة في الله لا إله إلاَّ هو: « أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب » (ص٥). ومع العرب الموحدين المستقلين: في توحيد أسماء الجلالة في صيغ موحَّدة لتأليفهم: فاستفتح سور قرآنه منذ الفاتحة «بسم الله الرحمن الرحيم » .

فاستفحل أمر النبي، وخشي زعماء قريش على مركزهم الديني الاجتماعي فازدادوا اضطهاداً لمحمد، كلما ازداد هو دعوةً لملته: حتى اضطروه إلى هجرة ثانية شخصية إلى الطائف يستنجد بيهودها حيث كانت لهم السيطرة والزعامة مثل يثرب، وآل ثقيف الذين كان أمية بن أبي الصلت يدعوهم بشعره إلى توحيد الحنفاء. فما وجد لديهم استجابة ولا مِنعة وردّوه رداً غير جميل.

العهد الثالث في مكة: عهد الاستطلاع نحو الاستقلال والهجرة.

رجع محمد من الطائف في قلق ويأس من قريش ومن أهل الكتاب جميعاً: قريش تطارده، وما وجد عند أهل الكتاب منعة له من أذى قومه.

وهذه الحيرة، وهذا الاضطراب يظهر أثرهما من اضطراب الأسلوب في السور الأخيرة بمكة، وتنوّع أساليبها.

أخذ محمد يتطلع نحو الاستقلال عن أهل الكتاب والاعتصام بهجرة نهائية تقيه أذى قومه.

في هذه الأثناء كان يغزو مواسم الحج إلى التوحيد القرآني، ويفد إلى أسواق العرب يتصل بمن يستطيع أن يمنعه من أذى قريش. فوجد ضالته عند قوم من أهل يثرب.

كانت يثرب في ضيق وجهاد من داخل ومن خارج. كان عرب يثرب متضايقين من زعامة اليهود الدينية والثقافية والتجارية خصوصاً[1]، ويتطلعون إلى التخلص منهم كما يبدو من نص وثيقة بيعة العقبة.

وكانت يثرب، وعربها الأوس والخزرج من أصل يماني، في سجال مع مكة وزعامتها التجارية والدينية على الحجاز. وكانوا يودون مغالبة هذه الزعامة والتغلب عليها. فوجدوا ضالتهم في محمد الذي كانت تضطهده قريش محافظة منها على زعامتها ومنافع الحج إلى البيت العتيق.

*

اجتمع وفد منهم بمحمد، ثم تفاوضوا مع قومهم وعقدوا معه بيعة العقبة الصغرى؛ أخيراً أوفد أهل يثرب ممثلين عنهم إلى محمد فعقدوا معه بيعة العقبة الثانية « على حرب الأحمر والأسود من الناس » : تدل تعابير هذه الوثيقة على أنها معاهدة عسكرية أكثر مما هي دينية.

فهاجر محمد إلى يثرب، التي تصبح مدينة الرسول، هجرته الكبيرة والثالثة التي تعد بحق بدء التاريخ الإسلامي.

(١) في تفسير الخازن ١ : ١٠٧ رواية عن ابن عباس أن أهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ولهم فضلٌ عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعالهم .

العهد الأوّل في المدينة: تأسيس « الأمة الوسط » على الحنيفية الكتابية في عهد الدفاع المسلّح.

دامت فترة الاستقلال عن أهل الكتاب من الهجرة إلى الطائف (٦٢٠) حتى معركة بدر (٦٢٤) المظفرة، وكانت نقطة التحول والانطلاق في السيرة النبوية والدعوة القرآنية تلك الهجرة الكبرى إلى المدينة (٦٢٢).

نلمس حركة الانتقال في أواخر السور المكية حيث نشب جدل بين جماعة محمد وأهل الكتاب فحسمه بكلمة واحدة: « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن ... وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء (أهل مكة) من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلاَّ الكافرون » (عنكبوت ٤٥ ـ٥٠) وتصف سورة العنكبوت هذه، الاضطهاد الأخير في مكة لمحمد وجماعته، ودعوة المسلمين إلى الهجرة.

منذ الهجرة إلى المدينة بناءً على معاهدة العقبة، استقل عن أهل الكتاب وأخذ يدعو في المدينة إلى إنشاء « أمة وسط » بين المشركين العرب والكتابيين، من يهود ونصارى « وتعيين هذه السنة نقطة تحوّل وثورة في رسالة محمد ... وقد أثر التغيير بالضرورة في شخصية الإسلام وتعاليمه وأعماله[1] » .

كانت الدعوة القرآنية في مكة **كتابية** من كل نواحيها فأمست في المدينة **قومية عربية** بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

لم يجد في انتمائه إلى النصارى في أول العهد بمكة سنداً على هداية قومه، لقلة صولتهم في الحجاز وخصيصاً في مكة، ولعدم فائدة الاتصال بهم في الخارج كما جرى بالهجرة إلى الحبشة. ثم لم يجد فائدة بالانتماء إلى اليهود في العهد الثاني بمكة لأنهم كدخلاء يحتكرون ثروات البلاد كانوا مكروهين كما ظهر من هجرته الشخصية إلى الطائف ـ فاضطرته ظروف السماء والأرض إلى التعاهد والتعاقد مع بني قومه من المدينة ـ وله فيهم عصبيات الخؤولة ـ فكانت الهجرة إليهم، والتطور عندهم في دعوته، والنصرة بهم على قريش والعرب. وما عتم أن اصطدم مع يهود المدينة بدس من منافقي العرب وعلى رأسهم عبد الله بن أَبَيْ الذي أخذ محمد ينازعه زعامته على يثرب.

---

(١) العرب في التاريخ ٥٥ و ٥٨ .

كان الدافع المباشر إلى هذا التحول المفاجئ اصطدام محمد مع المتزعمين في المدينة من اليهود. فتركهم وترك شعائرهم واستقل عنهم استقلالاً كاملاً: استقل عنهم في الدين والتوحيد بتأسيس « أمة وسط » قومية عربية: « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (بقرة ١٤٣). وكان الحنفاء الذين تربّى على طريقتهم قبل البعثة قد شقوا له الطريق إلى هذا التفكير والتدبير: فكانت هذه الملة الوسط تلك الحنيفية القومية، التي لقحها بالتوحيد الكتابي. وظهر التوحيد الكتابي في يثرب قومياً عربياً على طريقة الحنفاء.

ثم أخذ يهمل شيئاً فشيئاً شعائر أهل الكتاب ليتقرَّب من سُنن قومه لإيلافهم، وبقصد التخفيف عنهم[1]: « يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سُنن الذين من قبلكم ... يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (النساء ٢٥ ـ ٢٧). ففي السنة الثانية للهجرة ترك قبلة بيت المقدس واستقبل في قبلته كعبة مكة، فصارت البيت الحرام في الإسلام كما في الجاهلية: « قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينـّك قبلة ترضاها: فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام. وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (بقرة ١٤٥) فاعترض المنافقون عليه فأجاب: « سيقول السفهاء من الناس: ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ ـ قل لله المشرق والمغرب يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم » (بقرة ١٤٣).

وهذه الأمة الوسط الجديدة احتفظت بنفس الأحكام السارية قبل الإسلام في مسائل الملكية الزواج والصلات بين الأفراد. وحلت العقيدة محل الدم كرابطة اجتماعية. وتحول مصدر السلطة من الرأي العام أو تنفـّذ الفرد أو العائلة إلى الله الذي جعل النبي رئيس هذا الدين وهذه الدولة الناشئة. في مكة كان محمد يعتبر نفسه « بشيراً ونذيراً » فصار « رسول » هذه الأمة « ونبيّها » (بقرة ١٠٩).

وكان لا بد لهذه الأمة من حماية عسكرية من داخل المدينة ومن خارجها فنزلت شريعة الجهاد وفصلت تفصيلاً طيلة العهد المدني، في التحريض على القتال، وحلّ مشاكل الحكم العملية وتوزيع الغنائم وما شاكل ذلك.

وارتبط الدين الجديد، في الأمة الوسط، بإبراهيم جد الأنبياء والموحدين: « وقالوا

---

(١) من هذه الفترة آية في سورة الأعراف : « الذين يتـّبعون الرسول النبي الأمّي ... سيحلّ لهم الطيبات ويضع عنهم أصْرهم والأغلال التي كانت عليهم » ١٧٦ .

كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ـ بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ›› (بقرة ١٢٥). وصار إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل بناة الكعبة، ومؤسسي التوحيد العربي، قبل الإنجيل والتوراة (آل عمران ٦٤ ـ ٦٧): وتم الاستقلال والانفصال باختيار يوم الجمعة للصلاة العامة الرسمية، لا السبت أو الأحد.

وجاءَت معركة بدر، في آذار ٦٢٤ معجزة سماوية ثبّتت الجماعة الجديدة في خطتها وفَرَضَتِ احترامها على الجميع: وكانت نقطة البداية لنوع جديد ونهائي من الوحي القرآني.

العهد الثاني من المدينة: ‹‹ كلمة سواء ›› على الإسلام، مع أهل الكتاب، في عهد الهجوم المسلّح.

بعد انتصار بدر (٦٢٤) والخندق (٦٢٧) وفرض هيبة النبي والمسلمين على الجوار كانت الخطرات الدينية التوحيدية من حنيفية ومسيحية ويهودية قد تجوهرت وتناسقت وانسجمت في نظرة عامة شاملة لتاريخ الوحي والتوحيد من إبراهيم إلى موسى إلى داود إلى عيسى إلى محمد في وجدان ‹‹ النبي الأمّي ›› وتبلورت في هذا المبدأ الشامل الكامل، والجامع المانع: ‹‹ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة، وأولو العلم ـ قائماً بالقسط ، ـ لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام ›› (آل عمران ١٨) وصار التوحيد في معناه الحصري إسلام الوجه لله على طريقة إبراهيم: ‹‹ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ›› (نساء ١٢٤).

وهذا الإسلام هو دين جميع الأنبياء، وهو دين الله ، لا دين غيره: ‹‹ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزِل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم **لا نفرّق بين أحد منهم،** ونحن له مسلمون: ومَن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ›› (آل عمران ٨٤ و٨٥) فصار إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط مسلمين، وصار موسى وداود وسليمان والنبيّون كلهم مسلمين، وصار المسيح ورسله الحواريون مسلمين: وهكذا وحَّد القرآن بين اليهودية والمسيحية والحنيفية في نظرة شاملة كاملة محورها التوحيد الكتابي الحنيفي أو الإسلام.

وأخذ يدعو أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الاتفاق على هذه العقيدة، والالتفاف حولها تجاه مشركي العرب: ‹‹ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيني وبينكم ألاّ

نعبد إلاَّ الله ، ولا نشركْ به شيئاً ولا يتخذْ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله! فإن تولوا، فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون ›› (آل عمران ٦٤). وهذه الكلمة السواء تقتضي من النصارى أن يكفوا عن تأليه المسيح، ومن اليهود أن يقبلوا المسيح ومحمد في جملة أنبياء الكتاب، وهكذا تتفق كلمتهم على التوحيد الخالص، ولا يفرّقون بين أحد من رسله (بقرة ٣٦ آل عمران ٨٤ نساء ١٦٣).

وإسلام التوحيد هذا قبل الإنجيل والتوراة، من إبراهيم، جد العرب والأنبياء: ‹‹ يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون؟ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً[١]. وما كان من المشركين ›› (آل عمران ٦٥). ومحمد والمسلمون أولى بإبراهيم من أهل الكتاب: ‹‹ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه (الحنفاء) وهذا النبي (محمد) والذين آمنوا (المسلمون) والله ولي المؤمنين ›› (آل عمران ٦٨).

ولكن هذا الانفصال عن أهل الكتاب في الملـّة، لا يعني في العقيدة. فسورة المائدة، من آخر العهد المدني، تقرّ آل موسى على شريعتهم (٤٧ ـ ٤٨) وآل عيسى على شريعتهم (٤٩ ـ ٥١) وآل محمد على شريعتهم (٥١). ويختم بهذا المبدأ الجامع المانع ‹‹ لكلٍ منكم جعلنا شرْعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة. ولكن ليبلوكم في ما آتاكم: فاستبقوا الخيرات ›› (٥١). وفي خاتمة سورة التوبة، آخر ما نزل من القرآن، يجمع بين التوراة والإنجيل والقرآن على صعيد واحد في الجهاد في سبيل الله ، التوحيد، ‹‹ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ›› (١١١).

فهذا التوحيد العام هو إسلام محمد، لفظ جديد لمعنى عتيق: ‹‹ هو سماكم المسلمين من قبل (في الكتاب) وفي هذا ›› (في القرآن) (الحج ٨٧).

كان في مكة توحيداً كتابيّاً، فصار في المدينة توحيداً كتابيّاً حنيفياً أَي قوميّاً عربيّاً.

كانت الدعوة إليه بمكة سِلمية ‹‹ بالحكمة والموعظة الحسنة ›› على طريقة الحواريين رسل المسيح؛ فصارت في المدينة عسكرية ‹‹ بالحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس ›› (سورة

---

(١) هذه الآية تدل على التطور القرآني في موقف محمد من أهل الكتاب : كان إبراهيم في السور المكية مؤمناً (أعراف ١٤١) ، فصار في سورة البقرة حنيفاً (١٢٥) وأمسى في آل عمران مسلماً (٦٥) .

الحديد ٢٥) على طريقة اليهود في افتتاح فلسطين على يد موسى ويشوع وداود وسليمان.

كان الهدف الوحيد في مكة الدين والتوحيد، فصار الهدف في المدينة الدين والأمة أي الدولة الدينية.

فموقف محمد من أديان شبه الجزيرة تصفه هذه الآية التي توحّد في الإسلام بين الحركات الدينية الثلاث التي كانت تتطاحن في مكة والحجاز على نشر توحيدها: « قل هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيّماً، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (أنعام ١٦١) فالإسلام هو السراط المستقيمة التي في التوراة والزبور، وهو الدين القيم الذي كانت تدّعيه فرق النصارى، وهو ملة إبراهيم التي كان يسير عليها حنفاء مكة والحجاز. لقد عمل محمد في مكة على توحيد الآلهة، وتوحيد أسماء الله الحسنى، وعمل في المدينة على توحيد أديان الكتاب وتوحيد التوحيد كله في الإسلام: « إن الدين عند الله الإسلام » ، لذلك « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم[1] » .

---

(١) سورة آل عمران من أوائل العهد المدني ولكن هذا الفصل منها (٣٣ ـ ٦٤) يرجح نزوله في أواخر العهد بالمدينة ، في عام الوفود يوم قدوم وفد نجران على النبي : يوحي بذلك إنه طيلة العهد بالمدينة لم يقم بين محمد والنصارى ، خصام بل دام بينهم عهد المودة إلى سورة المائدة (٦٤) حينئذ فقط جرى جدال مع الوفد على موقف القرآن من نبوة عيسى ودعوة النصارى إلى (كلمة) سواء .

الفصل الحادي عشر

هل للقرآن من مصادر؟

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك: إذاً لارتاب المبطلّون!
ـ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » أهل الكتاب .
عنكبوت ٤٨ ـ ٤٩

المصدر الأول للقرآن هو الله ، مبدإ كل شيء. وهذه عقيدة إيمانية عند المسلمين لا كلام فيها ولا جدال.

ولكن هذه العقيدة لا تمنع البحث في المصادر الثانوية، التي قد يكتسبها النبي بشتى الطرق، بصفته ابن بيئةٍ يتجسّد فيه وفيها التنزيل. « وما دامت المعارف الكثيرة التي تعلمها النبي ص. بطريق الوحي والتنزيل الرباني لا تتعارض مع احتمال وحقيقة اكتسابه كثيراً من المعارف المتنوعة عن غير طريق الوحي لا سيما قبل بعثته، فإننا لا نرى في عدم كتابة النبي ص. وقراءَته ما يحاول أن يراه بعض علماء المسلمين أيضاً للتدليل على دعوى أنه لم يكتسب شيئاً من المعارف اكتساباً خارج نطاق الوحي: لأن هذا غلواً لا نرى له محلاً، ولا إليه ضرورة في صدد كرامة النبي ص. وعظمة شأنه وقدره. فوق ما فيه من التناقض مع طبائع الأشياء[١] » .

هذا من حيث المبدأ. ومن حيث الواقع فقد جاءَ في (أسباب النزول) عن عمر بن الخطاب أَنه في الحادثات « ما قال وقالوا، إلاَّ نزل القرآن على ما قال عمر[٢] » .

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٤٧.
(٢) نزيد على ذلك أن العلماء اختلفوا في هل نزل القرآن بالمعنى والحرف معاً أم بالمعنى فقط . جاء في الإتقان : « في المنزل على النبي ثلاثة أقوال : أحدها إنه اللفظ والمعنى . والثاني إن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه ص. علّم تلك المعاني وعبّر عنها بلغة العرب . والثالث إن جبريل ألقى إليه المعنى وإنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب » . الإتقان ١ : ٤٤ .

والاكتساب لا يكون ضرورةً بالقراءَة والكتابة. فالاتصال الحي بواسطة البيئة، وعن طريق السماع، أبلغ وأوغل. والنبي، ابن بيئته، قبل أن يكون نبيّاً. ولا مندوحة له من التفاعل مع بيئته والانفعال بها. ولا يتعارض الوحي مع الكسب البشري. نرى ذلك في التوراة والأنبياء والحكمة والإنجيل والقرآن.

وليس على المؤمن في درس هذه المصادر البشرية الثانوية من حرج. فالوحي لا يمنع الكسب العلمي السابق أو اللاحق. فقد يعرف النبي شيئاً ويأتي الوحي فيأتلف معه وينزل به. وقد يعرف النبي شيئاً بالوحي ثم يختبره في حياته وبيئته فيضيف الخبرة إلى الوحي. والقول بأن النبي اكتسب من جهة من الجهات شيئاً ثم نزل به القرآن لا يتعارض مع عقيدة الوحي.

وليس في هذا من غضاضة على كتب الله. ويدرسون علاقة النبيين والحكمة بالتوراة والزبور. ويدرسون انتساب الإنجيل إلى الكتاب. فلا حرج من درس مصادر القرآن الثانوية.

فهل للقرآن من مصادر؟ ـ يصرح القرآن بكل لحن أن مصدره الكتاب المقدس.

بحث أول: القرآن يقول عن نفسه بأن له مصادر

ويعلن عن هذه المصادر منذ السور المكية الأولى، بتصريحات متواترة:

تصريح أول: إن القرآن في زبر الأولين.

فهو يصرح بأن القرآن من الكتاب: ففي سورة (الأعلى)، بعد أن ذكر توحيد الخالق الأعلى، والآخرة التي هي خير من الحياة الدنيا وأبقى (١٦ و١٧) يقول عن هذا التعليم: « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » (١٨ و١٩). ـ فهل أوضح وأصرح من هذا الإعلان عن مصارده؟!

ويعود في سورة (النجم) إلى مثل هذا الإقرار: « أولم ينبّأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى » (٣٧ ـ ٤٠). فهو يصرّح بأن تعاليمه الخاصة وتعليمه العام هي من الكتاب المقدس، وأنه هو ونبيّه « نذير من النذر الأولى » (النجم ٥٦).

وفي سورة (الشعراء) يجمع أنواع مصادره في مقطع واحد نستدلّ منه على تفاعل هذه المصادر في محمد والقرآن: « وإنه لتنزيل رب العالمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، وانه لفي زُبُر الأولين: ألم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » أي « إن ذكر القرآن المنزل على محمد لفي كتب الأولين كالتوراة والإنجيل » (الجلالان) فآية محمد الأولى إذن هي مطابقة قرآنه للكتاب، وآيته الثانية استشهاده بعلماء بني إسرائيل وشهادتهم له بصحة هذه المطابقة.

ولكن ما الصلة بين التنزيل القرآني ووجود القرآن في زُبُر الأولين؟ هذا هو سرّ محمد! فهل أفصح عنه بقوله: « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل » ؟ فيكون من ثم إنه نزل في زُبر الأولين بلغة أعجمية يجهلونها وغفلوا عن دراستها، ثم وصل إلى محمد بواسطة علماء بني إسرائيل فأنذر به محمد بلسان عربي مبين: فأصل القرآن منزل في زُبُر الأولين.

وعندما يهاجم المعارضون محمداً قائلين « تقوّله وأعانه عليه قوم آخرون » (فرقان ٤) إنما يعنون النـَّظْم العربي، لا التعليم نفسه. وهو فيما يردُّ دعواهم من حيث نظمه المبَين لا ينفي اتصاله بعلماء بني إسرائيل؛ فكأنهم يقولون: تقوّله في نظمه وأعانه في تعليمه هؤلاء القوم الآخرون، حتى وصل إلى أصله المنزل في زُبر الأولين. وإذ قال في سورة طه: «وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه! ـ أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » (١٣٣) أبان لهم ما في الكتاب، وهذه هي معجزته ـ .

وفي سورة (القمر) يكرر قائلاً: « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر (١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠)؛ ثم يؤكد: « ولق أهلكنا أشياعكم فهل من مذكّر: وكل شيء فعلوه في الزُّبـُر، وكل صغير وكبير مستطر » (٥١ ـ ٥٣)؛ ثم يتحدّى: « أكفـَّاركم خير من أولئكم أم لكم براءَة في الزُبر » ؟ (٤٣) فهذا الاستشهاد وهذا التحدي يوحيان بصلة القرآن بمصدره الكتابي: زبر الأولين (أي صحفهم أو كتبهم).

---

(١) يقوم الجدل منذ أجيال وأجيال عند أهل التوراة وأهل الإنجيل وأهل القرآن حول الوحي والتنزيل هل هو بالمعنى فقط ، أو هو بالمعنى واللفظ أيضاً . وعندنا إن مَن يقول بأن التنزيل بالمعنى لا بالحرف ليس بكافر . وهكذا تنسجم نظرية القرآن في أن الوحي والتوحيد واحد في التوراة والزّبُور والحكمة والإنجيل والقرآن ، مع تصريحه بأن القرآن في زُبر الأولين (قابل في الإتقان : أقوالهم في كيفية الإنزال والوحي ١ : ٤٤ ـ ٤٥) .

تصريح ثانٍ: الاتصال بالكتاب وأهله

والقرآن كله يزخر بمثل هذه التصريحات: فمنذ سورة القلم (الثانية في ترتيب النزول) يقول: « والقلم وما يسطرون ... أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ ما لكم كيف تحكمون؟ أم لكم **كتاب فيه تدرسون:** أن لكم فيه لما تَخَيَّرون » (١ و ٣٥ ـ ٣٨)، فالمسلمون يَفْضلون المشركين بأن لهم كتاباً فيه يدرسون، وفيه يختارون التعليم والقصص، وهذا من قبل أن يصير القرآن كتاباً؛ فما هو إذن ذاك الكتاب الذي يدرس فيه محمد والمسلمون؟ هل هو غير كتاب الزُبر الذي بيد اليهود والنصارى؟

ويزيد هذه الصلة صراحة بقوله: « أم عندهم الغيب فهم يكتبون[1] » ، منه ما يقولون، كما يكتب هو، أو يكتتب ما يقول! وهكذا تفسّر الآيات مطلع السورة حيث يُقْسم بالقلم وما يسطرون به من الكتاب. فهذا كله يوحي بأن لمحمد وقرآنه صلة مصدرية بالكتاب وأهله. وهذا معنى اعتراض زعيم زنيم ذي مال وبنين: « إذا تُتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين » أي القرآن أحاديث أهل الكتاب (٨ ـ ١٥). ففي قوله وقولهم تلميح ضمني إلى أن القرآن مسطور بالقلم من الكتاب الذي يحوي الغيب وفيه يدرس؛ ويلتقي بكتاب موسى بواسطة أئمته الذين به يهدون: « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (سجدة ٢٣).

ونقرأ في سورة (لقمان) هذا التعجب: « ومن الناس مَن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ! (٢٠). فهل يجادل محمد المشركين بعلم وهدى الكتاب المنير؟

تصريح ثالث: دراسة الكتاب

يتعجب المشركون العرب من تعليمه في شأن الآخرة، فيستشهد بأهل العلم المنزل فيشهدون أنه على الحق: « وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد؟ أفترى على الله كذباً أم به جِنَّة ؟! ـ ويرى الذين أُوتوا العلم[2] الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » (سبأ ٦ – ٧).

---

(١) « أم عندهم الغيب (اللوح أو المغيبات) فهم يكتبون منه ما يحكمون ويستغنون به عن علمك » (البيضاوي) .
(٢) مؤمنو أهل الكتاب (الجلالان) .

أهي موافقة، أم إعانة، أم دراسة ؟ يظهر أنها دراسة أعانته من قوله: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات، قالوا: ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم. وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى. وقال الذين كفروا للحق لمّا جاءَهم :إنْ هذا إلا سحر مبين » ! ويجيب على هذه الأقاويل: « وما **آتيناهم من كُتُب يدرسونها** ... وما يصاحبكم من جِنّة، إن هو إلا نذير لكم » (سبأ ٤٣ ـ ٤٦) ـ فلا يجوز لهم أن يتهموه بالإفك والسحر والجِنة، فما عندهم كتب يدرسونها مثله؛ وهل (يعني هذا) إلا أنه درس وأنذر ؟؟

فأجابوه في الحال: « وقال الذين كفروا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه » (٣١) أي بالكتب التي سبقته، مدلّلين بذلك على أنهم يشهدون على دراسته وعلى موافقة القرآن للكتاب.

وفي سورة (الشورى) مقطع يلهم صلة الدرس التي غفل عنها العرب فأتمها لهم محمد: « ثم آتينا موسى الكتاب، تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه، واتقوا لعلكم ترحمون: أن تقولوا إنما أُنزِل الكتاب على طائفتين[1] من قبلنا وإنْ كنا **عن دراستهم** لغافلين. أو تقولوا لو أنَّا أُنزل الكتاب علينا لكنَّا أهدى منهم! فقد جاءكم بيّنة من ربكم وهدى ورحمة » (١٥٤ ـ ١٥٥). فهذه السور (الشورى وسبأ والانعام) تعني بوجهٍ صريح أن محمداً درس الكتاب المنير، كما أكّده له المعارضون، وأنذر به العرب.

لذلك يردّ عليهم جميع التهم إلا تهمة الدرس فلا جواب لها: « وكذلك نصرّف الآيات، وليقولوا: « دَرَسْتَ » ! و لِنُبَيِّنَه لقوم يعلمون » (أنعام ١٠٥) أي ذاكرت أهل الكتاب ، (وفي قراءة) درستَ أي كتب الماضين وجئتَ بهذا منها (الجلالان[2]).

تصريح رابع: الاستشهاد بأهل الكتاب

إن استشهاد محمد بأهل الكتاب يملأ القرآن إلى الدفة: يستشهد بهم على صحة وحيه ونبوّته ورسالته وقرآنه وتعليمه. وهذا الاستشهاد بهم يبدأ من سورتي العلق

---

(١) « إنما نزل الكتاب على طائفتين من قبلنا : اليهود والنصارى ولعل الاختصاص في « إنما » لأن الباقي المشهور من الكتب السماوية لم يكن غير كتبهم » (البيضاوي) ـ ونجيب البيضاوي بعد أجيال : لا تضيع الكتب المنزلة فالله يحفظ ذكره كما قال القرآن : « إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ! فلم ينزل غير كتب اليهود والنصارى قبل القرآن .

(٢) أنعام ١٠٥ لها عشر قراءات (راجع البيضاوي) والمتواتر منها ما نقله الجلالان . والآية التالية « اتبع ما يوحي إليك من ربك وأعرض عن المشركين » ١٠٦ لا تتعارض والدرس .

والقلم وينتهي في سورتي المائدة والتوبة، آخر ما نزل من القرآن (البخاري). إن عنده دلائل عدة على صدقه ولكنها في سَيْرِ سورة عابرة؛ أمّا البرهان الدائم فإنما هو الاستشهاد بأهل الكتاب؛ وهذا الاستشهاد الدائم بهم ألا يحمل معنى الرجوع إلى المصدر، الذي يقدّره العرب كل التقدير؟

في مطلع سورة الأنبياء يجمع أسرار نجواهم ويرد عليها: « وأسرّوا النجوى الذين ظلموا[1]: هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ـ قال: ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ـ بل قالوا: أضغاث أحلام، بل افتراء، بل هو شاعر: فليأتنا بآية كما أرسل الأولون. ـ وما آمنَتْ قبلهم من قرية أهلكناها، أفهم يؤمنون. وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم: فَسْئَلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١ ـ ٨)؛ ترى أن الجواب الأول لا يقنعهم؛ وعندما أستشهد بأهل الذكر (الكتاب) سكتوا ولم يحيروا جواباً: فلم يتخلص من اتهاماتهم إلا بالتجائه إلى أساتذته من أهل الكتاب.

وفي سورة (النحل) يحيل سامعيه إلى أهل الكتاب ليستوثقوا منهم صحة تعليمه: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم: فَسْئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزُبُر. وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكّرون » (٤٣ ـ ٤٤). يقول: «اسألوا العلماء بالتوراة والإنجيل إن كنتم لا تعلمون ذلك فإنهم يعلمون وأنتم إلى تصديقهم أقرب » (الجلالان). فلئن كانوا يجهلون المعجزات المنزلة، والكتب المقدسة فهو يعلمها، لذلك يحيلهم على مَن تعلمها منهم ليسألوهم ويتحققوا ذلك منهم: فالذِكْرِ الجديد تبيان إلى العرب لِمَا في الذكر القديم؛ واسم واحد « الذكر » يجمع بين الكتابيين، دلالةً على وحدتهما، وتبعيّة الجديد للقديم، وانتسابه له. والعرب المشركون يعلمون هذه الصلة المصدرية ولذلك يقولون له: « إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطير الأولين » (٢٤).

وهناك حالة ثالثة هي أصعب الحالات على وجه الإطلاق، نريدُ إحالة النبي على أساتذته من أهل الكتاب ليوطّد إيمانه، ويُطمئن نفسَه، في ثورات الشك التي كانت تنتابه : «فإن كنتَ في شك ممّا أنزلنا إليك فَسْئَل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك:

---

(١) لاحظ أن الفاعل على لغة « أكلوني البراغيث » !

لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين، ولا تكوننّ من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين)) (يونس ٩٤). يقول: ((إن كنتَ يا محمد تشك فيما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون التوراة من قبلك فإنه ثابت عندهم يخبروك بصدقه فلا تكوننّ من الشاكين فيه)) . (الجلالان). فإحالة محمد نفسه على أهل الكتاب ليزيل شكوكه عندهم دليل قاطع لا مردّ عليه أنهم أساتذتُهُ ومدرّسوه.

تصرح خامس: أهل الكتاب يعرفون القرآن معرفة الوالد ولده

إن الله أورث بني إسرائيل الكتاب لذلك ما يوحى إلى محمد منه، تصديقاً له: ((والذين أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدّقاً لما بين يديه ... ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادِنا)) . (فاطر ٣١). وفي سورة (غافر) يوضح مَن أراد بوراثي الكتاب ((أورثنا بني إسرائيل الكتاب)) (٢ - ٣).

لذلك هم أهل الكتاب وأدرى الناس به، ويعرفون أن ما في القرآن تفصيلاً منزلاً منه: ((أفغير الله أبتغي حكَماً؟ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً. والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق فلا تكوننّ من الممترين)) (أنعام ١١٤).

وأهل الكتاب يعرفون القرآن معرفة الوالد ولدَه: ((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)) (أنعام ٢٠): ألا يشير هذا التصريح إلى صلة مصدرية كصلة الابن بأبيه؟ وكيف يعرف أهل الكتاب أن القرآن منزل من الله بالحق، والتنزيل وحيٌ شخصي لا يعلمه إلا صاحبه؟ إنهم لا يعرفون وحيه وتنزيله معرفة أبٍ لابنه إلا إذا كانوا شركاء هذا الوحي هذا الوحي المولود!

تصريح سادس: في العهد المكي والمدني **يصرح بأن القرآن تفصيل الكتاب**

يقولون إن هذه التصريحات لا تعني سوى أن القرآن هو تفصيل الكتاب السماوي ينزل من اللوح المحفوظ. ولكن يؤخذ من مجموع الإعلانات أن المقصود هو الكتاب الذي نزل من قبلُ: الانجيل والتوراة.

قد تكون أول آية ذُكر فيها الكتابيون هي هذه: ((وما جعلنا عدّتهم إلا فتنةً للذين كفروا: ليستيقن الذين أُوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً؛ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون)) (المدثر)، فقد ذكر عدة زبانية سَقَر إنهم تسعة عشر، فتنةً

للكافرين، وزيادة إيمان للمؤمنين الذين تجمعهم مع أهل الكتاب جامعة الانتساب والنسب. وما زال يؤكد: « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه » (فاطر ٣١). وما زال يردد: « وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك مصدقُ الذي بين يديه » أي قبله (أنعام ٩٢).

فليس هو تصديق الكتاب فقط ، بل فيه تفصيله أيضاً.

« ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (يونس ٣٧).

« ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف ١١١)؛ يؤخذ مما تقدم إن ارتباط القرآن بالكتاب في هذا التصديق والتفصيل هو نقل القرآن بلسانٍ عربيٍ عن إمامه كتاب موسى: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدِّق لساناً عربيّاً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (أحقاف ١٢): فاعترافه بالكتاب « إماماً » له تتلمذٌ منه للكتاب؛ وجعْلُه « لساناً عربياً » ، حالاً من « كتاب مصدِّق »، بيان لنوع التفصيل والتصديق والانتساب: وهذا مما يجعل القرآن نسخة عربية عن الكتاب الإمام.

وفي المدينة، في سورة البقرة، تزداد نظرية تصديق القرآن للكتاب وضوحاً وتوكيداً لإيلاف يهود المدينة: « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم، وآمنوا بما أنزلتُ مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » (٤٢): ففكرة التصديق تعني وحدة النسب والمصدر (٩١ و٩٧)؛ والمبدأ العام الشامل الكامل الذي يقرّر وَحدة الإيمان والتوحيد بين الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين وكل مَن آمن بالله واليوم الآخر (٦٢) يعني أيضاً وحدة النسب والأصل؛ ونسبة الإيمان بالقرآن للذين يتلون الكتاب حقَّ تلاوته تعني أيضاً صلة النسب : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » بالقرآن (١١٨)؛ وصلاةُ إبراهيم توحي بأن محمداً سوف يتلو في وُلده من بني إسماعيل آيات الله التي ستتنزل من إبراهيم إلى محمد: « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » (١٢٩) فالقرآن تعليم الكتاب للعرب، لا أفصح ولا أصرح.

إنه « تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً » (فصلت ١ ـ٣): فالقرآن تفصيل عربي لآيات الكتاب. وهذا التفصيل

بلسان عربي مبين للكتاب المنير كان سبب دهشة دائمة للعرب: « ولولا جعلناه قرآناً أعجميّاً لقالوا: لولا فُصّلت آياته: ءَأعجمي وعربي! قل: هو للذين آمنوا هدى وشفاء » (سبأ ٤٤ و٤٧): فالتفصيل هنا يعني النقل من هذا الأصل « الأعجمي » إلى « العربي » . فالقرآن موحى، والتفصيل العربي للكتاب منزل لأن الإمام الأصل منزل.

تصريح سابع: القرآن يعترف بأن الكتاب إمامه

نقلنا سابقاً من سورة « الأحقاف » ما يشهد بذلك : يرد على تهمتهم الدائمة أن القرآن « إفك قديم » بأنها سُبّة للكتاب المنير الذي هو إمام القرآن كما يشهد بذلك شاهد من بني إسرائيل: « وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم، إن اتّبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير. قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم... وإذ لم يهتدوا به فسيقولون: هذا إفك قديم! ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدّق لساناً عربيّاً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (٩ ـ ١٢) ـ ففي هذا المقطع الرائع نظرية كاملة في وجود القرآن وعلة وجوده: لا يدري محمد ما يُفعل به، ما هو إلا نذير؛ ولقرآنه إمامٌ يقتدي به، ويشهد بذلك شاهد من بني إسرائيل، فلا يجوز اتهام القرآن بالإفك فالتهمة تلصق بالكتاب الإمام، إذ ليس القرآن سوى تصديق بلسان عربي، « ومثله[1] » موجود بشهادة الإسرائيلي « الذي آمن بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً للحق » (البيضاوي).

والشك في صحة القرآن وصدقه كان ينتاب « النبي الأمي » أيضاً، وفي ثورة شكه ومريته كان الجواب للمشركين: كتاب موسى هو الإمام. فهل من مجال بعد للشك في المأخوذ منه؟ « أفمن كان على بينة من ربه، ويتلوه شاهدٌ منه، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، أُولئك يؤمنون به ... فلا تكُ في مرية منه، إنه الحق من ربك ... ومَن أظلم ممن افترى على الله كذباً ؟! » (هود ١٧)[2]. فكتاب موسى إمام القرآن ،

(١) أحقاف ١٢ « على مثله: مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدّقة للقرآن المطابقة لها » (البيضاوي) .

(٢) هود ١٧: في مرية منه : من القرآن (الجلالان) ـ « أفمن كان على بينة » برهان ، وقيل المراد به النبي ص. وقيل مؤمنو أهل الكتاب (ويتلوه) يتبعه شاهد منه وهو القرآن . وقيل : البينة هو القرآن ويتلوه من التلاوة ، والضمير في يتلوه إما لمن أو للبيّنة باعتبار المعنى . كتابُ موسى : جملة مبتدئة وقرئ (كتابَ) بالنصب عطفاً على الضمير في يتلوه أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنه حق ، كقوله « وشهد شاهد من بني إسرائيل » أي ويقرأ من قبل القرآن التوراة (البيضاوي) .

ويتلو شاهد من بني إسرائيل لمحمد ذاك الكتاب الإمام، والقرآن كبيّنة للأصل المأخوذ منه؛ ويؤمن بالقرآن ذاك الشاهدُ ومَن كان مثله على بينة من ربه في معرفة الكتب المنزلة. لذلك لا يجوز لمحمد أن يشك في القرآن لأنه لا يجوز له أن يشك في الكتاب الإمام ولا في من يتلوه ويقرأه له؛ فقد وصل إليه القرآن عن الكتاب تنزيلاً « بعلم الله » (١٤)، وما هو إلا نذير (١٢) ومن ادعى عليه بالافتراء، بعد الشهادة من أهلها على صلته بالكتاب الإمام، فليأتِ بعشر سور مثله مفتريات (١٣): إنه الحق من الله ، لأنه من الكتاب الإمام، بشهادة شاهد على بيّنة من ربه. ـ وهذا الموقف من النبي شبيه بما وصفته سورة يونس بكلام أصرح: « فإن كنتَ (يا محمد) في شك مما أنزلنا إليك فَسْئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك: لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننَّ من الممترين » .

إنها مشكلة القرآن الكبرى أَن يشكّ النبي أحياناً من نفسه ومن صدق رسالته وصحة وحيه. ولا يجد لذلك دواءً إلا في الكتاب الإمام وعند أهل الكتاب، يسألهم فيطمئنونه ويستشهد بهم فيشهدون له.

تصريح ثامن: على النبي أن يهتدي بهدي الكتاب وأهله

كانت صلاة اليهود طيلة عهدهم طلبَ الهداية. وهي منتشرة في سفر المزامير: فصباح مساء يصلون: « يا الله عرّفني طُرُقك وسبلك وعلمني ... سُبُل الرب جميعها رحمة وحق » (مز ٢٤ : ٤ و ١٠) « ثبّتْ خطواتي في سبلك لئلاَّ تزلّ قدماي » (مز ١٦ : ٥) « يا الله عرّفني الطريق التي أسلك فيها فإني إليك رفعتُ نفسي » (مز ١٤٢ : ٨) « ليهدِني روحك الصالح إلى الصراط المستقيم » (١٤٢ : ١٠).

وصلى النصارى هذه الصلاة، وانتقلت إلى القرآن وتصدرته: « إهدِنا الصراط المستقيم » . ظلَّ محمد يصلّيها ما بين شك ويقين حتى جاءه الاطمئنان في الإيمان بالكتاب، الذي فيه الهدى الذي يطلبه: « ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً **نهدي به**[1] مَن نشاء من عبادنا، وإنك لتـُهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله » (شورى ٥٢)، فالله يهدي بكتابه والإيمان به إلى صراطه المستقيم: فالصراط المستقيم هو صراط الإيمان بالكتاب وإليه يُهدى النبي، وإليه أَخذ يَهدي: « وقل آمنتُ بما أنزل

(١) شورى ٥٢ : جعلناه أي الكتاب أو الإيمان (لا الروح ، فالفاصل بينه وبين العائد بعيد) ، وإنك لتـَهدي، وقُرئ : لتـُهدى (راجع البيضاوي) . وقد فضلنا قراءة « لتـُهدى » فإنها تنسجم مع الآية أكثر.

الله من كتاب، وأُمرت لأعدل بينكم » (١٥) فالكتاب الذي آمن به محمد وجعل يدعو إليه «يعني جميع الكتب المنزلة » (البيضاوي) أي الكتاب المقدس.

إنه اهتدى إلى الكتاب المقدس، وجاءه الأمر بأن يقتدي بهدى أنبيائه وأهله: « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكم[1] والنبوّة، فإن يكفر بها هؤلاء (قريش) فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بكافرين (أهل الكتاب): أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِهْ » (أنعام ٨٩ ـ ٩٠) « أولئك الذين هدى الله هم الأنبياء ومتابعوهم ... والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين » (البيضاوي). فيجب على النبي ليطمئن ويخرج من شكوكه أن يهتدي بهدى الكتاب وأهله. ولا يكون في شك من اتصاله بكتاب موسى بواسطة أئمته: « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه[2] وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وجعلنا منهم أئمةً يهدون بأمرنا لِما صبروا وكانوا بآياتنا يؤمنون » (سجدة ٢٣ ـ ٢٤): فقد اتصل محمد بلا مرية بكتاب موسى بواسطة أئمة اليهود الذين يهدون إلى الهدى الذي معهم: ألم يعاونوه بذلك على الإيمان وغيره؟

تصريح تاسع: بين الذكر الجديد والذكر القديم انتساب ونسب

يقول: «لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون؟ ... ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَث إلا استمعوه وهم يلعبون » (أنبياء ٢ و١٠) وأسرّوا النجوى بشتى التهم فقال: «فَسْئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٧) فذِكرُ جماعته من ذكر مَن قبله « أم اتخذوا من دونه آلهة! قل: هاتوا برهانكم: هذا ذِكر من معي وذِكر مَن قبلي[3]؛ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون. وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢٤ ـ ٢٥) ـ سمّى تعليمه ذكراً من اسم الكتاب واسم أهله؛ وسمّى الذكر الذي معه « محدَثاً » بالنسبة إلى القديم؛ وأحالهم على أهل الذكر ليستوثقوا

---

(١) نظن أنه في مثل هذه المواضع يجب أن نقرأ « الحكمة » لا الحكم بين الكتاب والنبوّة أو معهما . ويحذف بعض القراء الهاء في الوصل ، خاصة حمزة والكسائي . ولفظ « الحكم » عبراني يعني : الحِكمة.
(٢) من لقائه : « من لقائك الكتاب أو موسى . وجعلناه أي المنزل على موسى » (البيضاوي) .
(٣) « ذكر مَن معي وذكر مَن قبلي : من الكتب السماوية انظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك . وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل . ومن معي : أمته. ومَن قبلي : الأمم المتقدمة . فإن ذكر من قبلي من حيث إنه خبر لاسم الإشارة مخصوص بالموجود بين أظهرهم وهو الكتب الثلاثة » (البيضاوي)

من هذا الذكر الحديث، ومن صحته، وصحة نسبه إذ الذِكران واحد. أليس في هذا الانتساب نسب؟

تصريح عاشر: بين الدين الجديد والدين القديم انتساب ونسب

قال: « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » (شورى ١٣). وقد نقل البخاري نفسه في صحيحه تفسير هذه الآية بقوله على لسان النبي: « أوصيناك يا محمد وأنبياءه (الله) ديناً واحداً » . والدين من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد واحد[1]: أفليس في هذا الجمع انتساب ونسب؟ والأمر بعدم التفرقة على لسان محمد، أليس دليل القرابة والمصدر؟ فشك في ذلك بعض ورثة الكتاب: وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم (أنبيائهم) لفي شك منه (القرآن) مريب » فأجابهم: « قل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب، وأمرتُ لأعدِل بينكم ... لا حجة بيننا وبينكم: الله يجمع بيننا » (١٤ ـ١٥)، فوحدة الإيمان بالكتاب، ورفع الخصومة بين الدينين والكتابين، والأمل الوطيد بالجمع بين الأمّتين، ألا يعني هذا كله صلة القرابة والمصدر؟!

تصريح حادٍ عشر: وحدة الإيمان بين القرآن والكتاب تعني وحدة النسب

في أول العهد بالمدينة تنهال التصريحات في هذا المعنى تترى وأصرح من ذي قبل: « قولوا آمنا بالله وما أنزِل إلينا وما أنزِل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون » (بقرة ١٣٦). وهذه الآية يكررها في آل عمران (٨٣ ـ ٨٥)، ويتوسع فيها في النساء (١٦٢ ـ ١٦٤): ينسب الوحي الجديد إلى الوحي القديم، ويقرر أن التفرقة في الإيمان بهما لا تجوز أصلاً: أليس في هذا انتساب ونسب؟

تصريح ثانٍ عشر: وحدة الكتاب تؤكد وحدة النسب

يصرّح القرآن بأن الكتاب الذي نزل مع جميع الأنبياء واحد: « كان الناس أُمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم **الكتاب**[2] بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » (بقرة ٢١٣) . و كان يقول : « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدّقاً لما بين يديه » (فاطر ٣٠) ، فيظهر من ذلك أن الوحي الجديد هو من الكتاب تصديقاً له، وفي هذا الانتساب والتصديق سر الوحي الجديد.

---

(١) قابل أيضاً: « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (نحل ٣٦) « جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله » (سجدة ١٤) .

(٢) وتقييده « الكتاب » بالمعرفة جامع للجنس والوحدة معاً.

وفي آخر العهد بمكة، في سورة العنكبوت، إعلان شامل عن وحدة الكتاب ووحدة النسب: لقد حصر النبوّة والكتاب في ذرية إبراهيم من يعقوب، بعد إسماعيل وإسحاق « ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب » (٢٧) « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » (٤٧)؛ « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وانزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » (٤٦) يشتركون في وحيٍ واحد وكتاب واحد وإيمان واحد وإسلام واحد.

أَوليس في هذا الانتساب إلى الكتاب وأهله وحدة مصدر ونسب؟

فمن هذه التصريحات المتنوعة ينتج أن أمة التوحيد عند العرب واليهود والنصارى أُمة واحدة، بإيمانها، ودينها، وكتابها: « وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقونِ[1]، (مؤمنون ٥٣) أمة رسُل الله (٥٢) ولو قطعوا أمرهم بينهم زُبُراً (٥٤) هم أمة واحدة في الإيمان والتوحيد والعقائد وأصول الشرائع. ويعود إلى مثل هذا التأكيد في سورة الأنبياء، ففي ختام قصصهم يقول: « إن هذه أُمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدونِ[2]. وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون. فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له لكاتبون » (أنبياء ٩٢ ـ ٩٥): وأمة التوحيد عند أهل الكتاب المنزلة الثلاثة أُمة واحدة في الإيمان والدين: وفي هذا أيضاً انتساب ونسب.

أمة واحدة، ودين واحد، وإيمان واحد وكتاب واحد.

*

من هذه التقريرات الخاصة في مصادر القرآن ننتقل إلى **النظريات العامة:**

يقرر القرآن في مطلع كثير من سوره وفي تضاعيف فصوله أن الوحي الذي ينزل عليه هو « الكتاب » . فما هو هذا « الكتاب » الذي ينزل عليه؟ ـ من كل ما تقدم نفهم أنه «**الكتاب الإمام** » الذي نزل من قبل وينقله محمد إلى العرب بلسان عربي مبين.

١ـ يقولون هو اللوح المحفوظ في السماء العليا نزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ونجّمه جبريل على النبي طيلة العهد بمكة والمدينة. والقرآن يذكر اللوح المحفوظ في قوله:

---

(١) قرأها الكوفيون بالكسر على الاستئناف (البيضاوي) أمة واحدة : ملتكم ملة واحدة أي متحدة في العقائد وأصول الشرائع أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة . ونصب أمة « على الحال» (بيضاوي) ، الخطاب للرسل (٥١) ومتابعيهم (٥٤).

(٢) تعليق آخر للآية : « قرِئَ أمتكم بالرفع خبر . وقرئ بالنصب على البدل من هذه ، وأمة (الثانية) بالرفع على الخبر . وقُرئتا بالرفع على أنهما خبر إن » . (البيضاوي) . ـ لاحظ قوله « وهو مؤمن » لا يقول مسلم أو كتابي ، فصحة الإيمان تشمل أمة التوحيد كلها .

« بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ » (بروج ٢١) ولكن لا ينص على الإطلاق أين هو محفوظ.

وهناك تعبير آخر، يسمّي اللوحَ المحفوظ « أُمَّ الكتاب » أي أصله: « حَمَ، والكتاب المبين إنَّا جعلناه قرآناً عربيّـاً لعلكم تعقلون؛ وإنه في أمّ الكتاب لدينا لَـعليٌّ حكيم[1] » (زخرف ١ ـ ٤) ـ فهل « الكتاب المبين » هو عين القرآن؟ قال البيضاوي مع بعض المفسّرين: «أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربيّاً وهو من البدائع لتناسب القسَم والمقسم عليه » . وليس هذا من البدائع وليس من القسم الوارد. بل سياق المعنى أنه يقسم بالكتاب المقدس بأنه جعل القرآن منه عربيّاً لكي يعقلوه، وهكذا يُقرُّ أن القرآن في « أم الكتاب المقدس » . وأمَّا قوله « لدينا، لعلي حكيم » فلا توضح أين هي أم الكتاب، في السماء أم في الأرض: والسماء والأرض في قبضة الله .

وكذلك قوله: « يمحو الله ما يشاء ويُثبت، وعنده أمُّ الكتاب » (رعد ٤١): الله في كل مكان و « عنده » في كل مكان، فسواء كان الكتاب الإمام في السماء أم في الأرض فهو عند الله .

أمّا قوله « ولدينا كتاب ينطبق بالحق » (مؤمنون ٦٣) « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (يسن ١٢) فهما يعنيان كتاب الحساب لا كتاب الوحي.

٢ـ فالكتاب الذي يقسم به القرآن، والذي ينتسب إليه، ويستشهد به، هو الكتاب الإمام، الذي عند أهل الكتاب، من صريح قوله: « كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم **الكتاب** بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » (بقرة ٢١٣) ويستغرب خلاف اليهود والنصارى « وهم جميعاً يتلون الكتاب » (بقرة ١١٣). فالكتاب، معرّفاً « بأل » هو كتاب أهل الكتاب لا غيره. وهو الذي يقول محمد بأنه نزل عليه وأوحي إليه لأنه آمن به (شورى)، ويؤمر بأن يهتدي به (أنعام ٩٠) ويفصّله للعرب بلسان عربي مبين، ويصدقه بينهم.

وهكذا نفهم إنه ينتسب إلى الكتاب المقدس عندما يقول: « تلك آياتُ الكتاب المبين (شعراء) ـ تلك آياتُ الكتاب وقرآن مبين (النمل) ـ تلك آيات الكتاب المبين (قصص) ـ تلك آيات الكتاب الحكيم (يونس) ـ كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن خبير حكيم (هود). تلك آيات الكتاب المبين: إنا أنزلناه قرآناً عربيّاً (يوسف) ـ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (الحجر) ـ تلك آياتُ الكتاب الحكيم (لقمان). »

---

(١) زخرف ١ ـ ٤ وإنه ، بالفتح عطف ، وبالكسر على الاستئناف ـ أم الكتاب : اللوح المحفوظ أي أصل الكتب السماوية ـ لعَلي حكيم : هما خبران لأن ، « وفي أم الكتاب » متعلق بعلي . واللام لا يمنع ، أو حال منه . ولدينا بدل منه أو حال من الكتاب » (البيضاوي) .

وعندما يُقسم بالكتاب، يقسم قَسَماً معروفاً بحسب عادة مألوفة، لا قَسَماً لا عهد للعرب به، ينقلهم، وهم الدهريون الماديون المشركون، إلى السماء العليا التي يتجاهلون: فالكتاب الذي يُقسِم به هو الكتاب المقدس لا غير: « والكتاب المبين إنَّا جعلناه قرآناً عربيّاً (زخرف)، والكتاب المبين إنّا أنزلناه في ليلة مباركة (دخان)، والطور وكتاب مسطور (طور)، والقلم وما يسطرون (القلم) » . فمنذ البدء أعلن وظل يعلن للعرب إنه إن لم يكن « لهم كتاب فيه يدرسون » فهو له؛ وإن لم يكن « عندهم الغيب يكتبون » منه فهو عنده (القلم ٣٧ و٤٧).

وهكذا في موقف القرآن نفسه من مصادره ثبت لنا أن محمداً.

١ً يعلن ويصرح مراراً وتكراراً بأن له مصادر

٢ً ينتسب بكل الأشكال إلى هذه المصادر

٣ً يستشهد في جميع المواقف الصعبة بهذه المصادر

٤ً يؤكد منذ البداية حتى النهاية صلته وتضامنه مع الكتاب حتى ليرسخ في ذهنك أن القرآن **نسخة عربية عن الكتاب المقدس الإمام**، حسب ظروف البيئة. وقد جمع في سورة متأخرة بين المصدر الإلهي والمصدر البشري في قوله: « ويقول الذين كفروا. لستَ مرسَلاً! ـ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عندَه عِلْم الكتاب[1] » (رعد ٤٥)، قرن شهادة علماء الكتاب له بشهادة الله ؛ وعلماء الكتاب لا يمكنهم أن يشهدوا إلا للكتاب الذي بين أيديهم، لا لكتاب في السماء لا يطالعونه.

*

فعلماءُ أهل الكتاب هم الشهداء مع الله على صحة رسالة محمد. هؤلاء العلماء الذين أقامهم الله أَئمة على علم الكتاب، وبه يهدون، وبواسطتهم يلتقي محمد بالكتاب، فلا يكون عنده شك من ذلك: « ولقد آتينا موسى الكتاب، فلا تكن في مرية من لقائه، وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (سجدة ٢٣). وإلى هدى الكتاب يؤمر محمد بأن يهتدي، وبه أن يقتدي « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِ » (أنعام ٩٠). فآمن بالكتاب واهتدى إلى الصراط المستقيم: « ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا، وإنك لتُهدى إلى صراط مستقيم، صراط

(١) ومَن عندَه عِلْم الكتاب : على الموصول ، الكتاب هو القرآن ، أو التوراة ، أو اللوح المحفوظ ؛ وعلى الجر « مِن عنده » علم الكتاب مبتدأ والظرف خبره . وقرِئ : ومن عندِه عِلم الكتاب على الحرف والبناء للمفعول » (عن البيضاوي) ؛ والأصح الاستشهاد بعلماء الكتاب وعلمهم كما هو من عادته المتواترة .

الله ›› (شورى ٥٢). فبواسطة أئمة الكتاب التقى محمد بالكتاب، ولو كان لا يتلوه ولا يخطه بيمينه: ‹‹ وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك: إذاً لارتاب المبطِلون ›› (عنكبوت ٤٨)؛ فهم تَلَوا، وهم خَطّوا ولذلك فالقرآن آياتُ بينات في صدورهم، بل هو آياتٌ بينات في صدور الذين أُوتوا العلم ›› أي علماء الكتاب (عنكبوت ٤٦). وكان يفخر بهؤلاء العلماء ‹‹ وإنما يخشى الله من عباده العلماء ›› (فاطر ٢٨ : ٣٠)؛ ويفخر بالكتاب والقرآن هدىً واحداً: ‹‹ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعْه ، إن كنتم صادقين ›› (قصص)؛ ويفخر بأُمَم التوحيد أُمةً واحدة بكتابها ودينها وإيمانها: ‹‹ وإن هذه أمتكُم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقونِ ›› (مؤمنون ٥٣، أنبياء ٩٢). وهكذا، في آخر العهد بمكة تجمع سورة العنكبوت بين المصدر الإلهي للقرآن والمصدر البشري عند ‹‹ النبي الأمي ›› الذي وإن لم يكن يتلو الكتاب ولا يخطّه بيمينه، فقد نزل إليه الكتاب قرآناً عربيّاً وهذا القرآن هو آيات بيّنات في صدور أهل العلم به (٤٧ ـ ٤٩).

ختمنا كما بدأنا: ‹‹ وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين، وإنه لفي زُبُر الأولين: أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ›› ؟ (شعراء ١٩٢).

فالقرآن تعريب الكتاب، على طريقته، وتفصيله للعرب وتصديقه بينهم، كما تستسيغه بيئتُهم: ‹‹ والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربيّاً ›› (زخرف).

*

بحث ثانٍ : المعارضون يتهمون محمداً بأن له مصادر

من الطريف أن ندرس ردّ الفعل الذي أثاره القرآن عند معارضيه، فرموا محمداً بطائفة من التهم المتنوّعة. شعروا بأن له صِلات، فقالوها له. ولكنهم نوّعوا التهم والأمثال وما كانوا يصلون إلى الحقيقة، حتى التقوا معه في الانتساب والنسب إلى الكتاب الذي نزل من قبله.

التهمة الأولى: إن به جِنّة!

لمَّا بدأ محمد يتلو القرآن ظنوا أن به جِنّة تدفعه إلى الكلام كما كانوا يظنون مثل ذلك في شعرائهم وكهانهم وعرّافيهم وساحريهم. فمنذ سورة القلم صاحوا به: ‹‹ نَ والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون! وإن لك لأجراً غير ممنون. وانك لعلى خلقٍ

عظيم! .. وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر! ويقولون: إنه لمجنون! وما هو إلا ذكر للعالمين)) (القلم ١ ـ ٤ ثم ٥٢ ـ ٥٣). وتنقل لنا السورة صورةً ثانية عن التهمة: ((فستبصر ويبصرون بأيّكم المفتون! إن ربك أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)) (٦ ـ ٧). كذلك حجر ٦ ـ ٧.

ـ أنكر هذه التهمة إنكاراً بسيطاً رائعاً: مَن كان في نعمةٍ مع ربه، وعلى خلقٍ عظيم لا يسكنه جنٌّ ولا يُنطقونه! ولكن السورة تنقل ثلاث آياتٍ بسبيل ما ذهبنا إليه من اتصاله بالكتاب ودرسه والأخذ عنه كتابة: ((نَ والقلم وما يسطرون)) قالوا عنى بها القلم الأزلي والتسطير في اللوح المحفوظ! ـ ولكن، ليس هذا بجواب لأناسٍ ماديين لا يوحّدون الله ، ولا يعرفون بعدُ من القرآن شيئاً. ثم قال ((أم لكم كتاب فيه تدرسون)) (٣٥) أي هل تُهمتهم وإنكارهم من كتاب منزل؛ فيه يدرسون ويتعلمون ما يقولون مثل أهل الكتاب، وكأنه يقول، كما أفعل أنا! ((أم عندهم الغيب فهم يكتبون)) (٤٢) منه ما يعلمونه للناس كما يفعل أهل الكتاب الذين ينتمي إليهم. فمهما قلّلنا من دلالة هذه الآيات الثلاث التي تجيب على تهمة الجنون، فإنها تجعل نسباً لا شك فيه من دراسة وتسطير وكتابة بين القرآن والكتاب، ذاك الغيب المنزل.

التهمة الثانية: إنه ((سِحْر يؤثر)) .

فعل القرآن في القوم فعل السِحر، فتصدى زعيم لهم، يصفه القرآن، في قوله: ((ثم نظر ثم عبس وبَسَر، ثم أدبر واستكبر فقال: إنْ هذا إلا سحرٌ يؤثر! إنْ هذا إلاّ قول البشر)) (٢١ ـ٢٥) فكان الجواب سابقاً ولاحقاً: ((إنه فكر وقدر مقدّر! فقتل كيف قدّر! ثم قتل كيف قدّر! (١٨ ـ٢٠) سأصليه سقر (٢٧) كلاًّ والقمر، والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر، إنها لإحدى الكبر، نذيراً للبشر)) (٣٢ ـ٣٥) ـ ليس هذا من السحر في شيء بل هو نذير للبشر (٣٨) وتذكرة (٥٤) لأنه ((يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة (٥٢) ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً؛ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ... وما هي إلاّ ذكرى للبشر)) (٣١). يرشح من هذا الجواب أن القرآن ذكرى من الكتاب ذي الصحف المنشرة يستيقن به الكتابيون والمسلمون، وليس بسحر كما يدعي الوليد بن المغيرة وأمثاله. كذلك إسراء ٤٥ ـ ٤٨.

تهمة ثالثة: إنه قول شيطان رجيم.

تمادى الرسول في التذكير والإنذار، وتمادى المشركون في استجلاء سرّهِ فنسبوه إلى تلقين الشياطين، فأجابهم: ((فلا! أقسم بالخنّس ... إنه لقول رسول كريم ... وما

صاحبكم بمجنون ... وما هو على الغيب بظنين. وما هو بقول شيطان رجيم! إن هو إلا ذكر للعالمين » (التكوير ١٩ ـ٢٥). ـ يجيب هنا بهدوءٍ إنه ليس بقول شيطان رجيم؛ بل قول رسول كريم مطلّع على الغيب المنزل يعرّبه ويفصله ذكراً للعالمين: « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » (القلم ٤٢).

وفي سورة هود، هذا الرسول الكريم خبيرٌ حكيم أحكمَ آياتِ الكتاب وفصَّلها. وفي سورة النمل (٦)، حكيم عليم يلقي إليه القرآن. وفي سورة الشعراء: « وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين ... بلسان عربي مبين: وإنه لفي زُبُر الأولين، أوَلم يكن لهم آية أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل؟! (١٩٢ ـ١٩٧) ثم ينتفض ويصيح: « وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون، إنهم عن السمع لمعزلون! (٢١٠ ـ٢١٢) هل أنبئكم على مَن تنزّل الشياطين؟ ـ تنزَّل على كل أفَّاكٍ أثيم » ! (٢٣١ ـ٢٣٢) كأنه يقول: رسول كريم، وخبير حكيم، وحكيم عليم، من علماء بني إسرائيل مطَّلع على الغيب المنزل في زبُر الأولين يطلع عليه النبي ومحمد يفصّله بلسان عربي مبين ذكرى للمؤمنين، وتقولون إنه قول شيطان رجيم! لستُ بأفاكٍ أَثيم حتى يأتيني، ولا يقدرُ أن يستمع لكلام الله !

تهمة رابعة: الافتراء على الله بمعونة الآخرين.

هنا يدخل عنصر جديد في الاتهامات: معونة الآخرين له.

« **وقال الذين كفروا: إنْ هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون! ـ** فقد جاؤوا ظلماً وزوراً » (فرقان ٤)؛ ويرددون تهمة التزوير مراراً، فيسخر بهم من دون الله إن كنتم صادقين: فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنه إنما أنزل **بعلم الله** » (هود ١٤). ومن التحدّي يدلنا على المصدر الحق: « وقال الذين كفروا: هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزقتم كل ممزّق إنكم لفي خلق جديد! أفترى على الله كذباً أم به جِنّة ؟ ـ ويرى الذين أوتوا العلم (مؤمنو أهل الكتاب: الجلالان) الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد» (سبأ ٦ و٧)؛ كذلك سجدة ٢ ـ٣؛ فأهل العلم المنزل في الكتاب يعرفون أنه حق من الله لا افتراء عليه. وفي سورة النحل صولة بين النبي وخصومه: يستشهدون عليه بالافتراء من تبديل آية بآية: « وإذا بدلنا آية مكان

آية ـ والله أعلم بما يُنزِّل ـ قالوا إنما أنت مفترٍ! ـ بل أكثرهم لا يعلمون! قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا، وهدىً وبشرى للمسلمين (نمل ١٠١) يقرُّ بالتبديل وينسبه إلى روح القدس. ويستشهدون بتعلمه من بشر « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر! ـ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين » (نحل ١٠٣) كأن هذا الأعجمي من علماء الكتاب، المقيم في مكة بين ظهراني العرب لا يمكن أن يعرف العربية ؟! قد يفوته سحر بيانها، ولكن لا يجهلها[١] كما أن محمداً قد لا يجهل هذا اللسان الأعجمي.

قال محمد صبيح: « فهذه الآيات صريحة الدلالة على أن النبي كان يتلو القرآن باللسان العربي المبين الذي يعلمه هو. وقد حرصت آيات كثيرة على تأكيد هذا المعنى ... ولكن هل كان يعرف النبي لغة غير لغة قريش الحجازية المكية التي نراها في القرآن وفيما صح من الأحاديث؟ .. وما هذا اللسان أو هذه الألسن الأعجمية التي يتحدَّث عنها القرآن؟ .. كان يقيم في مكة ناس من الفرس واليونان وأقباط وأهل الحبشة وأهل الجنوب وغيرهم. ومن المؤكد أن هؤلاء القوم كانوا يقيمون فيها وألسنتهم معهم. وكان اتصالهم بأهل هذه القرية يضطرهم إلى تعلّم لغتها العربية القرشية كما ينقل إلى لسان المكيين ألفاظاً غير قليلة من هؤلاء الذين يقيمون بينهم ... ومن هنا يمكن أن نقرّر أن أهل مكة عرفوا لغات أجنبية إلى جانب لغتهم الأصلية وأن اللغة الأصلية نفسها تأثرت بهذه اللغات التي تنتقل إلى مكة من الأجانب المقيمين فيها أو تنتقل إليها مكة في متاجرها ... وقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة وكان يفهم ما يتلى عليه » . (عن القرآن ١١٢ ـ١١٧).

تهمة خامسة: « أضغاث أحلام » .

لقد أعيتهم الحيلة في معرفة مصدر القرآن عند هذا « النبي الأمي » . ويعرفون من جهة أخرى أن دليل الله على أنبيائه المعجزة؛ فطلبوا منه معجزة كالأنبياء الأولين، فما جاءَتهم. فضربوا له كل أنواع الأمثال يفسّرون بها ظاهرة نبوة محمد، فضلـّوا.

---

(١) قال البيضاوي في نحل ١٠٣: « إنما يعلـّم بشر : يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي . وقيل إن جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل وكان الرسول يمر عليهما أو يسمع ما يقرآنه . وقيل عائشا غلام حويطب بن عبد العزّى قد أسلم وكان صاحب كتب . وقيل سلمان الفارسي ... وتقريره يحتمل وجهين أحدهما إن ما يسمعه كلام أعجمي لا يفهمه ؛ وثانيهما هب إنه يفهم المعنى باستماع ، ولكن لم يتلقن منه اللفظ لأن ذلك أعجمي وهذا عربي . والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ » .

أخيراً وجّهوا إليه إنذاراً ذي حدَّين: إمَّا المعجزة، وإمَّا الإفك: « وأسرّوا النجوى الذين ظلموا: هل هذا إلا بشر مثلكم؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون! .. بل قالوا: أضغاث أحلام! بل افتراه! بل هو شاعر! ـ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون! » (أنبياء ٣ ـ ٥).

أَجاب: إن الله يعلم نجواهم (٤) وما هو إلاَّ كتاب فيه ذكرهم، (١٠) بشهادة أَهل الذكر (٧). وأمّا عن المعجزة فلا جواب. وأمّا عن اتهاماتهم فإنه يتهكم بها في سورة الإسراء: «انظرْ كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً! » (٤٨).

وفاتهم إن بين المعجزة والإفك طريقاً أخرى قد تكون الحقة، وهو يدلهم عليها بإحالتهم على الكتاب وأهله (أنبياء ٧).

تهمة سادسة: « أساطير الأولين، اكتتبها » .

بعد أن فشلت جميع التهم الموجهة إلى النبي والقرآن، عملوا بإشارته، ولاحظوا علاقاته مع علماء الكتاب، فقرَّ رأيهم أخيراً على أن القرآن من أساطير أهل الكتاب.

هذه هي التهمة الكبرى التي ظلت تلاحقه طيلة حياته. نراها منذ سورة القلم: « ولا تطع كلّ حلاَّف مهين ... إذا تُتلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين » (١٠ ـ ١٥)[١] وتنتهي مجادلاتهم معه بهذه التهمة: « إذا جاؤك يجادلونك، يقول الذين كفروا: إنْ هذا إلا أساطير الأولين » (أنعام ٢٥) ورافقته إلى المدينة، حتى بعد معركة بدر ونصر المسلمين على المشركين: « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا: إنْ هذا إلا أساطير الأوَّلين. وإذ قالوا اللهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (أنفال ٣١ ـ٣٢).

وهذا التحدّي أَن يقولوا مثل هذا، ورد بعد تحدّي القرآن لهم خمس مرات أن يأتوا بسورة من مثله (طور ٤٠، يونس ٣٨ ، هود ١٣، إسراء ٨٨ ، بقرة ٢٣). وأصرّوا على موقفهم الذي تؤيده تصريحات القرآن ومشاهداتهم: « وقالوا: أساطير الأولين، اكَتَتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً » (فرقان ٥) « أي ما سطّره المتقدمون، كتبها لنفسه أو استكتبها، وأصله اكتتبها كاتب له، وهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً ليحفظها ... وأعانه

(١) اختلاف النظم والروي يشيران بأنها من زمن متأخر عن سورة القلم ، لكنه مبكر.

عليه قوم آخرون أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبّر عنها بعبارته. وقيل جبر ويسار وعداس؛ وقد سبق في قوله: « إنما يعلمه بشرٌ » (البيضاوي) قال محمد صبيح: « بل أكثر من هذا فإن لدينا من الحوادث ما يؤكد اتصال رسول الله وهو في مكة بهؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون فيها وكان يزورهم ويطيل صحبتهم. فقد روي عن عبيد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان **روميان** يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان النبي ص. يمر بهما فيقوم فيسمع منهما. وروي عن ابن اسحاق أن رسول الله كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى سبيعة ـ غلام نصراني يقال له جبر ـ عبد لبعض بني الحضرمي. وعن ابن عباس أن النبي كان يزور وهو في مكة أعجمياً اسمه بلعام وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده. وفي رواية أخرى أن غلاماً (كان لحويطب ابن عبد العزّى) قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتيب ـ وقيل هو جبر، وقيل هما اثنان جبر ويسار ـ كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله إذا مرَّ عليهما وقف يسمع ما يقرآن الخ ... واذن فقد كان رسول الله يسمع ما يُقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة وكان يفهم ما يُتلى عليه[1] » . وعلى تهمة أن القرآن من أساطير أهل الكتاب لا جواب سوى قوله: « قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض » (فرقان ٦) فلا تقنعهم، حتى ظلوا يطلبون آية رحمة من السماء تؤيده مثل الأنبياء الأولين (أنبياء ٥)، أو آية عذاب أليم مثل حجارة من السماء يضربهم بها الله (أنفال ٣٢).

فجاءت أخيراً آية « الحديد، فيه بأس شديد » (حديد ٢٥) فأخرستهم نهائيّـاً.

تهمة سابعة: « درسْتَ » ! (أنعام ٩٣).

هذه تهمة قريبة من سابقتها. تصريحاته المتواترة أوصلتهم إليها. فمنذ سورة القلم يرد عليهم بقوله: « أم لكم كتاب فيه تدرسون » (٣٨) حتى تُجادلوا وتتهموا. ويعودون إلى اتهامه، ويعود إلى الردّ بمثلها: « وما آتيناهم من كتب يدرسونها » (سبأ ٤٤) ممّا يوحي بأنه هو كان له كتباً يدرس فيها.

وهذه التي تشبهها: « أَم عندهم الغيب فهم يكتبون » (القلم ٤٢ طور ٤٢) ويسطرون بالقلم (القلم ٢) من الغيب المنزل ويعلمون الناس. لذلك كانوا يقولون له: « لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه » (سبأ ٣١) « بالذي تقدمه كالتوراة والإنجيل » (الجلالان).

---

(١) محمد صبيح : عن القرآن ١١٦ ـ١١٧.

أجابهم على التهم كلها. ولكن تهمة الدراسة عند أهل الكتاب يمر بها مرور الكرام، كأنه يقبل بها. وهذه هي التهمة بأجلى بيان: « قد جاءَكم بصائر من ربكم ... وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا: درست[1] ولنبيّنَه لقوم يعلمون » ، و « الدرس: القراءَة والتعليم. ودارستَ أهل الكتاب: ذاكرتهم » (البيضاوي أنعام ١٠٤ ـ ١٠٥). ولا جواب عنها، بل بالحري كلّ تصريحاته التي رأيت تقوّي فيهم هذه الشبهة.

دَرْسُ الكتاب وتفصيله كانت مهمة الربانيين أئمة الكتاب الذين يذكرهم القرآن. ويرد اللفظ والمعنى في الكتاب « درش » بمعنى دَرَسَ أي فصَّل. قال عن عزيز مؤسس التدريس «مدراشيم » : « إن عزيز وجه قلبه لدرس شريعة الرب والعمل بها وتعليم إسرائيل الرسوم والأحكام » (سفر عزرا ٧ : ١٠). وكان مع نحميا وأئمة اللاويين يفصّل الكتاب للشعب : « قرأوا في سفر توراة الله جهراً وفصّلوا المعنى حتى فهم الشعب القراءة » أو القرآن (نحميا ٨ : ٨ ـ ٩). فالقرآن، إذ ينسب لنفسه مهمة « تفصيل الكتاب » مثل أئمة الكتاب، يؤيد التهمة التي لا يردُّ عليها.

وعن الدراسة والاكتتاب، والاكتساب العلمي الذي لا يتنافى مع التنزيل نجد هذه التلقينات القرآنية عند محمد عزة دروزة[2]: « هذه الآيات (عنكبوت ٤٨) قد حملت على ما يبدو بعض المسلمين على نفي الاكتساب العلمي عن النبي ... ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء **على نفي الاكتساب العلمي عن النبي ص.** قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النفي. كما أننا لا نرى هذه الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي ص. قد **اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحويه الكتب الدينية وغيرها من مبادِئ وأسس وتشريعات وقصص**، ومما كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك، كتابيين كانوا أو غير كتابيين، بسبب تلك الاتصالات **التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية**، وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تـُلِمُّ إلماماً غير يسير بهذه المعارف ... إن أهل بيئة النبي كانوا على اتصال دائم بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستقرين منهم بالحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة. وإن كثيراً من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم وأحوالهم قد تسربت إلى العرب، وشاهدوا مشاهدها

(١) ذكر البيضاوي عشر قراءات لهذه الكلمة ؛ حفظ منها الجلالان : درَسْتَ أو دارست أي ذاكرت أهل الكتاب أو درست كتب الماضين وجئتَ بهذا منها » .
(٢) في كتابه : سيرة الرسول ١ : ٣٨ ـ ٣٩.

التاريخية والمعاصرة، وليس من الطبيعي، ولا من المعقول أن يبقى النبي ص. في عزلة أو غفلة عن هذا كله)) .

والقرآن يحيل سامعيه و مناوئيه على أهل الكتاب كلما قام معه جدال. ووحيُه يأمره أن يهتدي بهدى الكتاب وأهله. وهو يصرّح في كل سانحة بأن القرآن من الكتاب، لا الكتاب الذي يقولون إنه في لوح محفوظ في السماء، بل الكتاب الإمام الذي عند أهل الكتاب، فهو أي القرآن ((آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)) (عنكبوت ٥٠) وهم ((يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم)) (أنعام ٢٠) معرفة عائلية مصدرية. فهل أصرح وأَوضح من هذين الانتساب والنسب؟

*

وهكذا يلتقي، في النهاية، موقف محمد مع موقف معارضيه في سر مصادر القرآن. وإحالة النبي على الاقتداء بهدى الكتاب وأهله (انعام ٩٠) وإحالته في ثورات الشك التي كانت تنتابه في صحة وحيه ورسالته على أهل الكتاب كي يطمئنوه (يونس ٩٤) تكفي وحدها لتلقي أضواء صائبة وأنواراً كاشفة على سر تنزيل القرآن.

وفي سورة الطور موقف يجمع جميع التهم الموجهة إلى النبي والقرآن، فيرد عليها جميعاً إلا تهمة الاتصال بالكتاب وأهله، يمرّ بها مرور الكرام: ((فذكر، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون! أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون! ـ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين. أم تأمرهم أحلامهم بهذا؟ ـ أم هم قوم طاغون! أم يقولون: تقوّله! ـ بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين. أم لهم سُلّم يستمعون فيه؟ ـ فليأتِ مستمعهم بسلطان مبين! أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟ ـ (لا جواب) ـ أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون!)) (٣٠ ـ ٤٣).

فالغيب المنزل هو عند محمد وعند أساتذته أَئمة الكتاب، وهو يتعلم منه (نحل ١٠٣) ويدرس فيه (قلم ٣٥ وأنعام ٩٣) ويطلع على الغيب المنزل في الكتاب الإمام بواسطتهم (سجدة ٢٣ شورى ٥١). فإذا تحدى قومه بما يكتبون له من الغيب ((أم عندهم الغيب فهم يكتبون)) (القلم ٤٢ الطور ٤٢) أو قالوا له: ((درست)) (أنعام ١٠٤)، ((وما آتيناهم من كتب يدرسونها)) (سبأ ٤٤) تبقى التهمة بلا جواب. وهذا تسليم ضمني بالأمر الواقع.

وهكذا يلتقي موقف محمد من الانتساب إلى الكتاب وأهله، مع موقف معارضيه بتهمته بالنسب إليهم. ومجموع التصاريح منه، وخلاصة التهم منهم تثبت ذينكا الانتساب والنسب.

*

بحث ثالث: كيفية التنزيل القرآني

« **أنزل بعلم الله** » هود ١٤ نساء ١٦٥

التنزيل القرآني وحي بالواسطة.

في الكتاب والقرآن نظرية عامة على اتصال الله ، بالوحي، إلى خلقه من البشر، بواسطة الملائكة: « الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً » (فاطر ١). والروح ـ وهويته مجهولة في القرآن ـ يقود الملائكة في هذه الرسالة الإلهية: ينزّل الملائكة بالروح من أمره على مَن يشاء من عباده » (فاطر ٢).

وفي سورة الشورى نظرية القرآن الخاصة على مكانه من ُطرُق هذا الوحي: « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً، فيوحي (هذا الرسول) بإذنه ما يشاء ، إنه علي حكيم ... وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا: « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا، ولإنك لَتُهدى إلى صراط مستقيم » (٥١ ـ ٥٢). فلم يكن الوحي القرآني مباشراً كما كان مع المسيح، ولا من وراء حجاب كما كان مع موسى، بل كان بواسطة روح من أمر الله هداه إلى الإيمان بالكتاب الإمام، صراط الله المستقيم.

كان التنزيل القرآني وحياً بالواسطة: فمحمد لم يرَ الله ، ولم يطلع مباشرة على غيب الله : « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسّني السوء » . أتاه بالوحي رسول كريم (تكوير) شديد القوى (نجم) روح أمين (شعراء) روح القدس (نحل) جبريل (بقرة).

وهذا الوحي القرآني **كان في ليلة مباركة**. جاء في الحديث عن عائشة أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ص. من الوحي **الرؤيا الصالحة في النوم**. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو

التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء » . وجاء فيه عن ابن عباس قال: « كان رسول الله ص. أجود الناس، وكان أجوَد ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في **كل ليلة من رمضان** فيدارسه القرآن[1] » .

فالقرآن وحي ليلي في ليلة مباركة: « والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة » (دخان) ليلة القدر: « إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر! خير من ألف شهر تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر. » (سورة القدر كلها). فقد نزل القرآن في ليلة القدر كما ينزل الملائكة والروح فيها **بكل أمر**.

فالقرآن وحي ليلي بالواسطة. فكيف كان ذلك؟

*

في السور الأولى نجد وصفين لاتصال محمد بملاك الوحي.

ففي سورة التكوير (وهي السابعة في ترتيب النزول) نجد أول وصف عن طريقة الوحي القرآني: « إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين. وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين » (١٥ ـ ٢٥).

وفي سورة النجم (وهي الثانية والعشرون حسب الترتيب العام) وصف ثانٍ عن كيفية الوحي القرآني: « والنجم إذا هوى، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، ذو مِرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى. ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب **الفؤادُ** ما رأى: أفتمارونه على ما رأى! » (نجم ١ ـ ١٢). رأى محمد بفؤاده ـ لاحظ دقة التعبير ـ رسول الوحي بالأفق البعيد ثم تدلى إلى أذن النبي وأوحى ما أوحى: أَهي مشاهدة حسية أم رؤيا حسية، أم رؤيا روحية فكرية ؟ فقوله « رأى بفؤاده » تعني أَنها رؤيا عقلية.

يؤيد ذلك مشهد آخر لاحق: « ولقد رآه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى ـ عندها جنة المأوى ـ إذ يغشى السدرة ما يغشى: ما زاغ البصر وما طغى: لقد رأى من آيات

(١) صحيح البخاري ١ : ٣ و ٤ .

ربه الكبرى » (نجم ١٣ ـ١٨). أَرأى ببصر الجسد أم ببصر الروح؟ ـ نظن ببصر الروح، بالبصيرة، لأن آيات الله الكبرى لا تُرى على الأرض ببصر الجسد[1].

*

ثم يسكت القرآن عن وصف رؤى الوحي. ويسير الوحي في اتجاهين.

في أحدهما يصير الرسول الكريم (كورت ١٩) وشديد القوى (نجم ٥) الروح الأمين الذي ينزل على قلبه، ليكون من المنذرين، بما في زبر الأولين: أولم تكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل؟ (شعراء ١٩٣). وهذا الروح الأمين هو روح القدس (نحل ١٠٢) جبريل: « قل من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بالحق مصدّقاً لما بين يديه » (بقرة ٩٧). ظل محمد ينتظر طيلة العهد بمكة حتى أول العهد بالمدينة ليعرف للمرة الوحيدة اسم رسول الوحي إليه.

وفي الاتجاه الآخر نرى في الرسول الكريم، شديد القوى، حكيماً عليماً: « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » (نمل ١ و٦) حكيماً خبيراً يُحكم الآيات ويفصّلها. « آلر. كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير » (هود ١ و٢).

وفي سورة هود أيضاً تلقينات على التقاء العنصر الإلهي بالبشري في تنزيل القرآن: «أفمن كان على بينة من ربه، **ويتلوه شاهد منه**، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة: فلا تكُ في مرية منه، إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (هود ١٧) فلا يشكّنَّ محمد بأنه يتصل بكتاب موسى الإمام، لأن الحكيم العليم الخبير، وهو شاهد من قبل الله ، يأخذ الآيات من الكتاب الإمام، وهو على بينة من ربه في ذلك، ثم يفصّلها للنبي. فبواسطة شاهد من الله يتصل محمد بالوحي النازل في الكتاب الإمام.

ومن سورة هود يبدأُ الاتجاهان في التلاقي: يتحدّونه بمعجزة (١٢) فيتحداهم بعشر سور مثله (١٧) ثم يقول: « فإن لم يستجيبوا لكم، فاعلموا إنما أُنزل بعلم الله » (١٤). ويقف القرآن على كلمة السر هذه في كيفية نزول الوحي القرآني وتلاقي العنصر الإلهي فيه بالعنصر البشري: « إنما أُنزل بعلم الله » ! وهذه الخطة ثبت عليها إلى المدينة. تجاه

---

(١) في المشهدين من سورة النجم شبهة تعارض : في الرؤيا الأولى ، رأى بفؤاده رسول الوحي ينزل إليه على الأرض . وفي الثانية محمد يصعد إليه حتى سدرة المنتهى ، عند جنة المأوى ، ويرى ببصره : على الأرض يرى ببصيرته وفي الجنة يرى ببصره ولما ينسلخ بعد عن الجسد ؟

أَئمة الوحي والكتاب الأول يقول: « لكن الله يشهد بما أُنزل إليك: أنزله بعلمه » (نساء ١٢٥)؛ وتجاه الكفار العرب يقول: « ويقول الذين كفروا: لست مرسلاً ! ـ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده علم الكتاب » (رعد ٤٥): مَن عنده عِلم الكتاب يشهد مع الله كيف أُنزل القرآن بعلم الله، لأن عنده أم الكتاب « يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أُم الكتاب » (رعد ٤١).

إن كيفية نزول القرآن « بعلم الله » لسرٌّ قرآني حفظه محمد لنفسه، ولم يطلع عليه إلا « مَن عنده علم الكتاب » .

*

عندما يجهل الشرقي أَمراً أو يتجاهله ينسبه إلى الله . ولكن في النصوص القرآنية تعابير جامعة توضح لنا تفاعل العنصر الإلهي والعنصر البشري في نظم القرآن، كما يتفاعلان في كل كتاب مُنزل:

إنه تنزيل من رب العالمين، ومع ذلك فهو في زُبر الأولين (كورت ١٥).

نزل به الروح الأمين، وفي الوقت ذاته، يعلمه علماء بني إسرائيل (شعراء ١٩٣).

إن الله عنده أم الكتاب يمحو ما يشاء ويثبت، ولا يعرف ذلك إِلا الله ومن عنده علم الكتاب (رعد ٤١ و٤٥).

يتلو القرآن شاهد من الله ، فيما هو على مثال كتاب موسى الإمام، لا مرية في ذلك (هود ١٨).

أَجل لم يكن محمد يتلو الكتاب الإمام ولا يخطه بيمينه، ولكنه وصل إليه ونزل إليه وأهل الكتاب يؤمنون بذلك « لأنه آيات بينات في صدورهم » (عنكبوت ٤٥ ـ٥٠).

أَليس في هذه التعابير الجامعة المانعة إيضاح لمعنى قوله: « أم لكم كتاب فيه تدرسون... أم عندهم الغيب فهم يكتبون » (القلم ٣٥ و٤٢)؛ ولمعنى قولهم: « درستَ » (أنعام ٩٣) ثم « تقوله وأعانه عليه قوم آخرون » (فرقان ٤ طور ٦). ليست الإعانة في «نظم القرآن المعجز » وسحر بيانه، بل في درس الكتاب الإمام، وفي تعلّم الإيمان بالله واليوم الآخر في براهينه وقصصه ممن « جعلهم الله أئمة يهدون بأمره » وعند مَن يؤمر محمد بأن يقتدي بهداهم (أنعام ٩٠).

إذا ساورنا شك في ذلك، فقد انتاب الشكُّ محمداً من قبلنا فأحاله وحيُه إلى أساتذته: «وإن كنت في شك مما أوحينا إليك فَسْئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤) حتى تقتدي بهداهم (أنعام ٩٠).

فسألهم واقتدى بهداهم وآمن بما أنزل الله من كتاب، وفصله للعرب بلسان عربي مبين.

*

وكلمة الختام في هذا الحديث الطويل إن رسل الإنجيل يقولون عن موسى إمام الأنبياء إنه « تثقف بكل ثقافة مصر وحكمتها » (أعمال ٧ : ١٢) ولا يقلِّل ذلك من زعامة موسى النبوية.

والقرآن الكريم يشهد عن المسيح بأن الله « يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل » (آل عمران ٤٨). ولا يقلِّل ذلك من شخصية المسيح « كلمة الله » الذاتية والمحكية (نساء ١٧٠).

والقول بأن محمداً « درَس » الكتاب واهتدى بهدى أنبيائه وتثقف بثقافة التوراة والإنجيل، بحسب شهادة القرآن المتواترة، لا يقلل من شخصية محمد الدينية الفذة.

« لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون » (بقرة ١٣٦ وآل عمران ٤ نساء ١٦٣).

الفصل الثاني عشر

معجزة حفظ القرآن

« إنا نحن نزّلنا الذكر، وإنّا له لحافظون »
(الحجر ٩)

« تنزيل الذكر » قضية إيمانية لا تُمَسّ.

أمّا قصة « حفظ الذكر » من الضياع، والتي يقول بها أيضاً كل مؤمن بالوحي السماوي، فتلك قصة أخرى عند أهل الذكر أنفسهم في كيفية حفظهم له، ومدى هذا الحفظ؛ ومطابقته للنص الأصلي المنزل.

وبحثنا هذا درس علمي تاريخي على هامش عقيدة الوحي والتنزيل. يؤمن المسلم بأن النص الأصلي الذي فاه به الرسول منزل؛ أمَّا ما جمعه الجامعون، على أيام عثمان، بعد تطورات دامت ثلاثين سنة، فلا يُقْطَع بصحته إلاَّ بعد دراسة قصته.

يستفتح أهل القرآن على أهل التوراة والإنجيل بأن القرآن حُفِظ بمعجزة سالماً كما نزل على « النبي الأمّي »، ويستعلون عليهم متهمين إياهم بتحريف التوراة والإنجيل بينما هم قد حافظوا على صحة نقل القرآن، وسلامة حفظه: « إنّا نحن نزّلنا الذكر، وإنا له لحافظون »: هذه نبوَّة عن حفظ القرآن، وفي تواتر نَقْله سالماً عن الرسول معجزة تؤيد تلك النبوة[1].

---

(١) يتبادل المسلمون والكتابيون التهم بتحريف كل طائفة كتابها المنزل . وما ينسبه المسلمون إلى أهل التوراة والإنجيل من تحريف يقدر أهل الكتاب أن ينسبوه إلى المسلمين في قصة جمع القرآن . والأولى لهم جميعاً أن يعدلوا بعضهم مع بعض : فالتحريف كفر ، ولا يجتمع الإيمان والكفر على صعيد واحد . ولكن يمرّ التنزيل بين البشر ، فلا بدّ له أن يُطبع بطابعهم وبطابع البيئة التي نزل فيها وهذا مجال بحثنا . فالله مكلّف بحفظ وحيه ، ولكن هذه المعجزة تتفاعل مع الطبيعة البشرية وتحترم حريتها ، أساسَ ثوابها، كما أن الله أمر بالفطرة والوحي بالتوحيد ولكنه لا يغصب عليه الناس اغتصاباً : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » .

ومن روايات السلف الصالح، الواردة في الصحاح، عن المبادئ الأربعة التي استنَّها الرسول لأمته في قراءَة القرآن، وعن قصة جمع القرآن في إصداراته الثلاثة على أيام أبي بكر، وعثمان، والحجَّاج، تفوح شبهات قد يحار فيها المؤمن والمؤرّخ معاً.

بحث أول: بعض تلميحات قرآنية وأحاديث نبوية في شأن معجزة «حفظ القرآن»

نجد في القرآن **المكّي** هذه الآية: « وإذا بدلنا آية مكان آية، والله أعلم بما يُنزّل، قالوا: إنما أنتَ مفترٍ! ـ بل أكثرهم لا يعلمون. قلْ: نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين » (نحل ١٠١ ـ ١٠٢)؛ وقد جمع فيها التنزيل إلى التبديل، وقرن **التبديل بالتنزيل**: يردّ تهمة التعلّم من بشر (١٠٣)، ولا يردّ تهمة التبديل بل يجعله من روح القدس مثل التنزيل. « قالوا إنما أنت مفترٍ أي وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا، وكانوا يقولون: أن محمداً يسخر من أصحابه، يأمرهم اليومَ بأمر وينهاهم عنه غداً فيأتيهم بما هو أهون » (الزمخشري). **والتخفيف** سُنّة قرآنية يقول بها مراراً[1] ويشرعها كمبدَإٍ في سورة النساء: « يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » (٢٥ ـ ٢٧): « قال الكفرة: إنما أنت مفترٍ، متقوّل على الله: تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه » (البيضاوي).

ونجد في القرآن **المدني** هذه الآية: « ما نَنْسَخْ من آية، أو نُنْسِها[2]، نأتِ بخير منها

---

(١) في سورة البقرة وحدها يقول به مراراً : التخفيف في القصاص ١٧٨، وتحليل الرفث ليلة الصيام ١٨٧، وإتيان الحَرْث أنى شاؤوا ٢٢٣، وعدم المحاسبة على الوسوسة ٢٨٤ ـ ٣٨٦ .

(٢) للآية قراءات متعددة : قال البيضاوي : « قرأ ابن عامر «ما نُنْسِخْ » من أنسخ ، أي نأمرك نحن أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة . وقرأ ابن كثيّر وأبو عمر « ونَنْسَأها » أي نؤخّرها ، من النسيء . وقرئ « نُنْسِها » أي ننسي أحداً إياها. وقرئ « نَنْسَها » أي أنت، « وتُنْسَها » على البناء للمفعول . وقرَأ عبد الله بن مسعود : « ما ننْسِك من آية أو نَنْسَخْها » . وقرأ حذيفة : «ما ننسخ من آية ونُنْسِكَها « بإظهار المفعولين » .

وعلى نسخ آية بآية يقول الزمخشري : «فإن قلتَ : هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما يُنسخ بمثله ، ولا يصح بغيره من السنّة والإجماع والقياس ؟ قلتُ : فيه إن قرآناً يُنسخ بمثله ، وليس فيه نفي نسخه بغيره . وعلى أن السنّة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم فنسخه بها كنسخة بمثله . وأمّا الإجماع والقياس والسنّة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها » (٢ : ٤٣٤)

أو مثلها: ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير؟)) (بقرة ١٠٦) فالنسخ ـ بحسب القراءَة ـ منسوب إلى الله أو إلى جبريل أو إلى النبي. قال البيضاوي ((نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ... ونسخُ الآية بيان انتهاء القيد بقراءَتها أو الحكم المستفاد منه أو بهما جميعاً ... وإِنساؤها، إذهابُها عن القلوب)). فالقرآن يعترف بالنسخ في بعض آياته؛ والحديث كما سترى يروي بأن عثمان أسقط المنسوخ، ومع ذلك فالأمة تأخذ إلى اليوم بعقيدة الناسخ والمنسوخ، وتؤلّف الكتب لبيان ذلك.

ومن غريب الناسخ والمنسوخ ((ما نسخ تلاوته وحكمه معاً. قالت عائشة: ((كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله **وهنَّ ممّا يقرأ من القرآن**)). رواه الشيخان. وقد تكلموا في قولها ((وهن مما يقرأ من القرآن)). قال الأشعري: نزلت ثم رُفعت. وقال مكي هذا المثال فيه المنسوخ غير متلوٍّ والناسخ أيضاً غير متلوٍّ. ولا أعلم له نظيراً))[1] . وقال جلال الدين السيوطي أيضاً في اتقانه: ((**والنسخ ممّا خص الله به هذه الأمة** لِحِكَمٍ منها التيسير. وقد أجمع المسلمون على جوازه، وأنكره اليهود ظنّاً منهم أنه بداء. واختلف العلماء فقيل: لا ينسخ القرآن إلا بقرآن كقوله ((نأتِ بخير منها أو مثلها)). وقيل: بل يُنسخ القرآن بالسنّة لأنها أيضاً من عند الله)). بهذا أظهر السيوطي للقرآن ميزتان: الأولى النسخ؛ والثانية نسخ القرآن بالسنّة. وينكر هذا أهل الكتاب[2].

وآية التبديل (نحل ١٠١) أثارت الشكوك عند المشركين؛ وآية النسخ (بقرة ١٠٦) أثارت ((التساؤل حتى الكفر)) عند المسلمين أنفسهم: ((أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِل موسى من قبل، ومَن يتبدَّل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواء السبيل)) (بقرة ١٠٨)؛ لقد حذرهم من تشكيك اليهود لهم في التبديل والنسخ ونسيان القرآن (١٠٩)، وحسم التساؤل فيه والسؤال عنه بكلمة ذهبت مبدأً في التنزيل القرآني.

ونجد في القرآن **المكي والمدني معاً** الإقرار المتواتر **بنسيان القرآن**. وممَّا يؤيد ظاهرة نسيان النبي للوحي منذ مطلع بعثته هذا القول: ((سنقرِئك فلا تنسى إلا ما شاءَ الله)) (أعلى ٦ ـ ٧). وقد قال الطبري في ذلك: ((أَخبر أنه يُنسي نبيه منه ما شاء: فالذي ذهب منه

---

(١) إتقان ٢ : ٢٢ .
(٢) إتقان ٢ : ٢١ .

هو الذي استثناه الله » (٢ : ٤٨). وظلت هذه الظاهرة عالقة بالنبي طيلة العهد بمكة: ففي سورة الكهف: « واذكرْ ربك إذا نسيتَ ، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً » (٢٤)؛ وقال البيضاوي في ذلك « إذا فرط منك نسيان لذلك ... واذكر ربك وعقابه **إذا تركت بعض ما أمرك به**، ليبعثك على التدراك؛ واذكره **إذا اعتراك النسيان** ليذكّرك المنسي ». وفي العهد المدني يقرر بأن النسيان يعرض للنبي، وقد يفعله الله فيه: فنسيان الوحي ظاهرة بشرية نبوية إلهية في القرآن (الطبري: بقرة ١٠٦).

ويأتي **الحديث** فيبيّن لنا هذه الظاهرة بالأمثال ويصف كيفيتها ومداها. نقل الطبري[١] عن قتادة: « كان ينسخ الآية بالآية بعدها؛ ويقرأ نبي الله ص. الآية أو أكثر من ذلك ثم تُنسى وتُرفع ». وعن قتادة أيضاً: « كان الله ، تعالى ذكره، يُنسي نبيَّه ما شاء ويَنسخ ما شاء ». وعن مجاهد، كان عبيد الله بن عمير يقول: « نُنسِها، نرفعها من عندكم ». وعن الحسن: « إنَّ نبيّكم ص. **أُقرئ قرآناً ثم نسيه »**. وعن الربيع: « نُنسِها، نرفعها: وكان الله أنزل أموراً من القرآن ثم رفعها ».

فمن الثابت إذن « أن النبي اقرِئ قرآناً ثم نسيه » كما أن من الثابت أيضاً « إن الله أنزل أموراً من القرآن ثم رفعها ».

وقد ورد في الأخبار الصحاح أيضاً بعض من القرآن الذي رُفع: رُويَ عن أنسَ بن مالك: « إن أولئك السبعين من الأنصار الذين قُتلوا ببئر معونة قرأنا بهم وفيهم كتاباً (بلّغوا عنَّا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) ثم ان ذلك رُفع ». وروي عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا يقرأون: « لو أن لابن آدم واديين من مال لا يبتغي لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على مَن تاب[٢] ». وجاء على لسانه أيضاً إنها «نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت[٣]».

ويستنتج الطبري من الأخبار والأحاديث المتواترة عن نسيان النبي للوحي، ورفع الله بعض ما نزل في القرآن فيقول: « وما أشبه ذلك من الأخبار التي يطول بإحصائها الكتاب. وغير مستحيل في فطرة ذي عقل صحيح، ولا بحجة خبر، أن يُنسي الله نبيّه ص. بعض

(١) الطبري : تخريج الأخوين شاكر ، نشر دار المعارف بمصر ٢ : ٤٧٤ ـ ٤٨٠ .
(٢) الطبري ٢ : ٤٧٩ .
(٣) دروزة : قرآن مجيد ٩٠.

ما كان قد أنزل إليه. فإذ كان ذلك غير مستحيل من أحد هذين الوجهين، فغير جائز لقائل أن يقول: **ذلك غير جائز**)).

فإذا كان النبي ذاته قد ينسى ما نزل إليه، فكم بالأحرى القراء الذين لم يكونوا أنبياءَ معصومين ؟! جاء عن مُسلم أن أبا موسى الأشعري قال مرة لخمسماية من القراء بالبصرة: ((إنا كنا نقرأ **سورة بطول السهم** وحدها، أما الآن فقد نسيتها ما عدا بعض آيات منها)).

وهناك أيضاً ظاهرة غريبة فريدة يمتاز بها التنزيل القرآني، ولا يقول بها الكتاب ولا الزَّبور، ولا النبيون، ولا الحكمة ولا الإنجيل، ألا وهي إمكانية تدخل الشيطان في تحريف وإِفساد الوحي والتنزيل.

قال الجلالان في حديث الغرانيق: ((قرأ النبي ص. في سورة النجم بمجلس من قريش بعدَ ((أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)) بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه به ص. ((تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهنّ لتُرتجى)) ففرحوا بذلك. ثم أخبره جبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه من ذلك فحزن. فسُلّي بآية الحج ٥٢ ـ أخرجه البخاري عن ابن عباس وأورده ابن اسحاق في السيرة))؛ وزاد في (أسباب النزول): ((كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً)).

وقد يكون للقصة أصل، وقد تكون مدسوسة. وإنما المشكل المحرج ما ورد في سورة الحج تبريراً للقصة: ((وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى (قرأ) ألقى الشيطان في أمنيته. فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض)) (حج ٥٢).

فهذه الآية تؤكد ((إلقاء الشيطان في قراءة النبي ما ليس من القرآن)) (الجلالان). وتؤكد أيضاً أن هذا الدس الشيطاني جرى لمحمد، مثلاً في سورة النجم؛ ومما يزيد الأمر خطورة أن النبي لم ينتبه إليه ولم يشعر به حتى أخبره جبريل. وتؤكد كذلك، تعزية لمحمد، إن هذا السهو، وهذا التدخل الشيطاني اللاشعوري في الوحي قد حدث لسائر الرسل والأنبياء[١]: ((وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته)). فالقضية أخطر من إمكانية، بل هي واقع تاريخي يسجله القرآن على كل الأنبياء والرسل. وهذا الإذن الرباني الغريب بالسماح للشيطان، بتحريف الوحي وإفساده

(١) لا يذكر الكتاب والإنجيل شيئاً من ذلك عن أحد من أنبياء الكتاب .

أحياناً، يدعمه سبب أغرب وأحرج « ليجعل ما يلقي الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض ». أتسمح فتنة المنافقين بتحريف الوحي، ولو إلى فترة؟ وهل هذا السماح الذي بعده « يحكم الله آياته » يزيد في الإعجاز لإفحام الذين في قلوبهم مرض؟ ـ «والراسخون في العلم يقولون: آمنّا، كلٌّ من عند ربنا » (آل عمران ٧).

وقد يتخذ إبليس في فتنة الأنبياء عن التنزيل الحق وتبليغه أعواناً من الناس كما جرى لمحمد، في فتنته عن الوحي وفي فتنته بهجرة إلى الشام أرض الأنبياء: « وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذاً لاتخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ... وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها: وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً. ـ سنّةَ من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً » (إسراء ٧٣ ـ ٧٧). وعن ابن عباس « كادوا ليفتنوك:، ليستفزوك. لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً: لقد هممتَ أن تميل إليهم شيئاً قليلاً ». وقال البيضاوي: « والمعنى أنهم قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزال، عن الذي أوحينا إليك، من الأحكام، لتفتري علينا غير ما أَوحينا إليك. وقد قاربتَ أن تميل إلى اتباع مرادهم. والمعنى إنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتيالهم، لكن أدركتك عصمتنا ». ... ألم تتأخر بعض الشيء في مثله هذه المواقف التي يذكرها القرآن بصراحة؟

ويزيد الأمر غرابة واستغراباً أن الله أَذن في فتنة جميع الأنبياء في الوحي والسيرة آناً بعد آخر: « سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّة الله تحويلاً »: أيسمح الله بفتنة أنبيائه لفتنة خلقه ؟! تلك سنّة الله في رسله يفتن متى يشاء ويعصم متى يشاء!!

وتبلغ الفتنة إلى العجلة في القرآن. ويتأسى محمد أيضاً في ذلك بمثَل الرسل، وجدّهم الأول آدم: « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقلْ: ربي زدْني علماً. ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ولم نجد له عزماً » (طه ١١٤). يطلب النبي زيادة العلم بالوحي والقرآن حتى لا يعجل بتنزيله وحفظه وقراءته، ويتأسى بمثل آدم الذي نزل عليه الوحي، فأنساه إياه الشيطان، وأفسده عليه، وأغرى آدم وأزلّه.

ولذلك علّم القرآن محمداً وأُمته الاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن: « فإذا قرأتَ القرآن فاستعِذ بالله من الشيطان الرجيم » (نحل ٩٨)؛ جاءَ تعليم الاستعاذة بمناسبة التصريح بتبديل آية مكان آية؛ وهذا يؤيد ما ورد في سورة الحج ٥٢. إنه لأمر غريب،

وأيّم الحق، أن يأمر القرآن محمداً بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، قبل الاستفتاح باسم الله الرحمن الرحيم. وقد جرت العادة أن يستفتحوا القراءة بالاستعاذة، قبل الاستفتاح بالبسملة. ولولا سلطان الشيطان، الذي يأذن به الله على التنزيل والمؤمنين لمَا أمر القرآن محمداً وأمته بالاستعاذة من الشيطان الرجيم في قراءة القرآن.

بحث ثان: الرخص النبوية الأربعة في قراءة القرآن على سبعة حراف

ذاك واقع النبي في تنزيل القرآن.

وهذا واقع الأمة في قراءَته، على زمن النبي وبعده، قبل أن جمع عثمان المصحف الأميري.

استنَّ النبي العربي لأمته مبادئ أربعة لتلاوة القرآن قد تكون صِيَغاً متنوعة لحديث واحد: ((أنزل القرآن على **سبعة أحرف**)). وقد عمل الصحابة والأمة بهذه الرخصة أو الرخص نحواً من نصف قرن قبل أن يُجمع عثمان الأمّة على قراءة القرآن بحرف واحد، ولغة واحدة، وقراءة واحدة في مصحف واحد، هو المصحف العثماني الذي لم يبقَ غيره.

وحديث نزول القرآن على سبعة أحرف شائع متواتر نقلته جميع كتب الحديث وجميع كتب التفسير: ((أُنزل القرآن على سبعة أحرف)) ويزيد بعضهم ((فاقرأوا ما تيسّر منها)). ويزيد بعضهم: ((كلها شافٍ كافٍ ... أيَّها قرأت أصبت. فمن قرأ منها حرفاً فهو كما قرأ. فأيما حرف قرأوا فقد أصابوا ... كلها شافٍ كافٍ ما لم يختم آيةَ عذاب برحمة، أو آيةَ رحمة بعذاب كقولك: هلم وتعالَ[1])).

بحسب هذا الحديث كان النزول نفسه على سبعة أحرف. وهناك صيغة أخرى تجعل قراءَة القرآن على سبعة أحرف، وهي ذات مغزى: ((إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف))[2]، فهي تعني أنه نزل على حرف وقُرِئ على سبعة. وسواءٌ جاء الحديث بالصيغة الأولى أم بالأخرى فهو حديث ذو شؤون وشجون.

قال الطبري في تفسير ألفاظه: ((تقول العرب لقراءَة رجل: حرف فلان؛ وتقول

---

(١) الطبري ١ : ٢٠ ـ ٤٥ ، ويورد الشهود الذين سمعوا الحديث .
(٢) الطبري ١ : ٤٨ .

للحرف من حروف الهجاء المقطّعة حرف؛ كما تقول لقصيدة من قصائد الشاعر: « كلمة فلان[١] ». وقال غيره: « الحرف يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم، وعلى الكلمة الواحدة، ويقع هو والكلمة على الرسالة بأسرها والقصيدة بأسرها. جاء في القرآن: « لقد قالوا كلمة الكفر! من الناس مَن يعبد الله على حرف ».

والأخبار، عن اختلاف الصحابة في زمن النبي على قراءَة القرآن بنصوص مختلفة ، متواترة عديدة: نقتصر منها على بعضها.

نقل الطبري عن زيد بن أرقم: « جاء رجل إلى رسول الله ص. فقال: أقرأني عبد الله ابن مسعود سورة، أقرأنيها زيد وأقرأنيها أبي بن كعب فاختلفت قراءتهم: فبقراءة أيّهم آخذ ؟ قال، فسكت رسول الله ص. ، وعليّ إلى جنبه، فقال علي: ليقرأ كل إنسان كما عُلّم، كلٌّ حسنٌ جميل[٢] ». يختلف القرّاء الثقاة في النص بحضرة النبي، فيوسع علي حضرته، التوسعة في القراءة.

وحدث لعمر عن الخطاب من ذلك كثير. في حديث « أخرجه الستة » عن الزهري وغيره « إنهما سمعا عمر يقول: سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة **رسول الله** ص. فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرِئنْها رسول الله ص. فكدت أساوره في الصلاة، فتصبّرت حتى سلّم. فلما لبّبته بردائِه فقلتُ: مَن أقرأك هذه السورة التي سمعتُك تقرؤها ؟ قال اقرأنيها رسول الله ص. فقلتُ: كذبتَ! فوالله إن رسول الله ص. لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتُك تقرؤها. فانطلقتُ به أقوده إلى رسول الله ص. فقلتُ: يا رسول الله سمعتُ هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقرِئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال رسول الله: ارسله يا عمر. إقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرؤها. فقال رسول الله ص. هكذا أُنزلت! ثم قال رسول الله ص. إقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله ص. فقال رسول الله ص. هكذا أُنزلتْ. ثم قال رسول الله ص. إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه[٣] ». هذا الحديث يشعر بأن الاختلاف في النص بلغ مبلغاً كاد منه عمر

---

(١) الطبري ١ : ٥٢ .
(٢) الطبري ١ : ٢٤ .
(٣) الطبري ١ : ٢٤ .

أن يقتل صاحبه؛ ويشهد بأن الاختلاف في القراءة، ليس فقط من القراء، بل هو أيضاً من النبي نفسه الذي يثبت قراءتين ونصَّين معاً. وهذه القصة تجري مع عمر نفسه الذي سوف يشير بتوحيد النص عند استفحال الأمر في زمن أبي بكر. فالاختلاف في النص يعود إلى النبي وأركان صحابته.

ودخل الشك يوماً نفس عمر بن الخطاب من تثبيت محمد للحروف والنصوص على السواء: « قرأ رجل عند عمر بن الخطاب ر. فغيّر عليه. فقال: لقد قرأت على رسول الله ص. فلم يغيّر علي. قال فاختصما عند النبي ص. فقال: يا رسول الله ، ألم تُقرِئني آية كذا وكذا ؟ قال: بلى! فوقع في صدر عمر شيء. فعرف النبي ص. ذلك في وجهه، فضرب صدره وقال ابعِدْ شيطاناً ـ قالها ثلاثاً ـ ثم قال: يا عمر، إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة »[1]. هنا يذهب النبي في التوسعة في قراءة القرآن إلى أقصى مداها: يوسع ما وسعه في اختلاف الألفاظ والنصوص، ما لم تؤدّي إلى تناقض في المعاني. وهذه التوسعة توقع عُمَر في شك منها، يكون معه بحاجة إلى طرد الشيطان من صدره ثلاثاً.

وقد ساور الشك والارتياب من هذه التوسعة في القراءة بأحرف مختلفة الصحابيَّ أبي أكثر من مرة. وقد روي عنه قال: دخلتُ المسجد فصليت فقرأت النحل. ثم جاء رجل فقرأها خلاف قراءَتنا فدخل نفسي من الشك والتكذيب أشدّ **مما كنت في الجاهلية**. فأخذتُ بأيديهما فأتيتُ بهما إلى النبي ص. فقلت: يا رسول الله استقرِئ هذين. فقرأ أحدهما، فقال: أصبت! ثم استقرأ الآخر فقال: أصبتَ! فدخل قلبي أشد مما كان في الجاهلية من الشك والتكذيب. فضرب رسول الله ص. صدري وقال: أعاذك الله من الشك واخسأ عنك الشيطان »[2].

ووصل الشك في تلك التوسعة النبوية إلى كاتب الوحي نفسه، فقد أخبر سعيد بن المسيب: « ان الذي ذكر الله « إنما يعّمه بشر » (نحل ١٠٣) إنما افتُتنَ أِنه كان يكتب الوحي، فكان يُملي عليه رسول الله ص. « سميع عليم أو عزيز حكيم » أو غير ذلك من خواتم الآي. ثم يشتغل عنه رسول الله ص. وهو على الوحي، فيستفهم رسول الله ص.

---

(١) الطبري ١ : ٢٥ .
(٢) الطبري ١ : ٣٨ .

((أعزيز حكيم أو سميع عليم))؟ فيقول له رسولُ الله: أيَّ ذلك كتبتَ فهو كذلك. ففتنه ذلك فقال: ((إن محمداً وِكل ذلك إليّ فأكتبُ ما شئت. وهو الذي ذكر لي سعيد بن المسيب من الأحرف السبعة))[1].

ويشمل الاختلافُ في نص القرآن القومَ جميعهم في حضرة النبي. حدّث أبو العالية قال: ((قرأ على رسول الله ص. من كل خمسة رجل، **فاختلفوا في اللغة**، فرضي **قراءتهم كلهم** فكان بنو تميم أعرب القوم))[2]. وهنا يزيد عدد الحروف المختلفة، كما يظهر، على السبعة، ممّا يجعل عدد ((الأحرف السبعة)) رمزيّاً. ويرضى النبي قراءة الجميع كلٍّ بلغته وحرفه ويُقرّه عليها. وقوله ((فكان بنو تميم أعرب القوم)) يوحي بأن للقوم في إعراب القرآن وإعجازه يداً.

ويتصلب القوم كلٌّ في قراءَته بتحريض من الأئمة. رُوي عن ابن مسعود أنه كان يقول: ((من قرأ منكم على حرف فلا يتحوَّلنَّ منه إلى غيره))[3].

إلى هذا الحدّ وصلت الحالة في زمن النبي. وهو بنفسه يقرّ الاختلاف في ألفاظ القرآن، حتى جاء الحديث المتواتر يكرّس الوضع ويجعله مخرجاً عُلويَّاً بحديث ((الأحرف السبعة)).

*

أولاً: معنى نزول القرآن على سبعة أحرف :

سبعة نصوص مختلفة بمعنى واحد

فما معنى قول النبي: ((أُنزِل القرآن على سبعة أحرف، كلها شافٍ كافٍ، ما لم يختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب)) ؟

لقد اختلفوا في نوع الاختلاف بين هذه الأحرف السبعة: أهو في الألفاظ أم في المعاني؟

قال بعضهم: هو في **المعاني**، بتنوّعها إلى أمرٍ وزجر وترغيب وترهيب وقصص ومثلٍ، ونحو ذلك من الأقوال)). (الطبري ١ : ٤٧).

أما أكثر العلماء فهم على أنه **اختلاف الألفاظ ذاتها**، مع اتفاق المعاني.

---

(١) الطبري ١ : ٥٤ .
(٢) الطبري ١ : ٤٥ .
(٣) الطبري ١ : ٥١ و ٥٢.

١ـ فالطبري، إِمام المفسرين بالحديث، يرى « أن اختلاف الأحرف السبعة هو **اختلاف الألفاظ باتفاق المعاني** » (١ : ٤٨)[١].

بدأ فأكد صحة الحديث بشهادة عدد كبير من الصحابة، وذكر أن الصحابة تماروا في قراءة القرآن فاختلفوا في قراءته دون تأويله. وأنكر بعضهم قراءة بعض مع إدعاء كل قارئ منهم أن قراءَته قد أقرأه إياها الرسول نفسه. فاحتكموا إلى الرسول فكان حكمه أنه صوَّب قراءة كل قارئٍ منهم مع خلافها لقراءة أصحابه الذين نازعوه فيها. وأمر كلّ امرئٍ منهم أن يقرأ كما علم، حتى خالط بعضهم الشك في الإسلام لما رأى من تصويب الرسول قراءة كل قارئ على خلافها مع غيرها (١ : ٤٨ ـ ٤٩).

ثم أخذ يردُّ على تفاسيرهم الخاطئة: يرد زعم مَن قال: « إنه اختلاف في التأويل أي في المعاني المتعددة؛ وإن الذي تمارى فيه الصحابة كان اختلافاً في اللفظ دون ما تدل عليه التلاوة من التحليل والتحريم وما أشبه ذلك » (١ : ٤٩). ويرد على من قال إنها لغات سبع في حرف واحد في كلمة واحدة « بأنها باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني » (١ : ٥٧). ويرد فهم الأحرف السبعة أنها القراءات السبع الشائعة اليوم على المصحف العثماني « وأن اختلاف القراءَة في الرفع والجر والنصب ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة، كما هي القراءة اليوم، ليس من الأحرف السبعة في شيء. وان المِرَاءَ فيها لا يوجب كفراً » (١ : ٦٥). ويرد تأويل الحروف السبعة بمعاني القرآن المتعددة من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والجدل والقصص، والمثل » (١ : ٤٧ و ٥٣).

ويرد الطبري اعتراض قوم على كل اختلاف، مستشهدين بهذه الآية، « أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (نساء ٨٢) أنها تقصد

---

(١) ومن الذين تابعوا الطبري في تفسيره ، أبو عبد الله الزنجاني، قال: « المراد بالأحرف السبعة أوجه من المعاني المتفقة ، بالألفاظ المختلفة » . مما يجعلها سبعة نصوص مختلفة لقرآن واحد . وأبو جعفر النحاس في (كتاب الناسخ والمنسوخ) قال : « يُفهم من سلف الأمة وخيار الأئمّة أن معنى « نزل القرآن على سبعة أحرف » من أنه نزل بسبع لغات، وأمِر بقراءته على سبعة ألسن باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني . ومن الروايات الثابتة عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وسائر مَن قدمنا الرواية عنهم أنهم تماروا في القرآن فخالف بعضهم بعضاً في نفس التلاوة دون ما في ذلك من المعاني . وأنهم احتكموا إلى النبي ص. فاستقرأ كلّ رجل منهم ثم صوّب جميعهم في قراءتهم على اختلافها حتى ارتاب بعضهم لتصويبه إياهم . فقال رسول الله ص. للذي ارتاب منهم عند تصويبهم جميعهم : إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف » .

اختلاف المعاني والأحكام لا اختلاف الألفاظ والتعابير بدليل اختلاف الصحابة، كلٍّ في قراءته، وتصويب النبي لهم جميعاً (١ : ٤٨).

إذن **تعدُّد نصوص القرآن،** مع اتفاق المعاني، ناتج وواضح من حديث الأحرف السبعة؛ وبعض التبديل في المعاني والأحكام ظاهر من الناسخ والمنسوخ الذي أسقطه عثمان، وما بقي منه في مصحفه.

وينهي الطبري عرضه الطويل بقوله: « إن القراءَة بالأحرف السبعة لم تكن أمر إيجاب وفرض بل كان تأمر إباحة ورخصة » (١ : ٦٤). وقال « إن **الأحرف الستة الأخر أسقطها عثمان** ومنع من تلاوتها، ولا حاجة بنا إلى معرفتها » (١ : ٦٦) لأن الحكمة في جمع الناس على حرف واحد، والصواب ما فعل عثمان » (١ : ٦٣) بعد أن وصلت الحالة إلى أقصاها من الاختلاف والاقتتال.

ويلتفت إلى اعتراض بدهي: « فإن قال قائل: ما بال الأحرف الستة غير موجودة، إن كان الأمر في ذلك على ما وصفت، وقد أقرّهنّ رسول الله (ص) وأمر بالقراءة بهنّ الأمّة، وهي مأمورة بحفظها، فذلك تضييع ما قد أُمروا بحفظه؟ أم ما القصة في ذلك؟ قيل له: لم تُنسخ فترفع، ولا ضيّعتها الأمة؛ ولكن الأمة أُمرت بحفظ القرآن، وخيّرتْ في قراءته وحفظه بأيّ تلك الأحرف شاءِتْ. فرأت ـ لعلة من العلل أوجبتْ عليها الثبات على حرف واحد ـ قراءَته بحرف واحد ورفْضَ القراءَة بالأحرف الستة الباقية » (١ : ٥٩) فأتلفتْ واندثرت. وكانت العلة الموجبة تفاقم الخلاف على القراءَة، من مكة بحضرة الخليفة إلى الثغور في معارك القتال (١ : ٦٢). فلم يسلم إلا الحرف أي النص الذي أراده عثمان، وان يكن عثمان وجماعته غير معصومين في تفضيل الحرف الأفضل المعجز[١].

وبعد الطبري تضاربت الآراء وتعددت في فهم الحديث الشريف المذكور.

---

(١) كما يقول المسلمون بأن القرآن نزل على سبعة أحرف مختلفة الألفاظ متفقة المعاني ، يقول النصارى بأن الإنجيل نزل على أربعة أحرف مختلفة الألفاظ متفقة المعاني يؤيد بعضها بعضاً : إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا. ولكن رسل المسيح أبقوا على هذه الأناجيل أو الأحرف الأربعة للإنجيل ، ولم يقتتلوا عليها ، ولم يتلفوها ، حتى أنهم لم يتلفوا الأناجيل الأخرى المنحولة التي يسهل تمييزها من الأحرف الأصلية . بل إنهم ، مبالغة منهم على « حفظ أحرف الإنجيل الأربعة » كما تسلموها ، أبقوها جميعاً . بينما صحابة محمد أسقطوا أحرف القرآن الستة ، لاختلافهم عليها واقتتالهم ، ولم يسلم سوى الحرف العثماني الوحيد الباقي إلى اليوم .

٢- **فجاء السيوطي،** خاتمة المحققين، فعقد في « إتقانه » فصلاً قيماً[١] يعدد فيه تفاسيرهم المتضاربة. بدأ فأكد صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابياً ذكروه. وينقل خبر استفتاء شعبي أجراه الخليفة عثمان في المسجد، فشهد جميع الحاضرين بصحته وشهد هو علناً معهم على الإجماع عليه. ثم استهل تفسير الحديث بأغرب منه فقال: ليس المراد بالسبعة الأحرف **حقيقة العدد بل المراد التيسير** والتسهيل والسَّعَة.

وقال « اختُلف في معنى هذا الحديث على نحو **أربعين قولاً ...** وإنه من **المشكل الذي لا يدرى معناه.** لأن الحرف يصدق لغةً على حرف الهجاء وعلى الكلمة وعلى المعنى وعلى الجهة ».

ويختصر ما جاء مطولاً في الطبري: إن المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة، نحو أقبِلْ وتعالَ وهلمَّ وعجّل وأسرعْ ... وإلى هذا ذهب سفيان بن عُيَيْنَة وابن جرير الطبري وابن وهب وخلائق. ونسبه ابن عبد البرّ **لأكثر العلماء.** ويدل له ما أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي بكرة « ان جبريل قال، يا محمد إقرإ القرآن على حرف. قال ميكال: استزِدْه ... حتى بلغ سبعة أحرف. وقال: كلٌّ شافٍ كافٍ ما لم تخلطْ آية عذاب برحمة، أو رحمة بعذاب، نحو قولك: تعال واقبلْ وهلمَّ واذهبْ وأسرع وعجّلْ. هذا اللفظ رواية أحمد، وإسناده جيّد. وأخرج أحمد والطبراني أيضاً عن ابن مسعود نحوه. وعند أبي داود عن أُبَي: قلتُ « سميعاً عليماً » أو « عزيزاً حكيماً » ما لم تخلط آية عذاب برحمة، أو رحمة بعذاب. وعند أحمد من حديث أبي هريرة: أنزل القرآن على سبعة أحرف مثل « عليماً حكيماً » أو «غفوراً رحيماً ». وعنده أيضاً من حديث عمر بأن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرةً عذاباً وعذاباً مغفرة. أسانيدها جيدة. قال ابن عبد البرّ: إنما أراد بهذا **ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها،** أنها معانٍ **متفق مفهومها مختلف مسموعها،** لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه ويضادّه كالرحمة التي هي خلاف العذاب، وضده. ثم أسند عن أبي بكر أنه كان يقرأ « كلما أضاءَ لهم مشوا فيه » مرّوا فيه، سعوا فيه ... وكان ابن مسعود يقرأ: « للذين آمنوا انظرونا » أمهلونا، أخّرونا (١ : ٤٨)[٢].

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن : حديث الأحرف السبعة ١ : ٤٧ .

(٢) وينقل الطبري مثلاً على تصرف أنس بن مالك في قراءَته ، فقد قرأ : « إن ناشئة الليل هي أشدّ وَطْأً وأصوب ميلاً » (مزمل ٦) فقال له بعضهم : « يا أبا حمزة : إنما هي أقوم ! فقال : أقوم وأصوب وأهيأ واحد » (١ : ٥٢) .

وينقل السيوطي للحديث معنى آخر يعيد فيه نسبة الأحرف السبعة إلى أصحابها الأول: «إنها سبع قراءات لسبعة من الصحابة: أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وابن مسعود وابن عباس وأبَي بن كعب رضي الله تعالى عنهم» (١ : ٥٠). وهذه القراءات كانت قبل إصدار عثمان النسخة الموحّدة، فهي سبع نسخ مختلفة لقرآن واحد، فالسيوطي يزيد: «وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع لمصحف عثمان وهو جهل قبيح» (١ : ٥١).

وهكذا بلغت التوسعة في قراءة القرآن على سبعة أحرف، مختلفة في ألفاظها، مؤتلفة في معانيها، مداها البعيد، فلا يحدّها في زعمهم، وأمثالهم على زعمهم، سوى تناقض المعنى، كالفرق بين الرحمة والعذاب. فقد كان يكفيهم في زمن الرسول وفي حضرته وبتأييد منه أن يحافظوا على **سلامة المعنى دون سلامة الحرف والنص**. ونحن نتساءل: كيف يتفق هذا الحديث النبوي، وهذا العمل الصحابي بالحديث، مع معجزة حفظ القرآن ومعجزة إعجازه؛ وكلاهما يقومان على سلامة المبنى مثل سلامة المعنى؟؟ وعلى حفظ اللفظ دون تحريف لأجل حفظ المعنى الصحيح[١] ؟؟؟

٣ـ والرأي **الحديث** في فهم معنى الأحرف السبعة بأنها نصوص سبعة مختلفة نجده عند زعيم الأدب المعاصر، الدكتور طه حسين في كتابه (الأدب الجاهلي). فقد أحاط بآراء المحدثين والقدماء من المسلمين، كما أحاط بآراء المستشرقين. وانتهى إلى ما انتهى إليه الطبري إِمام المفسرين.

وقد أوجز هذه النظرية السيد محمد صبيح[٢] قال: «أثبت البحث الحديث خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد. ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ

---

(١) وهكذا ما يتشدّق به بعض جهلة المسلمين من تهمة تحريف التوراة والإنجيل ، والقرآن براء من مثل هذه التهمة (راجع كتابنا الإنجيل في القرآن ٦٤ ـ٩٠) يلصقها بعض غلاة النصارى واليهود بالقرآن الكريم قبل الجمع العثماني ، بشهادة حديث الأحرف السبعة وبسببه ، وسعة التوسعة في مدى تطبيقه : سبعة أحرف أي نصوص ، بألفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة ، لقرآن واحد ، شبهة قائمة على تحريف في القرآن قبل الجمع العثماني، والقرآن أيضاً براء من هذه التهمة . فصحّة التوراة والإنجيل والقرآن الجوهرية قائمة مهما قام عليها من شبهات وتهم .

(٢) محمد صبيح : عن القرآن ١٠١ ويرد إلى الأدب الجاهلي ٢٩ وما بعدها .

وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً ... حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول إنهما لغتان متمايزتان ...

« إن القرآن الذي تُلي بلغة واحدة ولهجة واحدة وهي لغة قريش ولهجتها، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تبايناً كثيراً ... وليست القراءات السبع المتواترة إلى يومنا بالأحرف السبعة التي أُنزل عليها القرآن، وإنما هي شيء وهذه الأحرف شيءٌ آخر.

« فالأحرف جمع حرف والحرف: اللغة. فمعنى « أُنزل القرآن على سبعة أحرف » إنه أُنزل على سبع لغات مختلفة في لفظها ومادتها. يفسّر ذلك قول ابن مسعود: إنما هو كقولك هلمَّ و تعالَ و أقبل . و يفسر قول أنس في الآية « ناشئة الليل هي أشدّ وطأ وأصوب ميلاً » أصوب وأقوم وأهدى: واحد. فالأحرف إذن هي اللغات التي تختلف فيما بينها لفظاً ومادة.

« وقد اتفق المسلمون على أن القرآن أُنزل على سبعة أَحرف أي على سبع لغات مختلفة في ألفاظها ومادتها. واتفق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف، والنبي بين أظهرهم، فنهاهم عن ذلك وألحّ في نهيهم. فلما توفي النبي استمرَّ أصحابه يقرأون القرآن على هذه الأحرف السبعة، كلٌّ يقرأ على **الحرف الذي سمعه من النبي**. فاشتدّ الخلاف والمراء في ذلك حتى كادت تقع الفتن بين الناس، ولا سيما في جيوش المسلمين.

« فرفع الأمر إلى عثمان فجزع له وأشفق. فجمع لهم المصحف الإمام وأَذاعه في الأمصار وأَمر بما عداه من المصاحف فمحي محواً. وعلى هذا مُحيت من الأحرف السبعة **ستة أحرف** ولم يبقَ إلا حرف واحد هو الذي نقرأه في مصحف عثمان. وهو حرف قريش. وهو الحرف الذي عادت فاختلفت لهجات القراء فيه، فمدّ بعضهم وقصّر بعضهم، وفخم فريق ورقق فريق، ونقلت طائفة وأثبتت طائفة. ثم أورد الأستاذ ما ورد في الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبري لتأييد رأيه ».

وهكذا فحديث الأحرف السبعة التي تختلف بالألفاظ فتكون ألسنةً مختلفة ذات نصوص مختلفة يبعث إشكالاً ضخماً على وحدة القرآن مع تعدد نصوصه إلى سبعة، وعلى صحة النص العثماني بعد إسقاط الحروف الستة، وعلى أفضلية إعجاز الحرف العثماني دون سواه. وهذا الإشكال الضخم تنبّه له أدباء العصر. فكان أهون ما عندهم **أنهم نفوه** أو كادوا. قال أحدهم: « والتوفيق بين هذه الأحاديث الكثيرة، التي تكاد تتفق في معناها، وما ذكرنا

من تفسير للأحرف السبعة عسير. ولكن لتفهم الأحاديث على أي وجه شاء الناس. أما الذي نعتقد أن من الخير فهمه هو عدم جواز هذا التبديل والتعديل في القرآن: فاختلاف الناس في شأن أحاديث جمعها المتأخرون من المسلمين، أهون بكثير من اختلافهم في شأن نصوص القرآن[1])).

ذاك هو التفسير الأول لحديث نزول القرآن على سبعة أحرف أي سبعة نصوص تختلف في مادتها ولغتها ولسانها؛ وبعض ما يجره ذاك الحديث من شؤون وشجون.

ثانياً: إِباحة القراءات المختلفة المتعددة: ((فاقرأوا ما تيسّر منه)).

إن حديث الأحرف السبعة يجرّ معه حديث القراءات المختلف عليها، وذلك قبل جمع وتوحيد النص العثماني للحروف والمصاحف في نص واحد ومصحف واحد: ((فاقرأوا ما تيسّر منه)).

وحديث القراءَات المختلفة قبل عثمان غير قصة القراءات السبع للنص العثماني. قال الإمام الزركشي في كتابه (البرهان): ((القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد ص. للبيان والإعجاز. والقراءَات، اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف وكيفيتها. والقراءات السبع متواترة عند الجمهور وقيل بل مشهورة. والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة. أمَّا تواترها عن النبي ص. ففيه نظر))[2]. وقد أوجز ابن الخطيب في (الفرقان) ما أجمع عليه أهل العلم على التعارض القائم بين حديث الأحرف السبعة وقصة القراءات السبع للنص العثماني: وقد زعم بعض القرّاء أن معنى الحديث ((إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسَّر منه)) هو القراءات السبع. وهذا القول إن دلّ على شيء فلا يدل إلا على سعة جهل قائليه وقلّة تبصّرهم. قال أبو شامة: ((ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدتْ في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبةً. وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل))[3].

وعن إباحة القراءات المختلفة قبل عثمان يعطي هذا المبدأ: ((ويؤخذ من معاني

---

(١) محمد صبيح : عن القرآن ١٢٦.
(٢) البرهان ١ : ٣١٨ ،١ الإتقان ١ : ١٣٨ ، الزرقاني على موطأ مالك ١ : ١٣٤ .
(٣) ابن الخطيب : الفرقان ١٢٣.

الأحاديث أن هذه القراءات جعلت للتسهيل والتيسير ... فأراد الله عز وجل بلطفه ورحمته أن يجعل لهم متّسعاً في اللغات ومتصرّفاً في الحركات كتيسيره عليهم في الدين))[1]. أجل مَن يسّر عليهم في الدين ألا يخفف عنهم بالتزام نص واحد في القرآن؟ ألا يبيح لهم إطلاق القراءَة به كما تيسّر لهم؟ والتوسعة في القراءات المختلفة قبل عثمان لم تنحصر في سبع بل أربتْ على سبع بحسب توسعة الرسول: فاقرأوا ما تيسّر منه. قال القاضي عياض: ((**هي توسعة وتسهيل لم يقصد به الحصر**))[2]. وقد أجمع الإمام الطحاوي والقاضي الباقلاني وأبو عمر بن عبد البر وغيرهم من أئمة الكلام على أن القراءات جميعها كانت **رخصة** في أول الأمر لتعسّر القراءة بلغة قريش على كثير من الناس. ثم نُسخت بزوال العذر، وتيسّر الحفظ وكثرة الضبط وتعلّم القراءَة[3].

وكانت القراءات قبل عثمان **مطلقات** على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن. قال ابن الخطيب: ((ويرجع تاريخ الاختلاف بالقراءات إلى زمن الصحابة ر. وهذا الذي حدا بعثمان ر. إلى كتابة مصحفه وجمع الناس على قراءة واحدة ... ولم يكتب عثمان المصحف إلاَّ خشية الاختلاف في القراءات، والتغالي فيها وتفضيل إحداها على الأخرى ... فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف **بوجوه من القراءات مطلقات** على الحروف السبعة التي أُنزِل بها القرآن ... حتى كانوا يقتتلون ويكفر بعضهم بعضاً ويقول أحدهم للآخر: قراءتي خير من قراءتك))[4]. والقراءات إنما جعلت على ألسنة القبائل ولهجاتها تلطفاً بالناس وتسهيلاً عليهم وتقريباً لأذهانهم[5].

وقد **أعطى المثل** في اختلاف القراءات الخلفاء الراشدون أنفسهم وأئمّة الصحابة معهم: فما اتفقوا على قراءة واحدة قبل عثمان. وقد أورد ابن الخطيب في (الفرقان) أمثلة متعددة على اختلاف القراءة عند أبي بكر وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وعثمان؛ ويليهم أُبَي بن كعب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وابن الزبير. ثم قال: ((وهذه القراءات ثابتة في مصاحف أصحابها ومنقولة عنها ... وكذا مصاحف التابعين ر.

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ١٣١ .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ١٢٦ .
(٣) ابن الخطيب : الفرقان ١٦٧ .
(٤) ابن الخطيب : الفرقان ١١٨ ـ ١١٩ .
(٥) ابن الخطيب : الفرقان ٩٨ .

فقد جاء فيها مالا يخرج عمّا قدمناه من مصاحف الصحابة ر. وقراءتهم وقد اكتفينا بما ذكرناه عن إيراد باقيه لضيق المقام »[1].

وانتشر الخلاف في القراءات من الحجاز إلى الامصار البعيدة، ومن لسان قريش إلى سائر لغات العرب: « وقد يقول بعض القرّاء إن القراءات نفسها داخلة في لغة قريش. وجوابنا على هذا: « قد يكون ما يقولونه حقاً، إلا أن ثمة اختلافاً في القراءات بين قريش نفسها على عهد عثمان ر. وقد سعى لإزالة أسباب هذا الاختلاف لتوحيد القراءة »[2]. وقد بلغ اختلاف الراشدين واختلاف الصحابة والتابعين إلى الامصار: « أخذ أهل البصرة القرآن عن أبي موسى الأشعري، وأهل الكوفة عن عبد الله بن مسعود، وأهل دمشق عن أبَي بن كعب، وأهل حمص عن المقداد بن الأسود. وقد كان كل قطر من هذه الأقطار، يدعي أنه أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً »[3].

فالخلفاء الراشدون وأئمة الصحابة مع تابعيهم يختلفون في قراءة القرآن قبل توحيد عثمان له: فأين النص الأصيل، وأين وحدة النص المنزل؟ وأنّى لعثمان وجماعته بعد دوام هذه الحال أكثر من ثلاثين سنة أن يهتدوا إليهما ما بين القراءات المختلفة المتعددة على كل حرف من الحروف السبعة ؟

واختلاف القراءات للنص العثماني يدلنا على مدى الفوضى التي كانت في القراءات قبل عثمان.

قال ابن قتيبة: قد تدبرتُ وجوه الاختلاف في القراءات فوجدتها سبعة أحرف: أولها الاختلاف في إعراب الكلمة وفي حركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتابة ولا يغير معناها. والثاني أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتابة. والثالث أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها. والرابع أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها. والخامس أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها. والسادس أن يكون الاختلاف في التقديم والتأخير. والسابع أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان[4] ». وقد جمع الإمام ابن مجاهد القراءات السبع، وعمل

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ١٠٦ .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ١٠٦ .
(٣) ابن الخطيب : الفرقان ٣٨ .
(٤) ابن الخطيب : الفرقان ١٢٦ مع أمثلة على كل وجه من وجوه القراءة .

غيره على « نشر القراءات العشر » وأوصلها بعضهم إلى الأربع عشرة قراءة للمصحف الأميري. « وعبارة القراءات السبع لم تكن قد عرفت في الأمصار الإسلامية حين بدأ العلماء يؤلفون في القراءات؛ والسابقون منهم كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي جعفر الطبري وأبي حاتم السجستاني ذكروا في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات[١] ». حتى قال الزمخشري: « إن القراءات اختيارية تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء[٢] ». واليوم، بعد توحيد النص العثماني وانتشار الخط والطباعة « **قد بلغ الاختلاف في القراءات حداً لا مزيد عليه**[٣] » فكيف كانت الحال قبل عثمان؟ وكيف أمكن اللجنة العثمانية أن تهتدي سواء السبيل؟ قد فرض عثمان حرفاً واحداً ارتضته الأمة واختلفت في قراءَته أيّما اختلاف؛ فكيف لا تختلف كل الاختلاف في قراءة أحرف سبعة رضي بها النبي، وسمح بالقراءَة بها على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم.

أدت التوسعة النبوية إلى فوضى كادت تنتهي بالاقتتال. فجمع عثمان المسلمين على حرف واحد وقراءَة واحدة بلسان واحد « بإيجاب قراءة واحدة بلغة قريش[٤] »؛ وعلى كل حال لم تكن قراءَة عثمان وجماعته قراءَة النبي: « وقول الزركشي: إن تواتر القراءات عن النبي ص. فيه نظر، دليل على أن القراءات متواترة عن أصحابها فقط . أما تواترها عن رسول الله إليهم فهو لا يوافق عليه ولا يقره. أو هو على الأقل موضع شك وبحث ونظر[٥] ».

إذا كانت القراءات متواترة عن أصحابها فقط ، وتواتر حرف، وتواتر قراءة هذا الحرف عن النبي موضع شك وبحث ونظر؛ يتساءَل المؤمن بمرارة: كيف استطاع عثمان وجماعته أن يستخلصوا الحرف الأصلي والقراءَة النبوية من الحروف السبعة والقراءات المتعددة المتنوعة « وقد كانوا غير معصومين. وقد وردت روايات كثيرة صحيحة بما أخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء في القرآن وغيره من أمور الدين على عهد رسول الله ص. وفضلاً عن ذلك فقد كُذب عليهم في شتى الأحاديث[٦] ».

---

(١) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ١٤٨ .
(٢) تجده في البرهان ١ : ٣٢١ .
(٣) ابن الخطيب : الفرقان ١٢٠ .
(٤) ابن الخطيب : الفرقان ١٢١ .
(٥) ابن الخطيب : الفرقان ١٢٣ .
(٦) ابن الخطيب : الفرقان ١٥٩ .

ومما يزيد الشبهة إن عثمان نهى عن قراءَة القراءات بتاتاً ووافقه على ذلك جميع الصحابة ر. بل قد تمَّ اتفاقهم على إحراق ما عدا قراءة قريش من المصاحف[1])). وقال ابن حجر: ((وقد كان ذلك سنة خمسة وعشرين[2])).

فهذا التوحيد بالنار والحديد في نص القرآن وقراءته، موضع شبهة لا تزول.

ثالثاً: الرخصة في قراءَة القرآن بجميع لغات العرب.

بعد التوسعة في نزول القرآن على سبعة أحرف، وبعد إباحة قراءَة هذه الأحرف بقراءات متعددة، تأتي الرخصة النبوية في قراءة القرآن بجميع لغات العرب.

قد ألفوا كثيراً، قديماً[3] وحديثاً في علم لغات القرآن. وقد أوجز طه حسين في كتابه (الأدب الجاهلي) تلك البحوث التي أثبتت الخلاف الجوهري بين لغات اليمن ولغة الحجاز. وكان أبو عمرو بن العلاء يقول بأنهما لغتان متمايزتان. ويتسع تعدد لغات العرب حسب الأقوام الذين ينسبونهم إلى العرب مثل الأنباط ، والتدمريين، والبابليين. ((واللغة العربية تتسع وتضيق بمقدار ما تتسع البلاد العربية وتضيق، وبمقدار ما يتسع الجنس العربي ويضيق[4])).

وقد جاءَت رخصة النبي للعرب بقراءة القرآن في لغاتهم. فقرأوه بسائر لغاتهم ((أما جمع عثمان ر. فلم يكن إلاَّ لكثرة اختلافهم في وجوه القراءة حتى أنهم قرأوه **بسائر لغاتهم على اتساع تلك اللغات**. فأدى ذلك إلى اختلافهم وتخطئة بعضهم بعضاً؛ فلما خشي عثمان تفاقم الأمر جمع المصحف مقتصراً على لغة قريش محتجّاً بأنه قد نزل بلغتهم[5])). وفي قريش أيضاً قرأوه بقراءات مختلفة.

وقد حاول بعضهم أن يحصر تلك القراءات المتعددة بسبع، تفسيراً منهم لحديث الأحرف السبعة. قال الطحاوي: ((إنما كان ذلك رخصة أن يقرأ الناس القرآن على **سبع**

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ٢٣٥ .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ٤٠ .
(٣) ذكر ابن النديم في الفهرست أسماء ستة كتب في لغات القرآن : ((كتاب لغات القرآن)) للفراء ، ولأبي زيد ، وللأصمعي وللهيثم بن عدي ، وللقطيعي ، ولابن دريد . وكلها تحت اسم واحد .
(٤) طه حسين : الأدب الجاهلي .
(٥) ابن الخطيب : الفرقان ١٢٠ .

لغات. وذلك لما كان يتعسّر على كثير من الناس التلاوة على لغة قريش وقراءة رسول الله ص. لعدم علمهم بالكتابة والضبط واتقان الحفظ[1])). ولكن هذا التفسير وهذا الحصر يتنكر لها الواقع.

ونجد في تعدّد القرآن العثماني دليلاً حاسماً على فوضى تعدد اللغات التي قرأ بها العرب القرآن قبل جمعه.

و ((غريب القرآن[2])) الذي لم يكن يفهمه صحابة النبي المقربون سجلٌ حافل بما بقي من آثار تداول القرآن بلغاتهم المختلفة، حتى رفعوا إلى النبي قوله: ((اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه)).

وما ((وقع فيه بغير لغة الحجاز[3])) سجل آخر واسع، من رواسب مرور النص الأصيل على لغات عرب الجنوب. وهذا ليس من اللسان القرشي، العربي المبين؛ قال الواسطي في (الإرشاد): ((ليس في القرآن حرف غريب من لغة قريش غير ثلاثة أحرف لأن كلام قريش سهل لين واضح، وكلام العرب وحشي غريب)). ثم قال: ((في القرآن من اللغات خمسون لغة: لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وتغلب وطي وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة)) ـ قد تمتزج هذه اللغات بلغة قريش، ولكن ما الداعي إلى استعمالها في القرآن المعجز، وفي لغة قريش اللسان العربي المبين غنىً عنها ؟!

وما ((وقع فيه بغير لغة العرب[4])) مشكل آخر أبلغ، نتج أيضاً من الرخصة بقراءَة القرآن بما تيسّر. قال السيوطي: ((وأقوى ما رأيته للوقوع، وهو اختياري، ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان)). فكيف فيه من كل لسان ((وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه))؟ قال ابن جرير: ((ما

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ١١٣ .
(٢) راجع فيه فصلاً قيماً في الإتقان ١ : ١١٥ ـ ١٢١ .
(٣) راجع فيه أيضاً فصلاً قيماً في الإتقان ١ : ١٣٤ ـ ١٣٦ .
(٤) راجع فيه أيضاً فصلاً قيماً في الإتقان ١ : ١٣٧ ـ ١٤٢ .

ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن أنها بالفارسية والحبشية أو النبطية أو نحو ذلك إنما اتفق فيها توارد اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد. وقال غيره: بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعد مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظ غيّرتْ بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاورتها حتى جرت مجرى العرب الفصيح ووقع بها البيان. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن. وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام، بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية، والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً: وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية. ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب. فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق)). ـ ولكن كثرة الألفاظ الأعجمية الباقية في النسخة العثمانية لا تفسرها تفسيراً كاملاً تلك النظرات؛ بل ((أكثر من مئة لفظة[1])) افلتت في مصحف عثمان القرشي دليل على وجود أكثر منها في الحروف الستة أسقطها عثمان من التداول. ولا يفسّر هذه الكثرة المذهلة، وفي اللسان القرشي المبين غنىً عنها، سوى الرخصة بقراءة القرآن في سائر لغات العرب بل في ((كل لسان[2])).

وقد جمعها السيوطي في مؤلف خاص أسماه ((المتوكلي)) يسرد فيه ما جاء بالحبشية وما جاء بالفارسية وما جاء بالرومية و ما جاء بالهندية وما جاء بالسريانية وما جاء بالعبرانية وما جاء بالنبطية وما جاء بالقبطية وما جاء بالتركية وما جاء بالزنجية وما جاء بالبربرية ... ((وهكذا تجد أن القرآن الكريم يكاد أن يجمع بين دفتيه سائر اللغات الذائعة الشائعة في وقت نزوله[3])).

نقبل إنه بسبب اختلاط الأعاجم بالأمة العربية قبل نزول القرآن قد انحدرت إليهم ألفاظ من لغاتهم واستعملتها العرب حتى حسبتها من لغتهم وما هي منها. وذلك لذيوع هذه الألفاظ واشتهارها في ذلك العهد ولعدم وجود ما يقوم مقامها بالتحديد في أصل اللغة[4].

---

(١) إتقان ١ : ١٤١ .
(٢) إتقان ١ : ١٣٧ .
(٣) ابن الخطيب : الفرقان ٢١١ ـ ٢١٧ مع احصاء كامل لهذه الكلمات الأعجمية في القرآن .
(٤) ابن الخطيب : الفرقان ٢١١ .

ونفهم أن يدخل العربية والقرآن كلمات من الحبشية والفارسية والرومية والسريانية لاختلاط العرب بهذه الأقوام في الداخل والخارج[1]. أما ما جاء في الحرف العثماني الموحّد بالنبطية (مثل سري: نهر؛ طه: رجل؛ رهواً: سهلاً، وراءَهم: أمامهم)؛ وما جاء بالقبطية (مثل مزجاة: قليلة؛ ومن تحتها: من بطنها؛ بطائنها: ظواهرها؛ الجاهلية الأولى: الآخرة؛ في الملة الآخرة: الأولى، والقبطية تسمّى الآخرة الأولى، والأولى الآخرة)؛ وما جاءَ **بالتركية** (مثل غسّاق: الماء البارد المنتن)؛ وما جاء بالزنجية (مثل حصب: حطب؛ مِنْسَأة: عصا)؛ وما جاء بالبربرية (مثل مهل: عكر الزيت؛ إناهُ: نضجه؛ ومن عين آنية: جارية؛ الأب: الحشيش) فلا نفهمه، ولا نجد له مسوّغاً في اللسان العربي المبين المعجز. بانتقال القرآن إلى هذه الأمصار قد أثرت لغاتـها في لغة القرآن. وإذا كان هذا التأثير قد نفذ إلى النص العثماني بلغة قريش، فكيف كانت الحال قبل التطهير العثماني، وتوحيد النص على حرف واحد وقراءة واحدة ولغة واحدة؟

فالقرآن نزل بلسان قريش وليس بسائر لغات العرب، نزل بلسان قومه وليس بألسنة الأقوام المجاورة. نزل القرآن بلغة العرب وليس بلغات الأعاجم القريبين أو البعيدين. نزل «قرآناً عربياً غير ذي عوج » (زمر ٢٧ زخرف ٣ طه ١١٣)، نزل « لساناً عربياً » (أحقاف ١٢ مريم ٩٧) « ولم يجعل له عوجاً » (كهف ١) بل « بلسان عربي مبين » (شعراء ١٩٥) حتى أن محمداً ردّ تهمة قومه له أنه يعلّمه بشر بأن « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (نحل ١٠٣): فاستشهد لصحة قرآنه بصحة لغته العربية الفصيحة. فمن أين جاءته، بعد التوحيد العثماني القرشي للنص، هذه اللغات العربية الأعجمية؟ وكيف كانت الحال قبل الإصلاح العثماني ؟؟

لا شك إنها كانت حالة فوضى، كفّرت الامصار فيها بعضُها بعضاً، في النصوص والقراءات واللغات، واقتتل المعلمون والغلمان في مكة والمدينة على مشهد ومسمع من الخليفة والصحابة، ممّا حدا إلى فرض نصّ موحّد.

قال أيضاً السيد صبيح[2]: « وهذه الآيات صريحة الدلالة على أن النبي كان يتلو القرآن **باللسان العربي المبين الذي يعلمه هو**. وقد حرصت آيات كثيرة على تأكيد هذا المعنى ...

---

(١) يذكر الكتاب المقدس رحلات العرب إلى أبواب بابل (اشعيا ١٣ : ٢٠) .
(٢) محمد صبيح : عن القرآن ١١٣ .

فهل كان النبي يعرف لغة غير لغة قريش الحجازية المكية التي نراها في القرآن وفي ما صح من الأحاديث؟ ... مهما اختلف الباحثون فقد أصبح واضحاً جليّاً أن اللغة **العربية في الجاهلية لم تكن لغة واحدة** يتفق نطقها وصرفها ونحوها. لم يبق هناك شك في أن جزيرة العرب كانت مستقر **شعوب لا شعب واحد**. وكانت هذه الشعوب **تنطق بلغات كثيرة** قد تتفق بينها بعض الألفاظ كما تتفق اليوم بعض ألفاظ اللغة الفرنسية والانجليزية. ولكن كل لغة قائمة بنفسها، مستقلة استقلالاً لا شك فيه)).

فليس إذن بصحيح ما يقوله الأستاذ دروزة[١] من ((أنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن. وأن لغة قريش، التي هي لسان النبي الذي يسَّر الله القرآن به، كانت لغة العرب جميعهم)). والأستاذ نفسه يقول ((بوجود أفراد قليلين أو كثيرين أو قبائل برمتها تجهل المعنى الحرفي لقليل أو كثير من مفردات القرآن، وحتى بعض تعابيره أيضاً[٢])). لذلك فإن إزالة الشبهات والمشاكل القائمة بمثل هذا التعارض في التحليل اسلوب مفضوح. فمن البدهي أن اختلاف القراءة في لغات يختلف ((نطقها وصرفها ونحوها)) أدّى إلى تأثّر النص القرآني بها، وإلى تعدد وتنوّع القراءات في القرآن الواحد، كان سببها الرخصة بقراءة القرآن بلغة غير لغة قريش التي نزل بها.

جاءَ في شرح المواقف (٤٩٠) إن في النص العثماني الموحّد ((من الاختلافات ما يزيد على اثني عشر ألفاً)): فكيف كان قبل عثمان وقبل انتشار الكتابة والقراءة الموحّده في المصحف الأميري؟ وقال آخر إن القرآن احتوى، في النص العثماني الموحّد، جميع لغات العرب والعجم: فكيف كانت الحال قبله ؟؟ والقول بأن هذه الألفاظ تعرّبت ودخلت لغة قريش قبل القرآن فنزل بها[٣] لا يفيد كبير أمر. لأنه إن ((فهم الصحابة القرآن إجمالاً، فإنّ ألفاظاً غير قليلة استغلقت عليهم. بل إن بعضها لا يزال مستغلقاً علينا إلى اليوم، مع أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا[٤])). مع أن القرآن نزل بلسان قريش، لسان عربي مبين، قرآناً عربياً غير ذي عوج! (شعراء ١٩٥ وزمر ٢٧).

---

(١) محمد عزة دروزة : القرآن المجيد ١٥٨ .
(٢) محمد عزة دروزة : القرآن المجيد ١٥٩ .
(٣) محمد صبيح : عن القرآن ١٢٤ .
(٤) محمد صبيح : عن القرآن ١١٧ .

فكيف تتّفق سلامة النص المنزل الوحيد مع واقع تعدد اللغات العربية والأعجمية في القرآن، في النص العثماني الموحّد، وخصوصاً قبله؟

فرخصة قراءة القرآن بسائر اللغات مدهشة، ونتائجها مذهلة، تحوم منها شبهات على سلامة النص العثماني وسلامة إعجازه. ولكنها شبهات لا غير.

رابعاً: الرخصة بقراءة القرآن بالمعنى دون اللفظ.

وتبلغ الشبهات مداها في إجازة الصحابة قراءة القرآن بالمعنى دون اللفظ. وفي هذه التوسعة الرابعة يبلغ حديث الأحرف السبعة حدَّ التطرّف تفسيراً وتطبيقاً.

ويظهر أن ابن عباس كان على هذه الطريقة، يجيزُ القراءة بالمعنى[1]. وهو مذهب بعض الصحابة كمجاهد وأُبَي بن كعب الذي كان يقرأ بدل «انظرونا» (حديد ١٣) أمهلونا، أخرونا، ارقبونا؛ وبدل «مشوا فيه» (بقرة ٢٠) مروا فيه، سعوا فيه[2]. وقد أجاز هذه الطريقة الخلفاء الراشدون وعملوا بها عند الضرورة، من ذلك أجازه عمر لإعرابي لم يستطع أن يلفظ «طعام اليتيم» (دخان ٤٣) أن يقرأ «طعام الفاجر[3]».

وابن الخطيب، بعد ما يورد أمثلة من قراءة بعض الخلفاء والصحابة يقول: «وهذه القراءات مهما تُنوزع فيها وقيل بشأنها فإنها لا تختلف بالحدود ولا الفرائض ولا شيء من شرائع الإسلام - قلَّ أو كثر - بل هي ممّا اقتضته الفطرة اللغوية، واختلاف اللهجات والألسن مما قام وقت نزول القرآن ولم تعد للناس به حاجة خصوصاً بعد إجماع عثمان وسائر الصحابة على تركه[4]». وقد أجازوا القراءة بالمعنى لأنها في نظرهم «لم تختلف في شيء من شرائع الإسلام».

وقال أيضاً ابن الخطيب: «ولا يتنافى هذا مع قوله جلّ شأنه: «إنَّا نحن نزّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون» (حجر ٩) لأن المراد **بالحفظ مفهوم الألفاظ لا منطوقها ..** لأن الألفاظ ما صيغت إلا ليُستدَلّ بها على معان مخصوصة، قصد بها أوامر ونواهٍ

(١) ابن الخطيب : الفرقان ١٠٩ .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ١١٣ .
(٣) ابن الخطيب : الفرقان ١١٥ .
(٤) ابن الخطيب : الفرقان ١١٤ .

وعبادات ومعاملات. وجميعها مصان محفوظ مهما تقادم الدهر وتطاول العمر[1])). وهكذا تقتصر **معجزة** ((حفظ القرآن)) في جوهرها على حفظ مفهوم الألفاظ لا منطوقها[2].

وقد يكون هذا المبدأ الذي عَمل به في حياة النبي وصحابته من بعده، في جواز قراءة القرآن بالمعنى لا بالحرف، هو التفسير الكامل الشامل للحديث الشريف ((أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوها ما تيسر منه)). فقد توسع النبي، وتوسع الخلفاء الراشدون وتوسع أئمة الصحابة في تيسير قراءَة القرآن إلى إجازة قراءته بالمعنى لا بالحرف، مقتصرين على حفظ ومفهوم الألفاظ لا منطوقها، حاصرين هذا المفهوم، لا في المتشابه من آياته، بل في المحكم منها، في التشريع والأحكام.

وتلك إجازة خطيرة قد ينتج منها أسوأ الآثار. قال الدكتور صبحي الصالح، الأستاذ في كلية الآداب بدمشق[3]: ((وكل هذا يهون أمام المشكلة الخطيرة التي أثارها بعض كبار المفسرين عن حسن نية، ففتحوا بها الباب على مصراعيه لشبهات المستشرقين وضعاف الإيمان من المؤمنين. وتتمثل هذه المشكلة في حصر هذا الفريق من العلماء المراد بالأحرف السبعة في سبعة أوجه من المعاني المتفقة، بالألفاظ المختلفة، نحو أقبل وهلمّ وتعال وعجل وأسرع وانظر واخر وامهل؛ ونحوه)) (البرهان ١ : ٢٢٠). وظاهر لفظ الطبري في تفسيره ربما أفاد هذا، فهو يستشهد بقول النبي لابن الخطاب: ((يا عمر إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة)) (١ : ١٠). فكان لا بدّ أن يتشبث المستشرق بلاشير بهذا ليؤكد: ((ان نظرية القراءة بالمعنى كانت بلا ريب أخطر نظرية في الحياة الإسلامية)) لأنها أسلمت النص القرآني إلى هوى كل شخص يثبته على ما يهواه[4])).

تلك هي الرخص الأربع التي استنّها النبي لأمته لتيسير قراءة القرآن عليهم. وقد عمل بها الخلفاء الراشدون وأئمة الصحابة، حتى الغلمان في المدارس والجنود في حروب الفتح. وقد أوصلتهم إلى إجازة القراءة بالمعنى دون اللفظ المنزل.

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ٥٢ .
(٢) ولابن الخطيب تفسير آخر لمعنى معجزة حفظ القرآن : ابقاء شريعته وأحكامه إلى يوم القيامة (فرقان ٤٥) .
(٣) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن : دمشق ١٩٥٨ ص ١٣٧ .
(٤) قابل .Blachère: Intr. Cor 69 Geschichtes des Qorans III 105 .

والصحة التي يتطلبها كل كتاب، خصوصاً إذا كان منزلاً، هي سلامة ألفاظه في سبيل سلامة معانيه، فالمعجزة المطلوبة لصحة الكتاب هي قبل كل شيء الأمانة الكاملة في حفظ نصّه من التغيير والتبديل، وإلا فقدت المعجزة مقوّماتها. ألا يجوز أن نتساءل والحالة هذه: أين هي المعجزة في «حفظ الذكر» بعد الرخص الأربع في قراءة القرآن وعمل الصحابة بها ـ مدة نصف قرن تقريباً قبل توحيد الحرف العثماني ـ من تيسير قراءة القرآن بالأحرف السبعة، ورخصة قراءته بالقراءات المختلفة والتوسعة في تلاوته بحسب لغات العرب جميعهم، والإباحة في نقله بالمعنى لا بالحرف؟

والمعروف أيضاً أن معجزة القرآن الخالدة، دون سائر الكتب المنزلة، هي **إعجازه**. والإعجاز المطلوب هو قبل كل شيء في لغته وبيانه «بلسان عربي مبين غير ذي عوج» ـ لاشتراك معانيه في الإيمان بالله واليوم الآخر، بينه وبين الكتب المنزلة قبله. أولا يجوز أن نتساءل أيضاً: أين هي معجزة الإعجاز البياني بعد المبادئ الأربعة التي أستنّها النبي لأمته في قراءة القرآن بالأحرف السبعة، ورخصة قراءته بحسب القراءات المختلفة مع الحفاظ على المعنى، وتوسعة تلاوته بحسب لغات العرب جميعاً، وتسهيل نقله بالمعنى دون اللفظ؛ وذلك بعد أن عمل الصحابة والأمة بهذه المبادئ مدة نصف قرن تقريباً منذ البعثة إلى توحيد النص العثماني؟ ممّا حمل الجاحظ على اعتبار إعجاز القرآن إعجاز أمّة، لا إعجاز فرد.

ومع ذلك فإعجاز القرآن قائم. وهناك إعجاز من نوع آخر في مقدرة عثمان وجماعته ـ وليس بهم عصمة ـ على اختيار النص الأصلي من بين سبعة، واختيار القراءة المنزلة من بين قراءات متعددة مختلفة، واختيار لغة التنزيل من بين سائر لغات العرب التي تناقلت القرآن بحسب لسانها، واختيار المعنى الموحى بعد تعدد ألفاظه وتنوعها بين الحروف المختلفة واللغات المختلفة والقراءات المختلفة.

ونتساءل أخيراً بشأن الرخص الأربع في قراءة القرآن: كيف تنسجم هذه التوسعة الواسعة مع تصريحات القرآن المتواترة: «واتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك: لا مبدّل لكلماته»؛ وأيضاً: «وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً: لا مبدّل لكلماته، وهو السميع العليم» (أنعام ١١٥) ...

بحث ثالث: وسائل حفظ القرآن قبل جمعة

يقترن حديث قراءة القرآن على سبعة أحرف، في رخصه الأربع، بقصة نقل القرآن وطرق نقله البدائية.

تلك الرخصة الواسعة، والتوسعة العريضة في قراءة القرآن بأحرف متعددة وقراءات مختلفة، ولغات متنوعة، تحافظ على سلامة المعنى من التناقض، دون الألفاظ والتعابير المنزلة، أرست في عقيدة الأمة أنها « وان كانت مأمورة بحفظ القرآن، فقد خُيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف شاءت »[1]، وسهلت عليهم في ذلك العصر حفظ القرآن بوسائلهم البدائية.

كان الاعتماد في الحفظ على **الذاكرة**. والذاكرة ـ حتى ذاكرة النبي ـ ليست بالمثال الأعلى لحفظ الوحي، والأمانة على سلامة ألفاظه من كل شائبة.

يؤكد القرآن مراراً أن النبي كان ينسى من الوحي (أعلى ٦)، ويجاهد في حفظه ويضرع إلى ربه أن لا ينسى (كهف ٢٤). فيأتيه الجواب أنه لا بدّ من أن ينسى، والله ذاته قد يُنسيه منه (بقرة ١٠٦). وقد ورد في الأخبار: « ربما نزل على النبي الوحي بالليل ونسيه بالنهار، فأنزل الله آية النسخ »[2] وأيضاً « إن نبيكم ص. أقرئ قرآناً ثم نسيه:[3] وكان محمد يصلي: « اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت »[4]. فإذا كان واسطة الوحي المصطفى، الذي اختاره الله من دونهم لتبليغ رسالة ربه، ينسى من القرآن ليومه فكم بالأحرى أولئك الحفظة البدائيون الذين حضروا التنزيل اتفاقاً وعرضاً، ولم يكونوا مقيدين بحرف واحد، وقراءة واحدة، ولغة واحدة ؟

قال محمد صبيح: « ولا بدّ لنا هنا أن نسأل سؤالا آخر: هل كان الصحابة جميعاً يحفظون القرآن كله؟ ـ المرجح إنهم لم يكونوا يحفظون كل القرآن. وسنرى حينما نتحدث عن جمع زيد بن ثابت للقرآن أنه وجد مشقة كبيرة في العثور على رجل يحفظ القرآن كله. وورد في (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين: « ولم يكن شائعاً في عهد النبي ص. حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد. إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات، ويتفهمون معانيها، فإذا حذقوا ذلك انتقلوا إلى غيرها. **فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة** »». قال أبو عبد الرحمان السلمي: « حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفّان

---

(١) الطبري ١ : ٥٩ .
(٢) أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين .
(٣) الطبري ١ : ٤٧٣ ـ ٤٨٠ .
(٤) أبو منصور الأرجاني في كتاب فضائل القرآن .

وعبد الله بن مسعود أنهم كانوا، إذا تعلموا من النبي ص. عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران، جدّ في أعيننا (رواه أحمد في مسنده). وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين، ذلك أنه إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم[1])).

فإذا كان ثمة من معجزة في حفظ القرآن، يجب أن تبدأ تلك المعجزة بالنبي قبل صحابته؛ فلا ينصّ القرآن والحديث والسيرة وأسباب النزول على أن محمداً كان يَنسى أو يُنسى من القرآن ما بين ليلة وضحاها.

والوسائل الأخرى الأثرية لحفظ القرآن من الضياع، غير الذاكرة، لم تكن هي الأخرى دون شبهة. نقل البخاري وغيره حديث زيد عن كيفية جمعه القرآن لمَّا كلفه أبو بكر وعمر بذلك، قال ((فتبعت القرآن أجمعه من العُسُب والقحاف وصدور الرجال[2])). وأين جمعه ؟ قال ((فأمرني أبو بكر فكتبته في **قطع** الأدم، **وكسر** الأكتاف، والعُسُب)). وفي الاتقان تردّد على مصادر زيد في جمعه: ((تقدم في حديث زيد أنه جمع القرآن من العُسُب واللخاف. وفي رواية: والرقاع. وفي أخرى: وقطع الأديم. وفي أخرى: والأكتاف. وفي أخرى: والأضلاع. وفي أخرى: والأقتاب والعُسُب[3])).

وقد عقّب الأستاذ دروزة على هذه الحالة فقال: ((إن هناك أقوالاً وروايات تفيد أن النبي توفي ولم يكن القرآن **قد جمع في شيء**. وإن جمعه وترتيبه إنما تمَّا بعد وفاته. وإن ما كان يدوّن منه في حياته كان يدوّن على الأكثر على **الوسائل البدائية** مثل أضلاع النخيل ورقائق الحجارة وأكتاف العظام وقطع الأديم والنسيج. وإن المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة، ولا مجموعة. وكانت على الأكثر متفرقة عند المسلمين. وإن المعول في القرآن كان على القرّاء وصدور الرجال[4])).

---

(١) محمد صبيح : عن القرآن ٨٧ ـ ٨٨ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٥٣ وللحديث نص آخر ((تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعُسُب وصدور الرجال)) ـ والعُسُب جمع عسيب وهو الطرف الطويل من جريد النخل ، واللخاف جمع لخفة وهي الحجارة الرقاق (صبيح ١٦٧ ـ ١٦٨) .
(٣) صبيح : عن القرآن ١٦٧ .
(٤) دروزة : القرآن المجيد ٥٢ .

وقد علق محمد صبيح على هذه الوسائل البدائية في حفظ القرآن فقال: « كتابة القرآن **المكي** على هذه الأدوات الخشنة كان مصحفاً يحتاج إلى **عشرين بعيراً لحمله**. ولم نعلم من أنباء الهجرة أن قافلة من الأحجار فرّت قبل النبي، أو مع النبي، ومعها هذا الحمل الغريب[1] ».

تلك الوسائل البدائية لحفظ القرآن، وتلك المبادئ الأربعة العاملة في قراءة القرآن بنصوص ولغات وقراءات مختلفة قد تقتصر على المعنى دون اللفظ ، أوصلت نص القرآن المنزل إلى حالة من الفوضى خشي معها الصحابة على ضياعه، فعملوا على جمعه وتوحيده.

بحث رابع: الإصدار الأول للقرآن: مصحف الصدّيق

لما انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى أخذت فكرة جمع القرآن تستبد بالقوم. ولاسيما أن القرّاء، حملة القرآن في صدورهم، كانوا يموتون تباعاً في حروب الردّة وفي غزوات الفتوح. روى البخاري هذا الحديث عن زيد ثابت في جمع القرآن بعد وفاة النبي، قال: « أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال إن القتل استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن **فيذهب كثير من القرآن**. وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً **لم يفعله رسول الله**؟ قال عمر: هو والله خير! فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري بذلك ورأيت الذي رأى عمر. وقال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن فأجمعه. ـ فوالله لو كلفوني في **نقل جبل من الجبال** ما كان أثقل عليّ مما أمراني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله؟ قال: هو والله خير! فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن اجمعه من العُسُب والقحاف (واللخاف) وصدور الرجال[2]. ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الانصاري، لم أجدها مع غيره. فكانت **الصحف** عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة [3] ».

---

(١) صبيح : عن القرآن ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢) قال ابن الخطيب : « كانوا يكتبون على الأديم أو الرقاع أي قطع من الجلد ، وعلى العُسُب جمع عسيب وهو جريد النخل يكشطون عنه الخوص ثم يكتبون عليه ، وعلى اللخاف وهي حجار بيض رقاق . وذلك لانعدام الورق ، وعدم وجود ما يكتب عليه في ذلك الحين » (الفرقان) .

(٣) دروزة : القرآن المجيد ٥٣ . كما أن (أسباب النزول) تروي أن عمر بن الخطاب كان له يد في تنزيل القرآن ؛ تروي (الأحاديث) أن له اليد الأولى في جمع القرآن الأول ؛ وتروي (أخبار الفتوح) أن له أيضاً اليد الأولى في تأسيس الخلافة والدولة الإسلامية .

وروى عمارة بن غزيّة حديثاً جاء فيه أن زيداً بن ثابت قال: أمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم والعُسُب. فلما هلك أبو بكر، وكان عمر كتبت ذلك في صحيفة واحدة. وطلبوا له اسماً فأشار ابن مسعود أن يسمّوه ((بالمصحف)) لأن الحبشة تسميه كذلك، فسماه أبو بكر ((المصحف[1])).

فلم يكن من جمع على أيام النبي ـ وموت القراء كان السبب في جمعه. واستثقل زيد مهمته في جمعه كأنها الجبل بسبب تشتت القرآن في صدور القراء وهلاك بعضهم في الفتوح.

تلك كانت المحاولة الرسمية. وقد سبقتها **محاولات شتى لجمع القرآن.**

فبعد موت محمد أخذ القوم، كل منهم، يجمع القرآن على هواه: فمن كان أول من جمعه؟ وأي مصحف كان الأول؟

أمصحف علي؟ ((روى عكرمة أن عليًّ بن أبي طالب قعد في بيته بعد بيعة أبي بكر. فقيل لأبي بكر: كره بيعتك! فأرسل إليه: أكرهت بيعتي؟ قال: لا والله! قال: ما أقعدك عني؟ قال: رأيت كتاب الله **يزداد فيه** فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه. قال أبو بكر: ((نعم ما رأيت)). وأخرج ابن سيرين حديثاً جاء فيه أن عليّاً، لما مات النبي، قال آليت أن لا آخذ علي ردائي حتى أجمع القرآن، فجمعه. وإنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ[2])) ـ فعليّ، شاهد القرآن الأول، يشهد بأن ((كتاب الله يزاد فيه)). ويشهدون أن علياً كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ. ثم يقولون بأن عثمان أسقط من المصحف الإمام الذي أصدره كثرة المنسوخ في القرآن؛ بل أتلف في ما أحرق وخرّق مصحف عليّ، الذي كان على ترتيب النزول، فضاع بضياعه كنز من تاريخ القرآن.

أم مصحف أبي بكر؟ أخرج أبو داود حديثاً عن علي جاء فيه: ((أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر ـ رحمة الله على أبي بكر ـ هو أول من جمع كتاب الله[4])). وفي حديث

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٥٤ ـ ٥٥ . فكلمة ((المصحف)) دخيلة من النصرانية الحبشية وإن يكن لها أصل عربي في كلمة صحيفة وصحف التي وردت في سور الأعلى والنجم وعبس والقيامة .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ .
(٣) السيوطي : الإتقان ٦١، وهو قول القاضي أبي بكر في (الانتصار) .
(٤) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ ، والطبري ١ : ٦٣ .

عن صعصعة: « إن أبا بكر أول من ورّث الكلالة وجمع المصحف ». ـ ولكن هل كان لأبي بكر مصحف خاص غير الذي جمعه زيد؟

أم مصحف سالم؟ أورد ابن اشته في كتاب (المصاحف) حديثاً جاء فيه: « إن أول من جمع مصحفاً بعد وفاة النبي هو سالم مولى حذيفة[1] ».

أم مصحفة عائشة أمّ المؤمنين؟ فقد ذكروا أن أبا يونس، مولى عائشة، جمع لها القرآن وسمي باسمها. وقد روى عروة بن الزبير حديثاً عن عائشة: « إن سورة الأحزاب كانت تقرأ في زمن النبي مئتي آية. فلما كتب عثمان المصاحف **لم تقدر منها إلا ما هو الآن**[2] ». وروي عن حميدة بنت أبي أوس قالت: « قرأ عليّ أبي وهو ابن ثمانين في مصحف عائشة: « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه سلموا تسليماً ـ وعلى الذين يصلون في الصفوف الأولى » **وذلك قبل أن يغير عثمان المصاحف**[3] ».

أم مصحف حفصة أم المؤمنين؟ ذكروا أيضاً أن عمر بن رافع، مولى حفصة، جمع لها مصحفاً عرف باسمها[2]. ـ فهل هو مصحف زيد الذي أودعه عمر عندها أم غيره؟

أم مصحف أبي بن كعب؟ « وفي مصحف أبي سورتان زائدتان عن سور المصحف واحدة اسمها سورة الحفد، والثانية سورة الخلع[2] ». وقد روى البيهقي أن عمر بن الخطاب صلى بهما[2]. وتنقل الاخبار أن عليّاً كان يعلمهما الناس، وكانوا يقرأون بهما في حضرة عبد الملك بن مروان[2]. وفيه أيضاً أن سورتي الفيل وقريش كانتا سورة واحدة؛ وان سورتي الضحى والانشراح كانتا فيه وفي **مصاحف بعض الصحابة** سورة واحدة[2]. واخرج الحاكم أنه كان في مصحف أبي آية الوادي من مال[3] ».

أم مصحف ابن مسعود؟ ـ كان من أئمة القرّاء الذين أوصى بهم النبي. أورد السيوطي عن جابر أنه سمع النبي يقول: خذوا القرآن عن أربعة: عبد الله بن مسعود، ومعاذ، وسالم وأبي. وهناك أحاديث أخرى في هذا المعنى فيها بعض الخلاف ولكن اسمي عبد الله وأبي موجودان دائماً فيها[4]. وذكروا لكل واحد منهم مصحفاً خاصاً عرف باسمه، أشهرها

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ ، والطبري ١ : ٦٣ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٥٧ .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ٥٨ .
(٤) دروزة : القرآن المجيد ٥٦ .

مصحف ابن مسعود ومصحف أُبي « وأن المصحفين ظلا موجودين يُقرآن إلى ما بعد عثمان بمدة طويلة. وأن ترتيب سور كل منها مغاير لترتيب الآخر من جهة، ومغاير لترتيب سور المصحف العثماني من جهة أخرى. وأن في أحدهما زيادة، وفي أحدهما نقصاً[١] ». أما مصحف ابن مسعود فليس فيه على ما رواه أولئك الرواة، سورة الفاتحة، والمعوذتين. ومن المروي أيضاً أنه كان يحك المعوذتين ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله[٢] ».

ونوجز بما رواه ابن الأثير (٣ : ٨٦) أنه قبل أن يجمع الأمة على حرف واحد، كانت الأمة تقرأ أربع نسخ يختلف بعضها عن بعضها الآخر: نسخة أُبي في دمشق، ونسخة المقداد في حمص، ونسخة ابن مسعود في الكوفة، ونسخة الأشعري في البصرى ـ وممّا يدل على اختلافها البعيد اقتتال أهل الشام وأهل العراق في معارك اذربيجان على قراءة كل منهم القرآن (قراءَة أُبي وقراءَة ابن مسعود)، مما أفزع القائد حذيفة ففزع إلى عثمان يحرّضه على توحيد النسخ. ففعل وأرسل إلى كل من هذه المدن بنسخة من المصحف العثماني. إلاّ أن أهل الكوفة رفضوا الصدوف عن مصحف ابن مسعود. وصاحب الفهرست يؤكد أنه رأى قرآناً **أقدم منه** بمئتي سنة منسوخاً عن مصحف ابن مسعود.

*

ومع ذلك فمن المتواتر أن زيدَ بن ثابت هو جامع القرآن الرسمي الأول، في صحف مفرقة على زمن الصدّيق، ثم في مصحف واحد على أيام عمر بن الخطاب، عُرف **بمصحف الصدّيق**. وهذا الإصدار هو الأول الرسمي للقرآن.

ولكن لماذا فُضِّل مصحف زيد عن سائر مصاحف الصحابة ومنهم ابن مسعود وأُبي، بل على مصاحف أمهات المؤمنين كعائشة وحفصة، بل على مصحف الإمام علي بن أبي طالب، الشاهد الأسبق للوحي والسيرة ؟

ثم لماذا إِصدار مصحف الصديق على يد زيد، وقد جُمع مفرقاً بإِشراف الخليفة أبي بكر في مصحف واحد بإِشراف الخليفة عمر ـ وللفاروق في أسباب التنزيل وفي جمع القرآن وفي تأسيس الخلافة والدولة، اليد الأولى والطولى ـ لم يقبل بهما عثمان؟ بل أنشأ لجنة ثنائية ثم رباعية، وأخرى اثنعشرية من المهاجرين والأنصار لكتابة المصحف الإمام، وإحراق كل ما عداه، حتى مصحف الصدّيق ؟؟

كلها شبهات يحار فيها العقل والإيمان، ولا جواب لها.

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٥٦ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٥٧ .

« وإن هناك روايات كثيرة عن وجود اختلاف في ترتيب مصاحف بعض الصحابة؛ وعن كلمات زائدة كُتبت في بعض المصاحف ولم تُكتب في المصحف المتداوَل؛ وعن آيات كانت تُقرأ ولم تكتب[١] ». ومن كثرة المصاحف وتعدد القراءات، مع وجود مصحف الصدّيق، عمّت الفوضى الأمصار، حتى اضطر الخليفة عثمان إلى توحيد النص والقراءَة في الإصدار الثاني الرسمي للقرآن.

بحث خامس: الإصدار الثاني للقرآن ـ مصحف عثمان الأميري

ما بين موت النبي وخلافه عثمان كثر اختلاف الجماعة في « الأحرف السبعة » وفي اللغات المختلفة والقراءات المتعددة، والتراتيب المتفاوتة. ومما زاد الفوضى أميّة الجماعة وانشغالها بحروب الردة وحروب الفتح، ثم حديث نزول القرآن على سبعة أحرف، تفرعت منه إباحة تلك الرخص الأربع في قراءة القرآن.

« وأحاديث نسخ المصاحف في عهد عثمان فيها ما يفيد أن المسلمين كانوا يختلفون في قراءَة القرآن حتى أفزع اختلافهم عثمان وغيره من كبار الصحابة. وبالتالي يفيد أن القرآن لم يكن في كتابته ومصاحفه وصحفه المتداولة، وفي قراءته محرّراً بحيث يؤمن معه ذلك الخلاف[٢] ».

« وأورد السيوطي في (الإتقان) إن ابن فارس، وهو من علماء القرآن، قال: « إن تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين قد تولته الصحابة[٣] ». وأورد الزركشي (في البرهان) « وترتيب بعضها ليس هو أمراً أوجبه الله بل أمر راجع إلى اجتهادهم ولهذا كان لكل مصحف ترتيب » (١ : ٢٦٢) فترتيب سور القرآن توفيقي من الصحابة لا توفيقي عن النبي: « وقال الحاكم في (المستدرك) إن جمع القرآن الثالث هو ترتيب السور. وقد تم ذلك في زمن عثمان[٤] ». وهذا الخبر يدل على دوام تطور جمع القرآن، وتطور ترتيبه حتى عثمان.

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٦٢ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٦٢ .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ .
(٤) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ ـ وكان جمع القرآن الأول على يد زيد في زمن أبي بكر مفرَّقاً ، والثاني في زمن عمر مجموعاً .

ونقل الطبري حديثاً عن البخاري أن حذيفة بن اليمان قدم من غزوة غزاها بمرج أرمينية فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان بن عفان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس! فقال عثمان: وما ذاك؟ قال: غزوتُ مرج أرمينية فحضرها أهل العراق والشام؛ فإذا أهل الشام يقرؤون بقراءة أَبي بن كعب **فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق فتكفّرهم أهل العراق**؛ وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءَة ابن **مسعود فيأتون بما لم يسمع به أهل الشام فتكفرهم أهل الشام.** قال زيد: فأمرني عثمان بن عفان أن أكتب له مصحفاً؛ وقال: إني مدخل معك رجلاً لبيباً فصيحاً، فما اجتمعتما عليه فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إليَّ[١])). فاللجنة إذن **ثنائية**. وكأن هذا الحديث يجهل جمع زيد الأول والثاني. وفي رواية البخاري يختلف الحديث فتصير اللجنة رباعية: ((فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها (الصحف التي عند حفصة) في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما أنزل بلسانهم[٢])). ما سرّ الخلاف الممكن, وزيد يملك نسخة من أيام عمر وأبي بكر؟ وإذا اختلفوا في شيء، وكتبوه بلسان قريش، ما الضامن ان الذي فضلوه هو المنزل على محمد، وهم ليسوا بمعصومين؟

لقد بلغ الخلاف بالنص حدّ التكفير المتبادل، والاقتتال، ليس في الأمصار البعيدة فقط ، بل على مسمع ومشهد من الخلفاء والصحابة أيضاً: ((وقد روي حديث آخر عن أنس بن مالك جاءَ فيه أن الناس اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون فبلغ ذلك عثمان فقال: **عندي** تكذبون وتلحنون فيه! فمن نأى عني كان أشد تكذيباً ولحناً! يا أصحاب محمد، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً[٣])). فاجتمعوا فكتبوا. ((فجمع عثمان المسلمين ... حذار **الرِدّة من بعضهم بعد الإسلام**، والدخول في الكفر بعد الإيمان إذ ظهر من بعضهم بمحضره وفي عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة ... على مصحف واحد وحرف واحد وخرَّق (أو حرق) ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه. وعزم على كل مَن كان عنده **مصحف مخالف** المصحف الذي جمعهم عليه أن يخرّقه أو (يحرقه). فاستوسقت له الأمة على ذلك بالطاعة ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية

(١) الطبري: ١ : ٦٠ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٦٣ .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ٦٣ .

فتركت القراءة بالأحرف **الستة** التي عزم عليها إمامُها العادل في تركها ... حتى درست من الأمة معرفتها وتعفّت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءَة بها لدثورها وعفو آثارها[1])).

وهناك حديث بأن اللجنة العثمانية كانت **اثنعشرية** وأن الصحف كانت في ربعة عمر لا عند حفصة: ((أخرج أبو داود حديثاً جاء فيه: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها)). فهل كانت اللجنة رباعية أم أثنعشرية؟ وهل كانت الصحف عند حفصة أم في ربعة عمر؟ وإذا كان الخلاف واقعاً مع الرهط القرشيين الثلاثة، فكيف به مع الأنصار، وهؤلاء لم يكونوا من قريش ولم يشهدوا القرآن المكي حتى يؤتمنوا على لسان قريش الذي فرضه عثمان؟. وقال محمد صبيح: ((لماذا لم يحرص كبار الصحابة على أن يكون لدى كل واحد منهم أو لدى بعضهم على الأقل نسخ من هذه الصحف؟ ـ الجواب على هذا السؤال عسير[2]))!

ونزيد: لمَّا شكّل عثمان لجنة أولى رباعية ثم لجنة ثانية اثنعشرية لجمع القرآن وترتيبه ورفع المنسوخ منه، لماذا لم يرضَ هو، ولم يرتضوا هم **بنسخة زيد وقد رضيها أبو بكر وعمر وعلي وكبار الصحابة مدة الخلافتين؟ ...** ألا يترك هذا الإهمال والاغضاء، والتصحيح والتنقيح ريبة في نسخة زيد ونسخة عثمان معاً.

*

لقد كان عمل عثمان متعدد النواحي: اقتصر على حرف أي نصٍ من الأحرف السبعة وتُركت القراءَة بالأحرف الستة الأخرى: وهذا عمل ضخم. واعتمد لغة قريش دون سائر اللغات بعد توسعة النبي للقراءَة بها؛ وقد روى الطبري حديثاً ((في القرآن من كل لسان)) (١ : ١٢): وهذا عمل كبير. وأخذ بترتيب السور بحسب الطول لا بحسب تاريخ النزول، وهذا عمل ماهر ستر الكشف عن سرّ تطوّر الوحي القرآني في تعليمه وتشريعه. ومسك الختام في إحراقه جميع المصاحف ما عدا مصحفه، ((وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءَته وحفظه، خشية دخول الشبهة والفساد على من يأتي بعد[3])).

(١) الطبري ١ : ٦٤ .
(٢) محمد صبيح : عن القرآن ١٨٤ .
(٣) الاتقان للسيوطي ١ : ٦١ قول القاضي أبو بكر في (الانتصار) .

« **جمعهم على حرف واحد** » وأبطل القراءة بالنصوص الستة الباقية: هل من شبهة أفعل من هذه الشبهة في الشك بصحة الحرف العثماني؟ وهل كان عثمان ولجنته أنبياء معصومين لاختيار النص القرآني الأفضل المعجز؟ ألم يكن من الأمانة للوحي والدين والإيمان معاً أن يحتفظوا بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، كما احتفظ النصارى بالأناجيل الأربعة الثابتة التي نزل بها الإنجيل، ما عدا سواها من الأناجيل المنحولة ؟ أين الأمانة الكاملة لوديعة الإيمان ؟؟

واقتصر على لغة قريش دون سائر لغات العرب: وهذا الحصر والقصر والقسر ذو مغزى بعيد. إلى الآن يلاحظ علماء القرآن أمثال السيوطي أن في القرآن العثماني ما نزل بغير لغة قريش، وبغير لغة العرب؛ وهذه الظاهرة إحدى مشاكل القرآن. فكيف كانت الحال قبل النسخة العثمانية الموحَّدة ؟ لا شك إنها بلغت حدّاً مخيفاً أخافهم فأقدموا على توحيد لغة الكتاب الإمام، ولكن كيف أمكنهم أن يحافظوا على اللغة المنزلة المعجزة يعد أن قرأته العرب جميعاً بلغاتها المختلفة بتوسعة من النبي؟ وهل الاقتصار على لغة قريش، والقرآن المدني نزل في المدينة بين قوم ليسوا من قريش ولا من عدنان[1]، من الأمانة المعجزة في حفظ القرآن؟

« **جمعهم على كتاب واحد وخرَّق وأحرق كل ما عداه** » (الطبري). ونقل البخاري: « وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[2] ». « فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الامصار: إني قد صنعتُ كذا وكذا ومحوتُ ما عندي فامحوا ما عندكم » (طبري ١ : ٦٤). سيظل هذا التدبير العثماني موضع حيرة وشك وفتنة إلى الأبد: إذا كانت الصحف والمصاحف التي سبقت المصحف العثماني ـ ومنها مصحف زيد الأول والثاني أنفسهما ـ موافقة للنص العثماني الموحَّد، فلماذا أُتلفت؟ وإذا كانت مخالفة، وحقّ عليها التلف، فكيف نطمئن إلى نسخة عثمان ـ بعد ذلك التصرّف الغريب المريب ـ على أنها هي الصحيحة، وليس عثمان ولجنته بمعصومين؟ .. ما السر والفرق بين مصحف الصدّيق ومصحف عثمان حتى يحرق الأول؟ وأبو بكر هو أول من جمع القرآن، وتحت إشرافه عمل الصحابة الأقدمون. وكيف يرضى الوجدان والإيمان بإتلاف مصاحف أمهات المؤمنين، مثل

---

(١) لا يجهل أحد من العارفين ما كان بين القحطانيين والعدنانيين ، بين العرب العاربة والعرب المستعربة من تنافس وتنازع واختلاف كان مظهرها الأكبر لغة .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٦٣ .

عائشة وحفصة، اللواتي سمعن القرآن من فم النبي وتَلَوْنه معه، وبعده، إلى ما بعد عثمان؟ كيف يرضى العقل والنقل أن يزول من الوجود مصحف علي، رفيق الرسول منذ اليوم الأول، وفيه الترتيب الأصلي للقرآن بحسب النزول، وفيه الناسخ والمنسوخ؟ وما السرّ حتى يرضى زيد بن ثابت بإتلاف نسخته الأولى والثانية اللتين جمعهما بإشراف أبي بكر وعمر؟ لماذا أتلف مصحف ابن مسعود ولماذا أُتلف أيضاً مصحف أُبي بن كعب وقد أوصى الرسول بأخذ القرآن عنهما؟ .. إن في النفس من عمل عثمان وحرق المصاحف كلها دون مصحفه حتى الآن، حرْقة ! ..

وميزة القرآن العثماني التي عرف بها هي ترتيب السور حسب مبدأ الطول. نقل الحاكم في (المستدرك) إن جمع القرآن الثالث هو ترتيب السور، « وقد تمّ ذلك في زمن عثمان[1] » فليس الترتيب الحالي بمنزل، وليس **توقيفاً** على النبي كما يزعم كثيرون، فقد أورد السيوطي حديثاً بأن « تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين قد تولـّته الصحابة[1] » « ولذلك اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور. فمنهم من رتّبها على النزول وهو مصحف علي ومنه ممن رتبها على مبدإ الطول فأخذ عثمان بهذا المبدأ[2] » ـ ولكن لماذا غيّر عثمان ترتيب السور وعدل عن الترتيب التاريخي إلى النسق الحالي؟ أما كان من الأمانة للوحي والحقيقة أن يبقى القرآن على تاريخ النزول فنعرفه مرتّباً كما أُنزل لا كما جمعه البشر ـ والترتيب ناحية من الإعجاز ـ وليس الجامعون بمعصومين حتى نطمئن لهم في صحة الاختيار؟؟ إن التضييق العثماني بعد التوسيع النبوي موضع شبهة مؤلمة. فلقد كان عمل عثمان وجماعته توحيد نصِّ القرآن من الأحرف المختلفة، واللغات المختلفة، والقراءات المختلفة، لا نقل نص واحد متواتر. قال محمد صبيح: « الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات في السور **توفيقيّ** لا شبهة في ذلك ... أما ترتيب السور فهو باجتهاد اللجنة العثمانية ولا سبيل إلى الأخذ بالأقوال التي تحاول أن تسند هذا الترتيب إلى أمر رسول الله . فقد ترك ترتيب القرآن كله **لاجتهاد أمة المسلمين** من بعده. ولا داعي لنقل الأقوال التي تؤيد هذا الرأي إذ إن الخلاف عليه قليل ... ولا ندري حكمة إنصراف هؤلاء الصحابة عن اختيار هذه الطريقة (الترتيب التاريخي) في ترتيب مصاحفهم مع أنهم لم يكونوا غافلين عن هذه المسألة[3] ».

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ ، قابل السيوطي : الإتقان ١ : ٦٠ .
(٢) السيوطي: الإتقان ١ : ٦٣ ـ ٦٤ .
(٣) محمد صبيح : عن القرآن ١٨٧ ـ ١٨٩ .

وهل نقلوا في المصحف الأميري كل ما نزل على محمد؟

لا نعني ما نسيه محمد، أو نسخ، أو رُفع، إذ من الثابت إنه « نزل عليه قرآن ورُفعت تلاوته »، و « نزل عليه قرآن ونُسخ ». « وآيات البقرة ١٠٦ والنحل ١٠٢ تفيد أنه وقع بعض التبديل والنسخ في بعض آيات القرآن في عهدي النبي المكي والمدني بوحي الله مما هو مؤيد بأحاديث عديدة[١] ».

إن ما نقصد إنما هو ما ترك محمد بعد موته من القرآن: هل حفظه القوم حقَّ حفظه فكان حفظه معجزة لا مثيل لها في تاريخ الكتب المنزلة ؟

قال أبو بكر الباقلاني: « والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزل الله وأمر بإثباته ورسمه ولم ينسخه، ولم يرفع تلاوته بعد نزوله، هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان[٢] ». إن إسقاط الأحرف الستة، وحرق المصاحف ما عدا مصحف عثمان، تكذيب لمثل ذاك الإِدعاء.

وقال البغوي في شرح السنة: إن زيداً بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي بَيّن فيها جبريل ما نُسخ وما بقي[٣]. جعلوا جبريل ومحمداً يرفعان من القرآن ما نُسخ قبل العَرضة الأخيرة. ويشهد على تهافت هذا الحديث أنهم جعلوا زياداً شريك النبي في مشاهدة هذه العرضة الأخيرة. وقالوا أيضاً إن عليّاً كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ[٣] وإن عثمان رفع المنسوخ من مصحفه: وإلى اليوم يكتب القوم الكتب في الناسخ والمنسوخ الذي أفلت من رقابة عثمان. فهل هذه المحاولات لرفع المنسوخ من القرآن توحي بالأمانة ؟

وهناك روايات كثيرة عن سور وآيات كانت تُقرأ ولم تُكتب في المصحف العثماني. منها ما أورد السيوطي عن عائشة « إن سورة الأحزاب كانت تُقرأ في زمن النبي مئتَي آية. فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلاّ ما هو الآن ... » وعن أُبي: « إن كانت لتعدل سورة البقرة وان كنا لنقرأ فيها آية الرجم[٤] ».

« وروي عن حميدة بنت أبي أوس قال: قرأ عليَّ أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف

(١) دروزة : القرآن المجيد ٦٣ و٩٠ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٧٣ .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ٥٥ .
(٤) دروزة : القرآن المجيد ٥٧ .

عائشة (إن الله وملائكته يصلون على النبي! يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ـ وعلى الذين يصلون في الصفوف الأولى ـ) **وذلك قبل أن يغيّر عثمان المصاحف**)). إنه لقولٌ ضخم هذا القول: ((قبل أن يغيّر عثمان المصاحف)) ! وإسقاط آخر الآية، إن صح، يدل على نية في تهذيب النص.

وأسقطوا من مصحف عثمان، إن صحت الروايات، آية وادٍ من المال كانت في مصحف أُبي، بإخراج الحاكم، وآية ((إنّا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة)) عن أُبي أيضاً؛ وآية ((حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر)) في مصحف عائشة وفي مصحف حفصة، كما ورد في موطأ الإمام مالك[1]. فهل أسقط عثمان هذه الآيات؟ ولماذا فعل؟

((وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ آية الكهف هكذا: ((وكان وراءَهم ملاك يأخذ كل سفينة ـ غصباً)). وآية البقرة هكذا ((لا جُناح عليكم إن تبتغوا فضلاً من ربكم ـ في المواسم)). وروي عن ابن الزبير أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا. ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ـ ويستعينون بالله على ما أصابهم)). وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ آية آل عمران هكذا: ((و جئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله ، من أجل ما جئتكم به)) . و يقرأ آية النساء هكذا : ((فما استمتعتم به منهنّ ـ إلى أجل مسمّى)). ويقرأ آية الأحزاب هكذا: ((النبي أَوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ـ وهو أب لهم)). ويقرأ آية المجادلة هكذا: ((ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ وهو رابعهم ... إذا أخذوا في التناجي[2])). ـ فهذه التعديلات كلها، إن صحت، تدل على نية في تنقيح نص القرآن.

((وروي عن عدي بن عدي عن عمر قال: ((كنا نقرأ: ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم)). ثم قال لزيد بن ثابت: أكذلك؟ ـ قال: نعم! فهذه شهادة من عمر ومن كاتب الوحي أنه أُسقط من القرآن في جمع عثمان. وقد أَسقطوا منه كثيراً بحسب هذه الشهادة: ((روى المسوّر بن مَخْرَمة أن عبد الرحمن بن عرف قال: ((ألم نجد فيما أنزل علينا (جاهدوا كما جاهدتم أول مرة) فإنّا لا نجدها. قال: **أُسقطت فيما أسقط من القرآن**[3])) ! ـ إنه إقرار

---

(١) دروزة : القرآن المجيد ٦١ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٦١ .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ٥٩ .

ضخم لا يحتاج إلى تعليق! ومثلها هذه الشهادة: «روي عن ابن عمر: لا يقولنَّ أحدكم أخذتُ القرآن كله، وما يدريه ما كله: **قد ذهب منه قرآن كثير!** ولكن ليقل قد أخذتُ منه ما ظهر[1] »! إذن عن طريق النسيان، والضياع، والإسقاط « قد ذهب منه قرآن كثير »: فهل بعد هذه الشهادة من حاجة إلى شهادة ؟

ويظهر أن هذه التعديلات قد شملت **سوراً برّمتها فأسْقَطَها:** « روي عن أبي موسى الأشعري: كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبّحات مما نسيناها ». وروى مسلم هذا الحديث بقوله: « إن أبا موسى الأشعري قال مرة لخمسماية من القراء في البصرة: إنَّا كنا نقرأ سورة **بطول السهم** وحدها أما الآن فقد نسيتُها ما عدا بعض الآيات ». وكذلك عن مالك في سورة **براءة** « إن أولها سقط مع البسملة: فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها ». وقريب من ذلك أحاديث عن سورة **البيّنة:** كانت من الطوال وصارت من القصار. وأورد محمد صبيح رواية لم يورد مصدرها عن سورة اسمها « سورة النورين » في علي، وقيل أن عثمان أسقطها[2]. ناهيك عن سورتي الحفد والخلع اللتين، على ما قيل، يذكرهما مصحف أبيّ [3].

« وإن هناك روايات عديدة تفيد أن بعض الصحابة كانوا يقرأون **كلمات بدل كلمات،** مثل:

« إيمانهما »	بدلاً من (أيديهما)	في آية السرقة من سورة المائدة .
« ولا تجزي نسمة عن نسمة »	بدلاً من (ولا تجزي نفس عن نفس)	في آية سورة البقرة .
« صفراء لذة للشاربين »	بدلاً من (بيضاء لذة الشاربين)	في آية سورة الصافات .
« وإدراس وإدراسين »	بدلاً من (الياس والياسين)	في آية سورة الصافات .
« وجاءت سكرة الحق بالموت»	بدلاً من (جاءت سكرة الموت بالحق)	في آية سورة ق .
« وصراط مَن أنعمت عليهم »	بدلاً من (صراط الذين أنعمت عليهم)	في سورة الفاتحة .
« الحيّ القيَّام »	بدلاً من (الحي القيّوم)	في آية سورة آل عمران .

(١) دروزة : القرآن المجيد ٥٩ .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٦٠ .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ٥٦ .

« وللذين يقسمون »	بدلاً من (للذين يؤلون)	في آية سورة البقرة .
« ومثقال نملة »	بدلاً من (مثقال ذرة)	في آية سورة النساء .
« واركعي واسجدي مع الساجدين»	بدلاً من (واسجدي واركعي مع الراكعين)	في سورة آل عمران .
« وتزودا ، وخير الزاد التقوى »	بدل من (وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى)	في سورة البقرة .
« وشاوروهم في بعض الأمر »	بدلاً من (وشاورهم في الأمر)	من سورة آل عمران [1].

فهذه الأمثال تؤيد مقالة عثمان نفسه، لما عُرض عليه النص الموحَّد « أرى في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتها » ! وعن عكرمة أنه لما كُتبت المصاحف عُرضت عليه فقال: «لا تغيّروها فإن العرب ستغيرها (ستعربها) بألسنتها ». ففُتح الباب من جديد للقراءات الجديدة التي بلغت سبعاً أو عشراً أو أربع عشرة للنص العثماني.

وهكذا تواترت الأخبار على أن في النص العثماني زيادة ونقصاناً. والريبة التي تخالج المؤمن ذات حدَّين: إمَّا إن هذه الكلمات والآيات والسور كانت قد زيدت على النص الأصلي ثم أُسقطت ـ وهذا يولد فينا شبهة أولى أن الزيادة دخلت على القرآن قبل جمعه بشهادة عثمان وعلي؛ وإمَّا إنها أصيلة في النص وأُسقطت في ما أُسقط من القرآن ـ وهذه الشهادة تزيدنا شبهة أخرى أنه كما دخلت الزيادة على القرآن طرأ عليه النقصان أيضاً. فنتساءَل بمرارة: أين هي معجزة حفظ القرآن؟ وليس النبيّ معنا ليضرب على صدرنا كما ضرب على صدر عمر ليزيل منه الشك!

*

بحث سادس: إصدار الحجاج النهائي للقرآن

كيف تقبّلت الأمة المصحف العثماني الموحَّد ؟

قال أبو جعفر النحاس[2]: «إن رسول الله قال: « أنزل القرآن على سبعة أحرف »، فرأى عثمان ر. أن يزيل منها **ستة**، وأن يجمع الناس على حرف واحد. فلم يخالفه **أكثر**

(١) ابن الخطيب : الفرقان ٩٠ .
(٢) أبو جعفر النحاس : الناسخ والمنسوخ ٣٧ و١٥٩ .

الصحابة. حتى قال علي: لو كنت موضعه لفعلتُ كما فعل ... كانوا يقرأون القرآن على سبعة أحرف، فوقع بينهم الشر والخلاف. وأراد عثمان أن يختار من السبعة حرفاً واحداً هو **أفصحها** ويزيل الستة. وهذا من أصح ما قيل فيه لأنه مرويّ عن زيد بن ثابت)).

فهل كان عثمان وجماعته معصومين حتى يحسنوا اختيار ((الأفصح)) بين الحروف السبعة المنزلة؟ وحتى يضمنوا العصمة والصحة والإعجاز للحرف الذي اختاروه؟ ثم ألا يعني اختيار ((الأفصح)) منها أنه كان في النصوص السبعة فصيح وأفصح؟ وفي هذا فتح باب الشبهات على إعجاز النص العثماني، يزيده شبهةً إتلاف ما عداه.

أجل لم يخالفه ((أكثر الصحابة)) ولكن بعض الثقاة منهم لم يكن راضياً عن عمله. فقد ذكروا عن **علي** بن أبي طالب، وهو المعارض سياسياً وقرآنيّاً لعثمان، أنه قال: ((لا تقولوا في عثمان إلاّ خيراً ! فوالله **ما فعل في المصاحف** ما فعل إلاّ على ملإٍ منا. قال: ((ما تقولون في هذه القراءَة ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن **قراءَتي خير من قراءَتك**)). وهذا يكاد يكون كفراً. قلنا: ما ترى؟ قال: أرى أن يُجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف! قلنا: نعم ما رأيت[1]!)) ـ هذه الشهادة ظاهرها الموافقة وباطنها الخلاف: فقد كان بين ترتيب علي وترتيب عثمان تعارض، وبين قراءَة عثمان وقراءَة علي خلاف، وقد لا يرضى عليّ أن يكون مصير مصحفه مصيرَ سائر المصاحف التي أتلفها عثمان. ((ويذكرون أنه أبى كابن مسعود أن يسلّم نسخته إلى عثمان لينقّحها أو يتلفها، بحجة أنها كانت كاملة[2])). ويذكر الترمذي أيضاً أن **ابن مسعود**، الذي أوصى النبي بقراءَته، لم يكن يعتبر نسخة عثمان صحيحة؛ وأنه رفض أن يُسلّم إلى عثمان، نسخته ليحرقها مع غيرها. وقد أشار إلى أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلاً: ((يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلقوها[3])).

ولهذه المعارضة للحرف العثماني حجة من العقل والنقل. كانوا يتمسكون بحديث الأحرف السبعة وصحة القراءة بكل حرف منها. ثم أن مرور الزمن[4] على القراءَة بها، وعلى تمسّك

---

(١) دروزة : القرآن الكريم ٦٣ ـ ٦٤ .
(٢) جامع الترمذي : أبواب التفسير، في آخر سورة التوبة .
(٣) جامع الترمذي : أبواب التفسير، في آخر سورة التوبة .
(٤) روي عن ابن حجر أن توحيد النص العثماني جرى سنة خمس وعشرين للهجرة (ابن الخطيب : الفرقان ٤٠) .

أئمة القراء، كلٌّ بقراءَته، مثل ابن مسعود، أعطاها قدْسيةً لا تقهر إلاّ بالحديد والنار. وهذا ما فعل عثمان ليكسر شوكة المعارضة. ومرور خمس وعشرين سنة للهجرة، ونحو أربعين للبعثة، خصوصاً بعد حروب الرِدَّة وحروف الفتح التي ملكت على القوم مشاعرهم ومشاغلهم، كان وقتاً كافياً تتيه فيه الذاكرة عنِ النص الأصلي، ويتشعب هذا النص بين الحروف المختلفة، والقراءات المتعددة واللغات المتنوّعة، مع العادة التي استبدت بالقوم في قراءة القرآن بالمعنى دون اللفظ. لذلك لم يقدر الخليفة أن يتغلب على المعارضة وتمسّكها بمصاحفها إلا بإتلاف سائر المصاحف سوى المصحف الأميري الذي فرضه عثمان على الأمة.

وهذا الحرف العثماني **لم يكن قرشياً بجملته** كما نزل على النبي. فتصريحات القرآن أنه نزل بلغة قريش كثيرة متواترة: « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ... وإنما يَسّرْناه بلسانك لعلهم يتذكرون ». والقاعدة التي اختطها عثمان للجنة الرباعية والاثنعشرية التي جمعت القرآن، كانت إنِ اختلفوا في شيء فلْيكتبوه بلغة قريش فإن القرآن نزل بلغتهم. وفي المصحف العثماني الموحَّد بلسان قريش بقيت آثار تدل على أنه ليس بجملته من لغة قريش؛ قال أبو بكر الواسطي في (الإرشاد[١]): « إن في القرآن من اللغات خمسين لغة! ». وفيه من لغات العجم المتنوعة نحو مئة كلمة جمعها السيوطي في (الإتقان[٢]) و (المتوكلي). فوجود هذه اللغات غير القرشية، وتلك الكلمات غير العربية، مشكل قائم دائم لا مردَّ له، يوحي بأن النص الأصلي الذي نزل على محمد بلسان قريش قومه، قد دخله ما ليس منه.

ولم تكن الصحابة والقرّاء منهم يفهمون كلَّ كَلِم القرآن وخفايا إعجازه حتى يتقنوا حفظه ونقله. قال محمد صبيح[٣]: « نزل القرآن باللغة القرشية ، التي ذكرنا إن كثيراً من ألفاظ اللغات الأخرى ولغات القبائل المجاورة ذابت فيها. وقد فهم الصحابة القرآن **إجمالاً** ولكن ألفاظاً غير قليلة استغلقت عليهم. بل ان بعضاً لا يزال مستغلقاً علينا إلى اليوم مع أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا ... حتى أن أبا بكر قال: « أي سماءُ تظلـني وأي أرض ُتقلـني إن أنا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم ! ... » وقد وردت

(١) السيوطي : الإتقان ١ : ١٣٦ .
(٢) السيوطي : الإتقان ١ : ١٤١ .
(٣) عن القرآن ١١٩.

روايات عن ألفاظ في القرآن لم يكن بعض الصحابة يفهمونها لأنها مستعملة عند بعض القبائل، وليست **مستعملة عند قريش ...** ولعلهم كانوا يتحاشون عن سؤال النبي في كثير من الألفاظ، بدليل جهل كبارهم بها بعد وفاته، ونهيهم عن التكلّف والتعمق، أي البحث، في معنى كل لفظ، والتقيب وراءه. فلم يكن عثمان وعمر وأبو بكر وأئمة الصحابة يقوون على فهم كل ألفاظ القرآن فكيف أمكنهم استخلاص النص الأصلي المنزل من بين النصوص المختلفة، والقراءات المتعددة، واللغات المتنوعة التي قُرِئ بها القرآن، وبالمعنى دون اللفظ أحياناً، مدة خمسين أو أربعين عاماً، من جهاد متواصل، قَبل جمع القرآن وتوحيد النص العثماني؟ ـ وإذا كانت الحال كما هي مع النص العثماني الموحَّد، فكيف كانت قبل التوحيد العثماني القرشي؟.

ثم إن المصحف الأميري الموحَّد بقي فيه من **المنسوخ** آيات كثيرة اختلفوا في عدها. قال البغوي في شرح السنّة[1]: أن زيدَ بن ثابت شهد العَرْضة الأخيرة التي بيّن فيها ما نُسخ وما بقي. وعثمان أكمل هذه العملية فأسقط المنسوخ منه، الذي كان عليٌّ يحتفظ به في مصحفه. ومع ذلك فقد أفلت في النص العثماني منسوخ كثير: ((اختلف المتقدّمون اختلافاً كثيراً في ادّعاء نسخ كل الآيات التي لم يتفق لهم فهمها، أو التي لم يستطيعوا أن يوفّقوا بينها وبين باقي الآيات ... ولهم في ذلك استدلالات واستنتاجات عقيمة لا يؤيدها منطق ولا يسندها دليل[2]))؛ ولكنهم أجمعوا على تعيين عدد كثير من الآيات المنسوخة، وهو غيض من فيضِ ما كان في النص الأصلي، على ما توحي به الروايات الثابتة. فكيف جاز لعثمان أن يُسقط المنسوخ من النص الأصلي الذي تركه النبي؟. وكيف كانت الحال قبل التنقيح العثماني؟

*

ما بين الخليفة عثمان، صاحب الإصدار الثاني للقرآن، والحجاج بن يوسف الثقفي عميل الأمويين على العراق وصاحب الإصدار الثالث والأخير للقرآن، رجعت الفوضى إلى ما كانت عليه ولو لم تبلغ مداها، أولاً بسبب رواسب الماضي، وثانياً **بسبب رسم المصحف الأميري.**

---

(١) تجد قوله في (رسالة الكلمات الحسان) للشيخ بخيت . قابل دروزة : القرآن المجيد ٦٩ .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ١٥٥ .

قال ابن الخطيب: « لمّا كان أهل العصر الأول قاصرين في فنّ الكتابة، عاجزين في الإملاء، لأميّتهم وبداوتهم، وبُعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمة الوضع غير محكمة الصنع. فجاءَت الكَتَبة الأولى مزيجاً من أخطاء فاحشة ومناقضات متباينة في الرسم والهجاء ... والذي يستسيغه العقل ويؤيده الدليل والبرهان أنه إذا تعلّم فرد الكتابة في أمة أميّة فإن تعلـّمه لها يكون محدوداً، ويكون عرضة للخطإ في وضع رسم الأحرف والكلمات ... ولما كانت الكتابة بين العرب، في أول عهدهم بالإسلام، لم يتمّوا إتقانها ومعرفة سائر فنونها، وقع في كتابة المصاحف اختلاف كبير في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة ورسمها[1] ».

« وإليك ما احتواه **الرسم القديم** من تناقضات واضحة فاضحة: مثل تحريف صيغة التوكيد إلى صيغة النفي: « لا أُذْبحنـَّهُ = لأذبحنـَّه » (نمل ٢١)؛ ومثل نقص الألف وزيادتها بغير موجب: « وَعَتـَوْ » (فرقان ٢١) « يدعُوا حزبه » (فاطر ٦)؛ ومثل زيادة أحرف ونقصانها في بعض الكلمات دون بعض: « من نَبإِي المرسلين » (أنعام ٣٤) « سبع سموات ... سموت » (فصلت ١٢)؛ ومثل رسم التاء مفتوحة في بعض الكلمات دون بعض: « نعمت » (بقرة ٢٣١) « نعمة الله » (مائدة ٧) كذلك « سُنـَّت الله » (فاطر ٤٣) «سنّة الله » (فتح ٢٣)؛ ومثل إبدال السين صاداً في بعض المواضع: « بسطة » (نساء ٨٢) «بصطة » (أعراف ٦٩)؛ ومثل حذف الألف من (قال) في بعض المواضع وإثباتها في بعض: (مؤمنون ١١٢ و١١٤ ثم أنبياء ٥٢ و٥٤ و٥٦ و٦٣)؛ والناظر لهذا الاختلاف، الذي أوردنا بعضه، يرى أن الرسم القديم يقلب معاني الألفاظ ، ويشوّهها تشويهاً شنيعاً، ويعكس معناها بدرجة تكفتر قارئيه وتحرّف معانيه. وفضلاً عن هذا فإن فيه تناقضاً غريباً وتنافراً معيباً لا يمكن تعليله ولا يستطاع تأويله[2] ».

ولَحَنُ الكتـَّاب في المصحف العثماني أدّى إلى تحريفٍ في الكَلِم المنزل: ذلك رأي عائشة في قوله: « إن **هذان** لساحران » (طه ٦٣)، « **والمقيمين** الصلاة والمؤتون الزكوة » (نساء ١٦٢)، « إن الذين آمنوا والذين هادوا **والصابئون** » (المائدة ٦٩) قالت: « هذا من عمل الكتـَّاب أخطأوا في الكتاب »؛ ورأي سعيد بن جبير قال: « في القرآن أربعة أحرف لَحَن: والصابئون (مائدة ٦٩) والمقيمين (نساء ١٦٢) فأصَّدَقَ **وأكنْ** من الصالحين

(١) ابن الخطيب : الفرقان ٥٧ ـ ٥٩ .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ٧١ ـ ٨٢ الفصل كله.

(منافقون ١٠) وإن هذان لساحران (طه ٦٣) وقد قرأها مستقيمة بعض القراء مثل أبو عمرو ويعقوب. وسُئل أبان بن عثمان عن ((المقيمين)) وما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب؟ قال: من قِبَل الكاتب. وكان ابن عباس يبدل القراءة المشهورة بقراءَته ((حتى تستأنسوا وتسلموا)) (نور ٢٧)، ((أفلم يتبيّن الذين آمنوا)) (رعد ٣١) ((ووصّى ربك)) (إسراء ٢٣) بدلاً من ((حتى تستأذنوا، أفلم ييأس، وقضى ربك)) ويقول: ((إنما هي من خطأ الكاتب قد كتبها وهو ناعس؛ وكان يقرأ ((مثلُ نور المؤمن كمشكاة)) بدلاً من ((مثل نوره)) ويقول هي خطأ من الكاتب وهو تعالى الأعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة)). وختم بقوله: ((ومما لا شك فيه أن كتّاب المصاحف من البشر يجوز عليهم ما يجوز على سائرهم من السهو والغفلة والنسيان، والعصمة لله وحده. وقد اختلفوا في عصمة الأنبياء. والقول الراجح إنهم معصومون فيما يتعلق برسالاتهم فقط أمّا ما عداها فشأنهم كشأن بقية البشر[1])).

تلك حالة النص القرآني بعد توحيد النص العثماني على حرف واحد ولغة واحدة وقراءة واحدة ومعنى واحد في مصحف واحد: فكيف كانت الحالة إذن عندما كانت رخصة من النبي في قراءة القرآن على سبعة أحرف، وفي سائر لغات العرب، وبحسب اختلاف القراءات المتعددة، متقيّدين أحياناً بالمعنى دون اللفظ ؟؟

*

وقصة الحجاج بن يوسف في الإصدار الثالث والأخير للقرآن، مِسْك الختام .

الحجاج بن يوسف الثقفي، عامل الأمويين المروانيين على العراق ضد الهاشميين والعباسيين كان من دهاة التاريخ العتاة الذين يستبيحون جميع المحرّمات في سبيل مآربهم[2]. ومن المتواتر أن للحجاج ضلعاً في المصحف الأميري، لا بل ينسبون إليه الإصدار الثالث والأخير للقرآن .

مهما يكن من إتلاف عثمان للمصاحف التي جُمعت قبله، فقد بقي النقل الشفوي مع القراء. ولم يكن ليزول إلاَّ بزوالهم.

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ٤١ ـ ٤٥ الفصل كله .
(٢) يعدون من ضحايا الحجاج نحواً من مئة وثلاثين ألفاً أسلمهم للجلاد ـ ناهيك عن ضحايا الحروب ـ وعند موته كانت سجونه تعج بنحو خمسين ألفاً من الرجال وثلاثين ألفاً من النساء . مع ذلك قال عنه الذهبي : كان أحسن الناس للمحسنين وأسوأ الناس للمسيئين . وقال عنه الجاحظ : كان أرجح عقلاً من جميع معاصريه . وكان مع زياد بن أبيه أفضل رجال الدولة في العهد الأموي (دائرة المعارف الإسلامية ٢ : ٢١٦)

وقد أقام أهل المصاحف البارزين من القراء، مثل ابن مسعود وأبي على القراءة بحسب مصاحفهم. وهذا أنس بن مالك يهمل المصحف العثماني ويصنع لنفسه مصحفاً على مثال مصحف ابن مسعود ومصحف أبي. يؤيد ذلك أن اختلافهم عن المصحف الأميري كانت متشابهة فيما بينهم[1].

ويروي ابن أبي داود (٢١ : ٨) أن الخليفة مروان سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م حاول أن يأخذ من حفصة صحف أبي بكر التي جمعها زيد فأبت. فلما توفّيت أخذوها فأتلفوها «خشية أن يكون فيها ما ليس في المصحف العثماني[2]».

أدرك الخليفة عبد الملك بن مروان، وعامله في العراق الحجاج أن لا سبيل إلى إزالة الفوارق من القرآن، في المصاحف العثمانية والأخرى الناجية والقراءات الشفوية المعارضة، بإتلاف المصاحف السابقة جميعاً، بل بإصدار نصٍّ أكمل منها بإعجامه، وتشكيله بالنقط ممّا يساعد على تقارب القراءات الخطية والشفوية.

وكانت قائمةً في ذاك العصر حركةُ إِعجام التوراة عند علماء اليهود في طبريا وإِعجام الإنجيل المترجم عند علماء السريان في الرها، فاقتدى بهم جماعة الحجاج، ونقلوا عنهم في إِعجام القرآن وإصدار النسخة الثالثة والأخيرة للقرآن بإشراف الحجاج وإرشاده.

ومن الشُّبَهِ المؤلمة أن الأمة لم تحفظ إلى اليوم نسخة عن المصحف الإِمام. وزوالها الباكر يؤيد الرواية التي تجعل من الحجاج المصدر الأخير للنص القرآني الوحيد الباقي إلى اليوم. قال الأستاذ دروزة: «وإذا كان من المحتمل أن لا تكون إحدى نسخ مصاحف عثمان الأصلية باقية إلى اليوم ـ مع ما يقال عن وجود بعضها قولاً غير مؤيَّد بشاهد ووصف عياني موثوقين ـ فإن هذا لا ينقص ما نقوله من التواتر الفعلي ... وهناك رواية **أن المصحف المتداول إنما هو مصحف الحجاج وجمعه وترتيبه،** إذا كان يراد بذلك جمعاً وترتيباً جديدين، وأن الحجاج قد جمع **المصاحف المتداولة ومصاحف عثمان وابادها**[3]» بحجة

---

(١) قابل Blachère: Introd. au Coran p. 74

(٢) قابل Blachère: Intr. p. 70

(٣) دروزة: القرآن المجيد ٨٣ . وقال الدكتور صبحي الصالح : «وإن الباحث ليتساءل : أين أصبحت المصاحف العثمانية الآن ؟ ولن يظفر بجواب شاف عن هذا السؤال : فوجود الزركشة والنقوش الفاصلة بين السور أو المبيّنة لأعشار القرآن ، ينفي أن تكون المصاحف الأثرية في دار الكتب بالقاهرة عثمانية لأن المصاحف العثمانية كانت مجردة من كل هذا» (مباحث في علوم القرآن ١٠٠) . وزعْمُ كازانوفا عن وجود مصحف منها في مستهل القرن الرابع الهجري غير مؤثوق (Blachère: Introd 85)

إعجامها وتنقيطها. ويصعب على مثل الأستاذ أن يقبل بمثل هذه الرواية، فيقول عنها: « ولعلّ الرواية محرّفة عن حادثة عناية الحجاج بإعجام القرآن أو تنقيطه مما صار نسَّاخ القرآن بعدها يأخذون به ».

لو اقتصر أمر الحجاج على إعجام القرآن العثماني فقط لَمَا أتلف النسخ العثمانية ولكانت الأمة حفظت بعضها إلى اليوم لِقُدْسِيَّتها الزائدة. فإتلاف الحجاج للمصاحف العثمانية كان مثل إتلاف عثمان لمصاحف الصحابة، لجمع الأمة على نص واحد دون سواه مِمّا يخالفه؛ والشُّبهة القائمة الدائمة على إصدار عثمان وإصدار الحجاج هي إتلافهما لمصحف الصديق وللمصاحف المتداولة قبلهما لأنها تختلف عن المصحف الذي يصدره كلٌّ منهما وإلاَّ فما الداعي لإتلافهما ؟؟

وتتوارد الشواهد والأخبار عن عناية الحجاج الخاصة بالقرآن. « قيل على الأرجح أن أول من أمر بنقطه وشكله هو عبد الملك بن مروان، فتصدى لذلك عامله الحجاج بن يوسف الثقفي. فأمر الحسن البصري ويحيا بن يعمر، ففعلا ذلك[1] ».

وقد أجمعوا[2] على أن الحجاج قد غيّر في المصحف العثماني اثني عشر موضعاً:

« وكانت في سورة البقرة :	لم يتسنَّ	فغيرها الحجاج	لم يتسنَّهْ	ـ آية ٢٥٩
وكانت في سورة المائدة :	شريعة ومنهاجاً	//	شرعة ومنهاجاً	ـ آية ٤٨
وكانت في سورة يونس :	هو الذي ينشُرُكم	//	يُسيّركم	ـ آية ٤٢
وكانت في سورة يوسف :	أنا آتيكم بتأويله	//	أنا أنبئكم بتأويله	ـ آية ٤٥
وكانت في سورة المؤمنين :	سيقولون ِلله	//	سيقولون : الله	ـ آية ٨٧
وكانت في السورة نفسها أيضاً :	سيقولون لله	//	سيقولون : الله	ـ آية ٨٩
وكانت في سورة الشعراء، قصة نوح:	من المُخْرَجين	//	من المرجومين	ـ آية ١١٦

---

(١) ابن الخطيب : الفرقان ٤٩ . ويروي ابن أبي داود (١٤١) أن أوّل من نقّط المصاحف يحيى بن يعمر . وعارض المشروع قتادة وابن سيرين . أما الحسن البصري فكان موقفه غامضاً ، وربما عمل مضطراً . قال الدكتور صبحي الصالح في (مباحث في علوم القرآن) : لا نملك دليلاً محسوساً على أن يحيى بن يعمر كان حقاً أول من نقط القرآن (١١٦) ولعل عمل نصر بن عاصم الليثي في نقط القرآن أن يكون مواصلة لعمل أستاذيه أبي الأسود وابن يعمر (١١٧) .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ٥٠ والأستاذ دروزة : القرآن المجيد ٨٥ .

وكانت في السورة نفسها، قصة لوط:	من المرجومين	فغيرها الحجاج	من المخرجين	ــ آية ١٦٧ [1]
وكانت في سورة الزخرف :	نحن قسمنا بينهم معايشهم	//	معيشتهم	ـ آية ٣٢
وكانت في سورة الذين كفروا :	من ماءٍ غير ياسنٍ	//	غير آسن	ـ آية ١٥
وكانت في سورة الحديد :	فالذين آمنوا منكم واتقوا	//	وأنفقوا	ـ آية ٧
وكانت في سورة التكوير :	وما هو على الغيب بظنين	//	بضنين	ـ آية ٢٤))

ثم يعلق ابن الخطيب على هذه التغييرات للحجاج بأن آيات المائدة ويوسف والزخرف والحديد ((لم يقرأ بها أحد من القرّاء، بل القراءة المشهورة هي كما غيّرها الحجاج[٢])). وفي هذه الشهادة لعمل الحجاج وصحة عمله، وأفضلية قراءته إتهام صريح للمصحف العثماني: أيكون عثمان فرض على الأمة قراءة في مصحفه الأميري لم يقرأ بها كثيرون غيرُه، ولم يجرؤ أحد على القراءة الحقة حتى جاء الحجاج وأتلف المصاحف العثمانية وفرض القراءة المشهورة؟ إذن لم تكن قراءَة عثمان هي الحرف الأفصح دائماً ذا الإعجاز المنزل، بل ما اهتدى إليه الحجاج والحسن البصري!

وهذه التهمة تؤيد ما تواتر في الأحاديث الصحاح من أن عثمان ((فعل في المصاحف ما فعل ... فغيّر المصاحف)) ... وأسقط منها كثرة المنسوخ الذي كان في مصحف علي بن أبي طالب ... ((حتى سقط من المصحف قرآن كثير[٣])).

وإذا كان الحجاج قد اقتصر على تلك المواضع، ((**وكان فيها العلم والحق بجانبه**[٤])) فلماذا اتّبع هو أيضاً خطة عثمان في حرق جميع المصاحف سوى مصحفه؟ هل تطمئن النفس المؤمنة إلى مثل هذا العمل المنكر يصدر عن خليفة كعثمان؟ وتبلغ الريبة حد الثورة النفسية إذا قام بمثل ذاك العمل الأثيم رجل طاغية باغية مثل الحجاج لم يتورّع، للوصول إلى أهدافه السياسية، من هدم البيت الحرام، وإتلاف المصاحف العثمانية، والتطاول على المصحف الأميري وتنقيحه.

نرجو أن لا تكون النسخة الأخيرة التي حفظتها الأجيال من إصدار الحجاج كي

(١) بادل في الألفاظ ما بين القصتين من السورة ذاتها .
(٢) ابن الخطيب : الفرقان ٥٠ ـ ٥٢ في الحواشي .
(٣) راجع هذه الأحاديث وأسانيدها في هذا الفصل مع المراجع المذكورة في الحواشي .
(٤) ابن الخطيب : الفرقان ٥٠ ـ ٥٢ في الحواشي .

لا تكون سبب شبهة دائمة لا مرد لها. ومن غوامض التاريخ، كيف صحح الحجاج تلك المواضع، وترك في النصّ العثماني اللّحن الذي ذكرناه سابقاً؟... أن للحجاج يداً مشبوهة في المصحف العثماني.

*

بعد عثمان والحجاج «لم يمضِ على ذلك زمن كبير حتى عاد الناس إلى ما كانوا عليه من اختلاف في القراءة. فاتبع كل قطر قارئاً من القراء واستقرَّ أمرهم على سبع قراءات معينة تواتر نقلها. وأصحاب هذه القراءات هم: عبد الله بن كُثيّر في مكة، ونافع بن أبي رُوَيم في المدينة، وأبو عمرو بن العلاء في البصرة، وعاصم بن أبي النَجُود وحمزة بن حبيب الزيات وعلي الكسائي في الكوفة، وعبد الله بن عامر في الشام[1]. على أن هذه القراءات قد زيدتْ بعد ذلك إلى عشرة، هم أبو جعفر يزيد بن القعقاع في المدينة، ويعقوب الحضرمي في البصرة وخلف البزّاره في الكوفة. هذا غير قراءات أخرى لإعداد لها سُميّت شاذة، لشذوذها عن اللغة وعمَّا أجمع عليه المسلمون، ولتغييرها للألفاظ والمعاني في كثير من المواضع. وقد بلغ من هذه القراءات والاختلافات أن الآية الواحدة ـ التي لا يختلف في النطق بها ولا في معناها إثنان ـ قد يبلغ الاختلاف في روايتها إلى عشرين أو ثلاثين أو أكثر من ذلك. وقد بلغت هذه الطرق تسعماية وثمانين طريقاً للقراءات العشر فقط[2]».

*

تلك قصة إصدارات القرآن الثلاثة، على يد الصدّيق فعثمان فالحجاج. وهي قصة ذات

(١) قال القرطي: «قال كثيرون من علمائنا: هذه القراءات السبع ليست هي «الأحرف السبعة» التي اتسعت الصحابة في القراءة بها. وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من السبعة وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف. وقد سوّغ كل واحد من القرّاء السبعة قراءَة الآخرو أجازها» ـ في الحافظ: فضائل القرآن ٨٠.

(٢) وهذه أمثلة على اختلاف القراءات بعد توحيد النص العثماني، وضبط الحجاج له بالنقط والشكل: في سورة محمد: قتلوا، وفي رواية: قاتلوا. في سورة الحج: يُقاتِلون، وفي رواية يُقاتَلون. في سورة القصص: ساحران، وفي رواية: سِحْران. في سورة الأحزاب: أمهاتهم، وفي رواية زادوا: وهو أب لهم. في سورة مريم: قول الحق الذي فيه يمترون، وفي رواية: تمترون. في سورة النساء: مقيمين، فصحوها: مقيمون. في سورة الأنعام، بعضهم يقرأ: يقص؛ وبعضهم يقضي. في آل عمران: ولا يعلم تأويله إلا الله، والرسخون في العلم، يقولون: آمنا ـ هل الوقف بعد الله أم بعد «الراسخون في العلم؟ في نساء، فإن أنِستم، قرأ بعضهم؛ أحسَسْتم (٥) ولا أخ أو أخت إزاء بعضهم: من الأمم (١٥). في المائدة: فصيام ثلاثة أيام، زاد أبو حنيفة متتابعات. وفي يس: والشمس تجري لمستقرها، قال بعضهم: فالشمس لا تجري ... وأمثلة ذلك كثيرة في كتب التفسير.

شؤون وشجون. تطورت كثيراً، وتشعبت كثيراً. ولم يصل الثلاثة، في عهودهم الثلاثة، إلى نصٍّ موحد للقرآن إلاَّ بالحديد والنيران، وبعد مرور الزمن وطوارئ الحدثان.

وهكذا، فالتبديل في التنزيل (نحل ١٠١) والنسيان، والنسخ المتواصل حتى موت النبي (بقرة ١٠٦) والشكوك التي تساور النبي حيناً بد حين (يونس ٩٤) ورفع سور وآيات بعد تلاوتها في العهدين المكي والمدني، وإسقاط النبي، فالصدّيق فعثمان الكثير من المنسوخ، ثم المبادئ النبوية في نزول القرآن على سبعة أحرف من سبعة أبواب الجنة، والرخص الأربع التي تتفرّع عنه لتيسير القراءة على العرب الأميّين تسيّرها إباحة قراءة القرآن بالمعنى دون الحرف، ثم جمع القرآن الرسمي، فوق جمع مصاحف الخلفاء والصحابة، في صحف بدائية على أيام الصديق، وفي مصحف على أيام الفاروق، ثم توحيد النص على حرف واحد ولغة واحدة وقراءَة واحدة في مصحف واحد على أيام عثمان القتيل، بواسطة لجنة ثنائية، فرباعية، فاثنعشرية، مع حرق وخرق وإتلاف كل نصٍ سوى النص العثماني الموحّد؛ ثم تنقيح المصحف الأميري بيد الحجاج، بعد إتلاف المصاحف الأخرى كلها، حتى صحف حفصة أم المؤمنين، وحتى المصاحف العثمانية المقدَّسة؛ وذلك بعد التهم الضخمة الموجهة في الصحاح إلى عثمان أنه في مصحفه «قد ذهب منه قرآن كثير »، و « أُسقط فيما أُسقط من القرآن » و«قبل أن يغيّر عثمان المصاحف[1]»، وبعد الشبهة الثقيلة التي تحوم حول الحجاج ـ وما أدراك ما الحجاج ـ وهو المصدر الأخير للمصحف العثماني الوحيد الباقي إلى اليوم ...

كل هذا ما يسمونه معجزة « حفظ القرآن ».

ولئن كنَّا، بعد هذا كله، نتنكّر لمعجزةٍ في « حفظ » القرآن، فإننا لا ننكر صحة القرآن.

*

في ختام هذه الأبحاث في جمع القرآن وحفظه، نقول مع الذين يقولون ـ مع كل ما تقدم بيانه من وجوه الوهن والشبهات ـ بصحة القرآن **الحالي الجوهرية.**

فالمسلمون من شيعة وخوارج وروافض مجمعون مع أهل السنة على قبول المصحف العثماني الواحد الموحّد: تستنكر الشيعة إسقاط عثمان، على حسب قولهم، السور أو الآيات

---

(١) دروزة : القرآن المجيد : ٥٩ .

التي كانت تؤيد حقوق علي وآل البيت، ويُنكِرُ الخوارج سورة يوسف بحجة أنها قصة غرامية لا تليق بالقرآن؛ ويتنكر غيرهم لحملات القرآن الحالي على أخصام النبي، وكان « على خلق عظيم »، ولكنهم مع شكهم في سلامة المصحف العثماني، بسبب الأجزاء التي أُسقطتْ منه ـ وقد شهد بذلك بعض الصحابة أيضاً ـ فإنهم لا يشكون في صحته إجمالاً. فمثل هذا الإجماع على قبول نص المصحف العثماني الحالي برهان على صحته الجوهرية.

أضف إلى ذلك أن وحدة الإنشاء والنظم في القرآن كله، رغم تطور الأساليب فيه وتفاوت الآيات من كلمة، إلى كلمتين، إلى ثلاثة، إلى عشر، وهو غالب الآيات، إلى نصف صفحة (مزمل ٢٠) خصوصاً في السبع الطوال ـ مع أن أحسن ما في الحسن ما كان قصيراً ـ دليل أيضاً على وحدة الشخصية التي صدر عنها القرآن.

وقد جمع الأستاذ فيليب حتّي بين أقوال المسلمين والمستشرقين في هذه الشهادة على صحة القرآن: « ولقد اتفق دارسو القرآن، مع نقَّاده العلم الحديث، على صحة الرواية في نسخه المتداولة اليوم؛ وإن هذه النسخ تكاد تكون مطابقة للأصل الذي أقره زيد؛ وأن نصّ القرآن المعروف اليوم هو كما نزل على محمد[1] ».

وقد نجد بعض وَجْه الشبه في قصة جمع القرآن وقصة جمع الإنجيل: قال لوقا في مطلع إنجيله: « إذ كان كثيرون قد أخذوا في إنشاء رواية للأحداث التي جرت بيننا، على حسب ما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء شهود عيان، ثم صاروا خداماً، للكلمة، رأيتُ أنا أيضاً، بعد إذ تحققتُ بدقة جميع الأشياء منذ البدء أن أكتبها بحسب ترتيبها، لكي تعرف جيداً قوة التعليم المبشّر به » (١ : ١ ـ ٤). تعددت الروايات الشخصية للإنجيل الذي كان يسمعه النصارى من المبشرين به، فعزم الحواريون، رسل المسيح، على جمع الإنجيل الرسمي. وكذلك تعدّدت المصاحف الشخصية للقرآن فعزم الخلفاء من صحابة محمد على جمع القرآن في مصحف رسمي يقوم مقام المصاحف الشخصية للخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين وسائر الصحابة الصالحين: فكان « المصحف الأميري » العثماني الحالي.

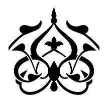
ولكن بينما أبقى صحابة المسيح على الأحرف الأربعة التي نزل بها الإنجيل عليهم، فقد أسقط صحابة محمد **ستّة** من الأحرف السبعة التي تداولوا بها القرآن.

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ١ : ١٧٠ قابل الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ١٠٣ .

وبينما يؤكد الإنجيل بأن الروح القدس يحلّ على الرسل الحواريين « يرشدهم إلى الحقيقة كلها » (يو ١٦ : ١٣) في جمع الإنجيل والكرازة به إلى الخليفة كلها (مر ١٦ : ١٥) ـ فهم معصومون إذن كتابةً ودعوةً ـ لا يسند القرآن شيئاً من الإلهام والعصمة إلى صحابة النبي وجامعي المصحف العثماني. والآية «إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » قيلت في محمد ولا تقصد صحابته، على أساس أن النبوة لا تورّث، كما جاء في الحديث.

وكلمة الفصل في هذا الفصل أننا نؤمن بصحة القرآن الحالي الجوهرية. وما ورد من هنات وشبهات في الأبحاث السابقة إنما هو ناتج عن نزول القرآن في بيئة «أميّة » بدائية بدوية. فكما أن الروح يتطبّع بطبيعة الجسد الذي يحدُّه، كذلك يتطبّع التنزيل بطابع البيئة التي ينزل فيها. فتلك الحدود البشرية لا بدَّ له منها، وتلك العوارض الطارئة على حفظ الذكر » لا تنفي عنه صحته الجوهرية.



بيئة القرآن الدينية

وفكرة التوحيد الكتابي في قلب الجزيرة العربية

« **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** » (يوسف ١٠٦)

« **ليسوا سواءً من أهل الكتاب أُمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** » (آل عمران ١٠٩)

يدَّعي غير واحد، مع حسين هيكل، أن الحجاز لم يتأثر بالحضارات المحيطة به، ولا بالأديان المنتشرة فيه، وظل بعيداً عنها منعزلاً في بداوته وبدائيته: « هاتان القوتان المتقابلتان، قوة المسيحية وقوة المجوسية، قوة الغرب وقوة الشرق ومعهما الدويلات المتصلة بهما والخاضعة لنفوذهما كانتا في أوائل القرن السادس الميلادي تحيطان بشبه جزيرة العرب. ومع ما كان لكل واحدة منهما من مطامع في الاستعمار والتوسع ومع ما كان يبذل رجال الدين في كلتيهما من الجهود لنشر الدعوة إلى العقيدة التي بها يؤمنون[1] فقد ظلت شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلاَّ في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوة الدينية، مسيحية أو مجوسية إلا في قليل من قبائلها. وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة لولا ما يفسّرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها؛ وما للموقع والطبيعة من أثر في حياة أهلها وأخلاقهم وميولهم ونزعاتهم ».

---

(١) لم يكن للزردشتية من رسل دين يبشرون بها ـ إلا كما لكل دعوة فكرية من أنصار ـ ولم يكن يسعى الأكاسرة لفرضها على الخاضعين لحكمهم . والحيرة النصرانية الخاضعة لهم أصدق شاهد على ذلك : جل ما هناك أن الأسرة المالكة في الحيرة لم تتنصّر إلا في أواخر عهدها بعد أن تنصّر الشعب كله أو كاد ؛ وعلى كل حال لم تأخذ بدين فارس الرسمي . لذلك من عدم انتشارها بين العرب لا يجوز التدليل على عدم انتشار النصرانية . والنفوذ النصراني بواسطة الحبشة من الجنوب ، والسوريين من الشمال كان أبلغ .

نقول إن هذه الظاهرة الغريبة ما وجدت إلا في خيال الدكتور، رحمه الله ، فالقرآن شاهد عيان عدل على تغلغل النصرانية واليهودية والحنيفية المنبثقة منهما إلى قلب الحجاز وفي مكة حول الكعبة حتى لم يسلم محمد والقرآن أنفسهما من تأثيرهما. فقد خضع قلب الجزيرة كما خضعت أطرافها إلى مؤثرات الحضارة والثقافة المجاورة، ولم يكن للحجاز مناعة أو حصانة عن تأثره بفكرة التوحيد المنتشرة حوله. ولم يحل ترامي أطرافه ولا شدة جدبه دون الغزو الديني، ولو منعه من الغزو الاستعماري.

ومن غير المسلمين، أمثال الدكتور حتـي[1] مَن مال بعض الشيء إلى الأخذ بفكرة مناعة وحصانة الحجاز عن التغلغل الديني: « والخلاصة أن الحجاز في القرن السابق لرسالة محمد كان محاطاً بمؤثرات ثقافية منبعثة من مصادر بيزنطية وسورية (أرامية) وفارسية وحبشية. وقد أتيح له بواسطة علاقته بالغساسنة واللخميين واليمنيين أن يأخذ ما أخذ من هذه الثقافات الخارجية. ولكن ذلك لا يعني أن الحجاز تأثر بمدينة الشمال التي فاقت ما عنده مرتبة تاثراً عميقاً قلب جوهر نقافته الخاصة. ومع أن النصرانية كانت قد علت أصولها بنجران واليهودية باليمن والحجاز فلم يتم لهما شيء من الهيمنة على العقلية العربية في الحجاز ».

قد يكون ذلك من الناحية الحضارية. ولكن ليس من الوجهة الثقافية والدينية: والقرآن أيضاً شاهد عدل على تأثر البيئة والدعوة القرآنية بدعوة التوحيد الكتابي التي غزت الجزيرة والحجاز من أطرافهما الأربعة: فقد تهيأت الأسباب الكافية الوافية، في تلك البيئة النائية المنعزلة، لظهور زعيم ديني وقومي عظيم مثل محمد.

*

كان الحجاز طريق المواصلات بين الشرق والغرب والشمال والجنوب حتى عدَّ القرآن رحلتي الشتاء والصيف من نعم المولى الكبيرة على قريش (سورة قريش) التي يستحق عليها رب البيت العبادة. وهذه الصلات المتواصلة ذات أثر بالغ عند جميع الشعوب.

وقد كان للروم والأحباش النصارى دويلات عربية من تدمر إلى الأنباط إلى حوران (غسَّان) إلى كندة فوق الحجاز من الشمال، واليمن ونجران وعدن من الجنوب، والناس على دين ملوكهم. وكان هؤلاء العرب يختلطون بإخوانهم ويدعونهم إلى عقيدتهم

---

(١) تاريخ العرب ١ : ١٥٢ ، وكذلك المستشرق بلاشير في كتابه Le Problème de Mahomet

وسياستهم. فقد دان الجنوب من اليمن حتى مدن الساحل الشرقي، والشمال من الحيرة وتدمر إلى بصرى إلى الأنباط بالتوحيد الكتابي، الإنجيلي أو التوراتي. وشاع هذا التوحيد من هناك إلى المستعمرات اليهودية في الحجاز كالمدينة وخيبر فدك، وإلى مواطن تنصّرت بكاملها كأيلة وتيماء ووادي القرى ودومة الجندل وتبوك ومعان. وليس أدلّ على تغلغل النفوذ الديني والثقافي إلى قلب الجزيرة من إشاعة النصرانية والتوحيد في دولة كِندَة، التابعة لتبابعة اليمن، وقد تنصّر ملوكها. فمن الثابت أن امرئ القيس كان نصرانيّاً، واستنصر بقيصر حتى يرجع له ملكه السليب. وكندة تُطل على الحجاز. فليس من المعقول أن يبقى الحجاز، الرحَّالة، بمعزل عن هذا الغزو التوحيدي.

ويذكر القرآن **مجوس** المزدكية ذكراً عابراً، ويكفر قول **المانوية** بالثنائية: ((ولا تقولوا إلهين اثنين))؛ ولكن الفكرتين والدعوتين لا يظهر أن لهما أثراً واضحاً في القرآن؛ بل بالعكس يظهر القرآن على طرفي نقيض منهما. فالأثر الوحيد الذي يملأ القرآن هو التوحيد الكتابي، التوراتي والإنجيلي.

ونقل الدكتور **ناصر الدين في كتابه** (مصادر الشعر الجاهلي) تفتح الحجاز **للغزو الثقافي**: ((هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها وتطيل المقام؛ بل تتّخذ منها موطناً آخر تقضي فيه حياتها وتنشِئ فيه ذريتها. فكانت هذه الذريات مختلفة الأديان والأجناس والأهداف. فمنهم النصراني واليهودي والمجوسي والوثني؛ ومنهم الفارسي والرومي والمصري والهندي والحبشي؛ ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيها دوراً للهو من غناءٍ وشراب وبغاء؛ ومنهم مَن جاءَها فأنشأ فيها مستعمرات زراعية فَعَمَر الأرض وأثارها هناك؛ ومنهم من جاءَ لغير هذا وذاك كالبعثات **التبشيرية الدينية** التي انبثّت في أنحاء الجزيرة وجاست خلالها وانتشرت بين أهلها وأقامت البيع والصوامع والأديرة في المدن والصحراء[1])).

ونوجز هنا ما فصله الأستاذ دروزة في كتابه (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) مستلهماً من القرآن عن **الغزو الديني للجزيرة والحجاز.**

---

(١) الدكتور ناصر الدين أسد : مصادر الشعر الجاهلي . ويذكر الدكتور مصادره : المحبر ٣٠٦ وفيه فصل في أبناء الحبشيات ؛ ابن هشام طبعة بولاق ١ : ٥٧ ، وفيه ذكر لجالية حبشية من النصارى ؛ وفي أسد الغابة (١ : ٢١٢ و ٤ : ٢٣٢ و ٥ : ١٩٤) أسماء كثير من الروم والروميات ؛ وفي سيرة ابن هشام أيضاً (١ : ٦٢) ذكر لرجل قبطي نجار بمكة ؛ وفي (١ : ٦٢) ذكر ليهودي من الشام قدم على بن قريظة وأقام عندهم؛ وفي (١ : ١٤٧) ذكر لنصراني من أهل نينوى ؛ وفي (٣ : ٤٥) ذكر لنبطي من نبط الشام قدم بالطعام يبيعه بالمدينة .

قال « في الفصل الثالث عن الجاليات الأجنبية في الحجاز، وعن النصارى والأجانب في مكة، وعن اليهود في المدينة، والنصارى والأجانب فيها:

« في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على وجود جاليات أجنبية في الحجاز وفي مكة والمدينة بنوع خاص، كانت تعيش إلى جانب العرب في عصر النبي عليه السلام (٩٥). وآية النحل ١٠٣، والفرقان ٤ تلهمان بالإضافة إلى وجود جالية أجنبية، إن بين أفراد هذه الجالية فريقاً متميزاً في عقله وثقافته الدينية وغير الدينية: لأن مشركي قريش لم يكن لهم أن ينسبوا هذا الأمر الخطير وهو تلقين النبي ص. وتعليمه ما يتلوه من الآيات والذكر الرائع في أسلوبه وروحانيته إلى شخص أو أشخاص، ما لم يكونوا قد عرفوا أنهم مظنة هذا التعليم والتلقين بما هم عليه من ثقافة وعقل [1] وهناك آيات مكية كثيرة نزلت في صدد أهل الكتاب، والاستشهاد بهم على اعتبار أنهم أهل العلم والذكر والكتاب في صدد موقفهم من الدعوة الإسلامية ومجادلتهم ومناقشة عقائدهم وخلافاتهم (أنعام ٢٠ و١١٤، أعراف ١٥٧، يونس ٦٤، رعد ٣٦، نحل ٤٣، إسراء ١٠٧، مريم ٣٤ ـ ٣٧، حج ٥٤، نمل ٧٦، قصص ٥٢ ـ ٥٥، عنكبوت ٤٦ ـ٤٧، روم ١ ـ ٥، شورى ١٤، زخرف ٥٧ ـ ٥٩ و ٦٣ ـ ٦٥) فهذه الآيات يمكن أن تلهمنا ما يلي:

١) إنه كان في مكة أناس من أهل الكتب السماوية، وكانوا من جملة من اتصل بهم النبي ص.

٢) إنهم لم يكونوا قليلين، وإن منهم من كان ذات سعة وثروة تمكنه من الاتفاق في سبيل البرّ والخير، كما أن منهم مَن كان قوي النفس والشخص لا يبالي بلوم زعماء المشركين على متابعتهم النبي ص. (قصص ٥٢ ـ٥٥). وهذا وذاك يلهمان أن منهم مَن كان أرقى طبقة من أرقاء وغلمان في خدمة الزعماء والتجار وملك ايمانهم.

٣) وإن منهم من كان متميزاً في ثقافته ومعارفه الدينية بحيث كان أهلاً للرجوع إليه واستشهاده في أمر رسالة النبي ص. وصحة وحي الله إليه وصدق القرآن؛ وإن هذا الفريق لم يكن نكرة في أوساط مكة، بل كان موضع اعتماد وثقة من العرب أو أهل مكة، ومرجع استفتاآتهم في الأمور والمعارف الدينية والدنيوية.

٤) إنهم على العموم كانوا رقيقي العاطفة دمثي الأخلاق، ثابتين في ما يعتقدون أنه الحق ولو لقوا في سبيل ذلك العنت جريئين في إظهار عقيدتهم: وقد تجلت جراءَتهم في متابعة النبي وسجودهم عند سماع القرآن وإعلانهم أنه الحق، وعدم مبالاتهم بما كان عليه أكثر أهل مكة وزعماؤهم الأقوياء من الموقف الجحودي.

---

(١) وقد أورد في الحاشية: « يجد المتتبع لروايات السيرة والتاريخ وأسماء الصحابة أسماء عدد غير قليل من الأجانب الذين كانوا في مكة في حقبة البعثة النبوية، منهم من كان مملوكاً ومنهم من كان صانعاً ومنهم من كان تاجراً. اقرأ تفسير البيضاوي على آيتي النحل والفرقان وتفسير الخازن ١ : ١٣٧، وابن هشام ١ : ١٨٢ و ٢٠٥ ـ ٢١٠ و ٢٩٦ ثم ٢ : ٢٣؛ و (أسْد الغابة في أسماء الصحابة) حيث يوجد فيه أسماء عدد كبير من الأحباش وغيرهم كانوا في مكة وأسلموا » .

٥) وإن الكتابيين الذين انطوت الآيات على ملهمات وجودهم في مكة هم أو أكثرهم من النصارى (٩٧ ـ ١٠٠).

« ومع أن المرجح كثيراً من هؤلاء من كان عربي الجنس، مستقراً في مكة [(١)] أو متردداً عليها [(٢)] من اليمن وأطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت النصرانية سائدة بين حضر العرب وقبائلهم والاتصال مستمراً ... وتنوع جنسيات الأجانب من رومية وحبشية وعراقية ومصرية وشامية وسريانية وفارسية، أحراراً وأرقاء يمكن أن يكون دليلاً على ما كان من صلات أهل الحجاز ومكة خاصةً ببلاد الشام وفارس ومصر والحبشة والعراق وصلات أهل هذه البلاد بهما ... والذي نرجحه أن أكثر أفراد الجالية الأجنبية المقيمين في مكة هم من نصارى الروم والسريان والسوريين. فبلاد الشام متصلة بالحجاز، والأسفار بينهما متوالية. وقديماً كانت مهجراً للإسرائيليين من بلاد الشام كما أنها كانت مقصداً للطرّاق يفدون إليها من حين إلى آخر، للأعمال الصناعية حيناً، والتجارية حيناً، والتبشيرية حيناً (١٠١)؛ ونريد أن ننبّه على أمر مهم، وهو أننا مع ما ذكرنا من احتمال كثرة عدد الكتابيين، والأجانب النصارى في مكة، فإننا لا نعني أنهم كانوا يؤلفون عدداً ضخماً، وأنه كان لهم كيان متكتل ذي أثر إيجابي واسع فيها، كما كان شأن الإسرائيليين في المدينة؛ بل نرجح أن عددهم لم يكن ليتجاوز المئات القليلة (١٠٣) ...

وإذا كنا رجحنا أن الكتابيين والأجانب كلهم أو جلهم نصارى، فإن هذا لا يعني كذلك أنه لم يكن في مكة إسرائيليون. وآيات الشعراء ١٩٢ ـ١٩٧ والأحقاف ١٠ تجعل الاستدلال بهما على لقاء النبي بعض الإسرائيليين في مكة صحيحاً وتجعل احتمال وجود بعض الإسرائيليين في مكة مستقرين قائماً ... ولكن نجزم بأنه لم يكن في مكة جالية إسرائيلية كبيرة أو ذات شأن إيجابي في حياتها ومجتمعها ... وكان في المدينة ومناطقها جاليات إسرائيلية كبيرة لا يعقل أن تكون في عزلة عن مكة (١٠٣ ـ ١٠٤) ويستلهم من فحوى الآيات المدنية أن اليهود في المدينة كانوا متكتلين وذوي مركز وأثر وكيان محسوس في المجتمع العربي ثقافياً ودينياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وحربياً (١٠٧)؛ كان لهم كيان طائفي وديني. وكان لهم معابد ومدارس وأحبار وربانيون، وكان لأحبارهم وربانييهم أثر كبير فيهم ... وكان بين بطونهم وبطون الأوس والخزرج محالفات. ويظهر أن هذه الصلات الحلفية كانت شديدة راسخة ... وقد وسعوا نطاق صلاتهم السياسية وتطابقهم في العصبية الاجتماعية العربية إلى خارج محيط المدينة. والأرجح أن الوفد اليهودي الذي ألّب قريش وأحزابها على غزو المدينة في السنة الهجرية الخامسة لم يكن ليذهب في سبيل مهمة خطرة لو لم يكن بين اليهود وقريش صلات ودّ وسياسة تمتد إلى ما قبل الهجرة وإلى ما قبل البعثة (١١٣). ويمكن أن يستدل من الآيات القرآنية على أن اليهود كانوا جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع

---

(١) « في حديث رواه البخاري عن عائشة ر. أن ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ر. كان قد تنصّر وقرأ العبرانية وكتب بها ؛ ووجود نصارى عرب غيره ، ولو أفراداً ، في مكة مما لا يتحمّل شكاً في اعتقادنا » .

(٢) « في كتاب (حياة محمد ٥٠٠) للدكتور هيكل إن وفداً نصرانياً قدم إلى مكة مستطلعاً ، وإنه لم يلبث أن آمن بصدق الرسالة وأن أهل مكة انتقده وعاب عليه عمله » .

ومنتشرة في أماكن كثيرة من منطقة يثرب والطريق المؤدية إلى الشام منها ... وتلك الجالية اليهودية الكبرى كانت على ما يبدو في منطقة مدينة يثرب بالذات حيث كان فيها ثلاث قبائل (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة) ربما بلغ عددها بضعة آلاف.

« وفي الآيات المدنية (بقرة ١١١ و ١١٣ و ١٢٠ و ١٣٥، آل عمران ٥٩ ـ ٦٢، نساء ١٧١ ـ ١٧٢، مائدة ١٥ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٥١ و ٧٢ ـ ٧٦ و ٨٢ ـ ٨٣ و ١١٦، حديد ٢٧، توبة ٢٩ ـ ٣٤) جاء ذكر النصارى استطراداً أو تعبيراً عن لسان حال، فإن أكثرها يحتوي دلالة قوية وصريحة على أن النبي قد التقى في المدينة أيضاً بطوائف مختلفة من النصارى في أوقات متفاوتة ودعاهم، ومنهم من بدا منه من مشهد تصديقي رائع (مائدة ٨٢ ـ ٨٣) ومنهم من جادل وكابر. وإذا كان من المرويات أن وفوداً نصرانية قدمت إلى المدينة من نجران واليمن ومن الحبشة ومن الشام واتصلت بالنبي ص. ومنها من تناظر معه وبقي على دينه، ومنهم من آمن، فإن ذكر أقوال ومواقف وعقائد النصارى في هذه الفصول ليسوّغ القول أنه كان في المدينة طائفة مستقرة من النصارى ومنهم من كان عرباً متنصرين من أهل المدينة أو عرباً من غير أهلها، ومنهم من هو أجنبي الجنس: وإذا كانت ظروف الشام قد حملت بعض النصارى غير العرب على النزوح إلى مكة والإقامة فيها، فالمتبادر أن لا يكون هذا قاصراً على مكة، لاسيما والمدينة أقرب إلى الشام من مكة، واقليمها أكثر احتمالاً على النازحين من الشام من إقليم مكة. وقد كانت هذه الميزات مما جعل الإسرائيليين النازحين عن الشام يفضلون الإقامة فيها (١٢٤ ـ ١٢٥).

وقال أيضاً في الفصل السابع: عن اليهودية والنصرانية ومدى انتشارهما، وأثرهما في عصر النبي وبيئته:

١ـ « لقد قررنا في الباب الأول أن وجود اليهود بكثرة في الحجاز، وبتعبير أدق في يثرب ومنطقتها يرجع إلى مدة غير قصيرة قبل البعثة، استدلالاً مما كان لهم من تمكن اجتماعي واقتصادي وزراعي، وقرى وحصون وقوة، ومن اندماج وثيق بالحياة العربية نوهت به الآيات القرآنية تنويهاً غير يسير.

كما قررنا أن خطاب القرآن عن بني إسرائيل يدل على أنهم كانوا جوالي أجنبية نازحة. وتقول الآن إنه ليس في القرآن شيء صريح عن وجود عرب يهود، أو بكلمة أخرى عن انتشار اليهودية بين عرب الحجاز. وكل ما هنالك آية تذكر أن من اليهود أميين « ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمـاني » (بقرة ٧٨) وقد كان تعبير الأميين يطلق على غير الإسرائيليين الذين يعدون أنفسهم شعب الله المختار، كما كان يطلق على العرب تبعاً لذلك (آل عمران ٧٥ جمعة ٢). فهل يمكن أن يقال إن الأميين في آية البقرة قد عُني بها فريق متهود من العرب أو عني بها الفريق الجاهل من يهود بني إسرائيل حيث تحتمل الكلمة هذا المعنى؟ إن سياق الآية أكثر إلهاماً لهذا المعنى، ومع هذا ليس بعيداً جداً أن يكون قد عُني به فريق متهود من العرب الذين لم يكونوا يعرفون لغة الكتب الدينية العبرانية أو لم يكونوا يعرفون القراءَة والكتابة أو الذين يغلب عليهم الجهل. وإذا تجاوزنا نطاق القرآن فإن هناك روايات تذكر أن بعض عرب الحجاز، وخاصة في يثرب، قد تهوّدوا. وان صلات النسب قد توطدت بين الإسرائيليين والعرب فكان من العرب من له خؤولة فيهم. ومعلوم أن النبي ص. قد تزوج بيهودية من خيبر. وإن القرآن قد أحلّ للمسلمين التزوّج بالكتابيات إطلاقاً، وقد يكون هذا عودة إلى ما كان أو إمضاءً لما كان.

هذا في الحجاز. (وأما عن اليمن) فقد ذكر المفسرون رواة السيرة في صدد تفسير سورة البروج (٤ ـ ٨) أن أحباراً من اليهود ذهبوا من يثرب إلى اليمن، وتمكّنوا من تهويد ملكها ذي نواس، وحمله أهل مملكته على اعتناق اليهودية. وإنه كان في المملكة نصارى وقفوا موقفاً عنيداً من هذه الحركة. فأغرى اليهود بهم الملك فخدّ أخدوداً طويلاً أوقد فيه النار وأمر بإحراق كل نصراني لا يعتنق اليهودية. وإن غزوة الأحباش لليمن واستيلاءهم عليها إنما كان باعثها المباشر اضطهاد نصارى اليمن. فإذا صح هذا فيكون اليهود قد نجحوا في نشر دينهم بمقياس واسع في اليمن ... والظاهر أن الأحباش، بعد أن غزوا اليمن وانتصروا عليها، وحكموا مدة غير وجيزة، وكانوا نصارى، وكان العداء مستحكماً بين اليهودية والنصرانية، قد شرّدوا اليهود عن اليمن، أو حملوهم على الارتداد عن اليهودية بالترغيب والترهيب وأنه لم تعد لليهودية قائمة فيها ...

وعدم انتشار الديانة اليهودية في بيئة النبي ص. قبل البعثة بنطاق واسع، لا يعني أن العرب كانوا في عزلة عن تأثيرها. فنحن نعتقد أنهم تأثروا بها إلى حد كبير. سواء في تطور الفكرة الدينية، وخاصة في فكرة « الله » ؛ وسواء في تقاليد انتساب العرب بالأبوة إلى إسماعيل وإبراهيم (ص)، وما تبعها من تقاليد متنوعة أخرى. وسواء ما كان عندهم من معارف ومعلومات وأفكار لها صبغة دينية مثل أنباء الأنبياء والرسل وقصصهم مع أممهم، وأخبار الملائكة وصلتهم بالله ، وقصة آدم وابليس؛ ومثل الوقوف على ما كان لهم من آراء ومذاهب، وما كان عندهم من كتب ومناصب دينية، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ... وسواء في الطقوس والعادات المتنوعة، كالختان، والتطهّر من الجنابة واعتزال النساء في المحيض، وفكرة اجتماعات يوم العروبة ـ وهو يوم الجمعة ـ وغير ذلك مما أشرنا إلى بعضه في الفصول السابقة؛ هذا بالإضافة إلى ما كان لهم من المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وما كان لهم بسبب ذلك من أثر في حياة العرب.

والذي نرجحه إن دعاوي اليهود (حول أبوة إبراهيم للعرب واليهود ، وحول صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة، والحج وتقاليده ، وحول زعمهم أن الأنبياء جميعهم من نسل أبيهم إسحاق) كانت تصدر منهم قبل البعثة على سبيل الزهو والافتخار على العرب من جهة، وتوطيداً لمركزهم الممتاز بينهم من جهة أخرى (٤٤٠ ـ ٤٤١).

٢ـ أما النصرانية فقد وصلنا في الاستدلال في الفصل الثالث إلى القول بوجود جالية أعجمية نصرانية في مكة وباحتمال وجود جالية أعجمية نصرانية في يثرب أيضاً. وبترجيح وجود عرب متنصرين مستقرين في بيئة النبي ص. وعصره.

أمّا في غير الحجاز فإنه، وان لم يكن في القرآن شيء صريح أيضاً عن مدى انتشارها بين العرب فإن فيه إشارات عديدة، تكاد تجمع الروايات على أنها في صدد اجتماعات وقعت بين النبي ص. ووفود نصرانية عربية، يمانية وشامية. وفي هذه الإشارات ما يلهم صحة ذلك: لأن منها ما حكي من تأثير السامعين بالقرآن إلى حد فيضان عيونهم بالدموع مما يحمل على القول إنهم كانوا يفهمون العبارة القرآنية فهماً وافياً، وهذا لا يحتمل إلاّ من العرب على ما هو المتبادر؛ وطبيعي إن وفادة وفود للاتصال والاستطلاع والمناظرة لا بد منه أن يكون وراءَها كتل اضطربت فيها الأفكار والأخبار. وفيه كذلك أمر بقتال الذين لا يحرمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من أهل الكتاب، أعقبه بعد آيات استطرادية قليلة، استنفار لغزوة بعيدة الشقة، أجمعت الروايات

على أنها غزوة تبوك، وأنها كانت ضد القبائل العربية التي يدين كثير منها بالنصرانية في مشارف الشام، والتي كانت تعتدي على القوافل والسابلة آناً بعد آن. فهذه الإشارات القرآنية، المفسرة بالروايات غير المتناقضة مع مضامينها، تسوّغ القول بأن النصرانية كانت منتشرة بنطاق واسع بين عرب مشارف الشام، وإنها كانت منتشرة في كتلة غير ضئيلة من عرب اليمن أيضاً. والروايات المعتبرة المتصلة بالمشاهدات التي هي درجة اليقين تؤيد ذلك من جهة؛ وتؤيد انتشارها كذلك في مدن وقرى وبوادي الشام والعراق وبين النهرين من جهة أخرى [1] .

وإذا كان مدى انتشار النصرانية في بيئة النبي ص. الخاصة ضيقاً فإن هذا لا يعني أن تأثيرها كان ضعيفاً أيضاً. فنحن نعتقد أن النصرانية كانت كاليهودية مصدراً من مصادر المعارف والأفكار الدينية التي كانت عند عرب الحجاز، والتي استدللنا عليها من آيات عديدة، لا سيما فكرة الشفاعة والشفعاء، واتخاذ بنين وبنات والملائكة، واعتبار كونهم بنات الله؛ ولعل فكرة الشفاعة والشفعاء واتخاذ الملائكة شفعاء هي في أصلها مما اقتبسه العرب من النصرانية وشفاعة قديسيها.

وفي آيات الزخرف ٥٧ ـ ٦٥ جدل العرب الطريف عن اتخاذهم الملائكة آلهة واعتبار أنفسهم في هذا أهدى سبيلاً من النصارى باتخاذهم عيسى ص. إلهاً؛ وفي آيات الأنعام ١٥ ـ ١٥٧ في اعتراف العرب بالله ؛ وفي آية فاطر ٤٢ التي حكت نذر العرب باتباع النذير الذي يجيئهم وقولهم أنهم سيكونون به أهدى من إحدى الأمم؛ وفي الآيات العديدة المكية التي تذكر ما كان من خلاف ونزاع وانقسام بين الأحزاب والفرق النصرانية، دلائل على ما كان عند عرب الحجاز، وعرب مكة خاصة، من إلمام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وإشكالات ولادة المسيح ص. ونبوته وصلبه وما كان فيها من مذاهب وآراء. وطبيعي أن يكون لهذا كله رد فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم. ويدل على ما كان من ثقة العرب السامعين بالنصارى ومعارفهم، كما هو الأمر بالنسبة لليهود؛ ممّا يستتبع التأثر بهم بطبيعة الحال.

وإذا أريد أن يقال أنه لم يكن في بيئة النبي ص. الخاصة من النصارى ما يمكن أن يكون له تأثير بالغ في العرب، كالذي يمكن أن يكون لليهود بسبب كثرتهم ـ فينبغي أن لا ننسى:

إنه كان في مكة من النصارى الذين هم مظنّة علم وتعليم ما يكفي لتأثير نابهيها الذين قادوا حركة المعارضة للنبي ص. والذين حكى القرآن على الأغلب مواقفهم وأقوالهم !

وإن مشركي مكة ذهبوا فيما ذهبوا إليه إلى أن النبي ص. نفسه قد تعلـّم وتأثر بهم (نحل ١٠٣ فرقان ٤).

وأن لا ننسى كذلك تلك الألوف المؤلفة من متنصرة العرب الذين كان الحجازيون خاصة يقدمون ويروحون إليهم في أسفارهم ورحلاتهم، ويخالطونهم مخالطة الشقيق، ويتفاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك.

---

(١) « أما الإشارات القرآنية التي نوهنا بها فهي: الاسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ القصص ٥٢ ـ ٥٥ الأعراف ١٥٧ مريم ١٦ ـ ٣٧ توبة ٣٥ نساء ١٧١ ـ ١٧٢ المائدة ٧٢ ـ ٧٩ و ٨٢ ـ ٨٤، وفي سلسلة طويلة من آل عمران التي أجمع الرواة على أنها في صدد المناظرة التي وقعت مع وفد نجران (٢٣ ـ ٦٤)، وفي آيات من سورة التوبة ٢٩ و ٣٤ و ٣٨ و ٤١ ـ ٤٢ و ١١٧ » .

وأن لا ننسى أيضاً أن كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج وأسواقه، ومنهم مَن كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة !

وأن الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب، برابطة الآباء والأجداد، ربطاً وثيقاً تتصل أواصره وتستمر مظاهره .

وأنه كان كثير من العرب غير النصارى، وخاصة الحجازيين، يصهرون إلى عرب النصارى، وبالعكس، فتزداد هذه الأواصر والمظاهر قوة ولحمة. وأن كل هذا من شأنه أن يهيئ لعرب الحجاز الفرص الكثيرة الوافية للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر (٤٥٦ ـ ٤٥٨).

ومما يلوح لنا من أسلوب الآيات القرآنية، ومن الروايات التي ذكرت أن الدعوة الإسلامية قد لاقت عند أفراد الجالية الكتابية النصرانية قبولاً حسناً، كما لاقت مثل ذلك في الأوساط النصرانية الأخرى وخاصة في الحبشة من جهة أخرى. إن هذه الفرق لم تكن قليلة العدد أو شاذة وإنها كانت تشغل حيزاً غير يسير. ولعل هذا مما يفسّر لنا إقبال النصارى في بلاد الشام ومصر على الإسلام في الأدوار الإسلامية الأولى.

٣ـ وهناك نقطة أخرى متصلة بهذا البحث عن اليهودية والنصرانية العربية ثم بالثقافة العربية بوجه عام: وهي ما إذا كانت التوراة والإنجيل في عصر النبي ص. وبيئته منقولاً إلى العربية أم لا؟

إن القرآن يحكي مواقف حِجَاج ومناظرة دينية بين النبي ص. من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى، ويحكي تأثر بعضهم بالقرآن وتصديقهم له، وإيمانهم به، ولقد استلهمنا من ذلك أن من بين الذين اتصلوا بالنبي ص. عرباً، كما أن غير العرب كانوا يفهمون العربية.

والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بأن آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى، ومنهم البدو ومنهم الحضر. وأنهم كان لهم دول وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق؛ ولهم أساقفتهم ورهبانهم وقسيسوهم وكنائسهم وأديارهم الكثيرة :

واستتباعاً لهذا فإن من السائغ أن يقال إنه لا بد من أن يكون بعض أسفار العهد القديم والعهد الجديد، إن لم يكن جميعها، قد ترجمت إلى العربية قبل الإسلام؛ وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والفتوح. نقول هذا لأننا لم نطلع على قول ما في صدد وجود ترجمة عربية لهذه الاسفار تمت إلى ما قبل البعثة. وكل ما عرفناه خبر ترجمة عربية لبعضها منسوب إلى القرون الإسلامية الوسطى.

ولعل ما في القرآن من أسماء وكلمات معربة كثيرة، ومن تعابير مترجمة متصلة بمحتويات هذه الأسفار مثل (التوراة والإنجيل وروح القدس وجبريل وميكال والزَّبور ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وإدريس ويوسف وموسى وهارون وقارون وفرعون وداود وسليمان وطالوت وجالوت، وعزيز ومسيح وعيسى وزكريا والياس واليشع وذي الكفل ويونس وأيوب وحواريين وسيناء وسينين ويهود ونصارى وتابوت الخ) مما تصح أن تكون قرائن على ذلك. ونرى أن هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات ألوف العرب النصارى، وآلاف الرهبان والقسيسين العرب، ومئات الكنائس والأديار العربية. وإذا صح ما نقوله فتكون هذه الترجمة مصدراً رئيسياً مدوّناً

من مصادر ثقافة العرب ومعارفهم النصرانية واليهودية، خاصة قبل البعثة، كما هو المتبادر ›› . (٤٦٨ - ٤٦٩) [1] .

ويعود الأستاذ دروزة في (سيرة الرسول) إلى ما قاله في (عصر النبي وبيئته) عن تفتّح **الحجاز للغزو الديني**: ‹‹ عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد **الحجاز والشام** واحتكوا بهم. وأخذوا عنهم كثيراً من الأفكار والمعارف. ومنهم

---

(١) ونحن، لإثبات وجود ترجمة عربية للكتاب والإنجيل ، نجد دليلين من القرآن والحديث : لعل في آية القرآن التي تصف النصارى ورهبانهم في صلاتهم بمكة والمدينة والحجاز ، وتميزهم عن سائر أهل الكتاب بقولها : ‹‹ ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ›› (آل عمران ١١٣) أصدق شاهد على وجود ترجمة عربية للتوراة والزبور والإنجيل : رهبان عرب أو غير عرب يتلون في الحجاز آيات الله آناء الليل لا يمكن أن يكون ذلك إلاَّ في لغة العرب .

وفي البقرة آية أخرى توحي بمثل ذلك عن اليهود والذين كانوا يترجمون الكتاب للعرب : ‹‹ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ›› (٧٩) . لم يكن اليهود يفهمون الكتاب العبراني بل ترجموه إلى الآرامي لهم ، ولا شك في أنهم يترجمون بالعربية لليهود المستعربين أو العرب المتهودين . ويزيدهما إيضاحاً تهديد القرآن للربانيين الذين ‹‹ يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ›› (بقرة ١٥٩ و ١٧٤) ، وتحدّي القرآن للمعارضين اليهود : ‹‹ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ›› (آل عمران ٩٣) فكيف يشهد السامعون على صدقهم أو كذبهم إذا تلوها بالعبرانية لا بالعربية ؟ إذن كانت مترجمة إلى العربية وتتلى بالعربية .

وقد جاء في مروج الذهب للمسعودي إن ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوج النبي ‹‹ قرأ الكتب ورغب عن الأوثان ›› . وذكر صاحب الأغاني نقلاً عن صحيح البخاري وصحح مسلم ‹‹ إنه تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني ويكتب بالعبرية من الإنجيل ما شاء أن يكتب ›› . ولعل لفظة ‹‹ بالعبرية›› محرفة عن ‹‹ بالعربية ›› لأن الإنجيل لم يكتب بالعبرية مثل الكتاب . فبحسب هذا الحديث يُعتبر ورقة بن نوفل أحد مترجمي الإنجيل إلى العربية قبل الإسلام .

وخاطب البغدادي في كتاب (التقييد) يذكر أن النبي لام عمرَ على ترجمته كتاباً من أهل الكتاب (ص٥٢) ولام أيضاً صحابياً ترجم كتاب دانيال (ص٥٧).

ونجد دليلين من التاريخ الخاص والعام . سجلت دائرة المعارف البريطانية وسائر المراجع ‹‹ إن الطبري روى عن هشام بن محمد أنه لما ذهب اليمني يستنجد النجاشي على ذي نواس وأنبأه بما فعل نصير اليهودية بالنصارى (في نجران واليمن) وأراه الإنجيل قد أحرقت النار بعضه ، كتب النجاشي إلى قيصر في ذلك وبعث إليه بالإنجيل المحرق ›› - قابل حسين هيكل في حيا ة محمد ٧٤. فهذا الإنجيل المتلو في اليمن والذي أحرقه ذو نواس لا شك إنه كان بالعربي ، كي يتلوه نصارى العرب .

ثم ‹‹ إن وجود عشرات ألوف العرب النصارى وألوف الرهبان والقسيسين العرب ومئات الكنائس والأديرة العربية ›› كما يقول الأستاذ دروزة، لا يقوم إلا بوجود ترجمة عربية للإنجيل والكتاب بجميع أقسامه لأن قراءَة التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل معاً من صلب صلواتهم التي لا تقوم بدونها، وفيها كانوا يتلون الكتاب والإنجيل بكاملهما على مدار السنة في الكنيسة . فهذه الأدلة النقلية والعقلية تقضي بوجود ترجمة عربية للكتاب والإنجيل ، قبل الإسلام .

من **دان باليهودية والنصرانية**. وتضلع باللغة العبرانية. واطلع على ما عند **اليهود والنصارى** من كتب. وقد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية. وكان **لكل ذلك** صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم على ما بسطناه في كتابنا (**عصر النبي وبيئته قبل البعثة**). وقد كان في **مكة خاصة** بعض الجاليات الكتابية (لا إفراد معزولون) يرجع تأريخ سكناها إلى ما قبل البعثة. وشهدت أدوار الدعوة النبوية ولم تكن في عزلة عنها بطبيعة الحال » (ص ٢٩٦).

ثم يقول عن **تفتح بيئة النبي لهذا الغزو الديني الكتابي**: « ولقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا (عصر النبي وبيئته) أن **أهل بيئة النبي ص.** كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستقرين منهم في الحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة. وان كثيراً من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة. وليس من الطبيعي، ولا من المعقول أن يبقى **النبي** ص. في عزلة أو غفلة عن هذا كله. حقيقة قد علّم الله النبي بوحيه وتنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلاً عنها هو وقومه. ولكن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلاً عن كل ما حوله من أمور وما يدور في بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين، عرب وغير عرب، من أنباء وقصص وظروف وحالات: فإن هذا يناقض طبائع الأشياء » (ص ٣٩).

ويقول عن **اتصال النبي الشخصي بأهل الكتاب**: « في سورة النمل آية تحكي دعوى بعض الكفار أن شخصاً أجنبيّاً معيناً كان يعلم النبي: « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما **يعلمه** بشر! لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١٠٣) والآية تنفي التعليم الذي يجحد نزول الوحي على النبي ص. غير أنها لا تنفي اتصالاً ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر. والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ما قالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي ص. كان يتردد على شخص من أفراد هذه الجالية في مكة، هو أهل علم وتعليم ديني، وله وقوف على الكتب السماوية ... وفي سورة الفرقان آية تحكي كذلك دعوى بعض الكفار أن النبي ص. كان يستعين في نظم القرآن بقوم آخرين: « وقال الذين كفروا: « إنْ هذا إلاَّ إفك افتراه **وأعانه** عليه قوم آخرون! ـ فقد جاؤوا ظلماً وزوراً » (٤). والآية إنما تنفي كذلك دعوى الاستعانة ولا تنفي اتصالاً أو صحبة النبي ص. وفريق من الناس. كما أن تعبير « قوم آخرين » يلهم أن المنسوب إليهم **أكثر من واحد**. وبالتالي

يسوغ القول إنه غير الشخص الأعجمي المعني في آية النمل. والذي يتبادر إلى الذهن أيضاً أن الكفار لم يكونوا ليقولوا ما قالوه مما حكته الآية لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبي ص. **حلقة أو رفاق** يجتمعون إليه ويجتمع إليهم ويتحدثون في الأمور الدينية. وليس من المستبعد ـ إن لم نقل من المرجح ـ أنّ هذا كان قبل البعثة ثم امتد إلى ما بعدها ». (ص٣٧).

*

أمية محمد

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال عن معنى نعت القرآن محمداً بالنبي الأمي في قولـه : « الذين يتبعون الرسول، النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » (أعراف ١٥٨) ـ فهل كان محمداً أميّاً ؟ بمعنى أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب؟ ولم يكتسب شيئاً من المعارف خارج نطاق الوحي؟

يظن كثيرون أن هذا النعت القرآني « أمي » يؤكد أمية محمد الكاملة استناداً إلى معنى اللفظ اللغوي: « الأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب أو الذي يقرأ ولا يكتب ». وفاتهم أن التعبير القرآني اصطلاح مأخوذ عن اليهود الذين ينعتون سواهم « بالأمّي » أو « الأميين » أي غير اليهود، أو من « الأمم » على الإطلاق. والقرآن شاهد عدل على هذا الاصطلاح والنعت المصطلح عليه: فالنبي الأمي يعني على لسان أهل الكتاب النبي الذي ليس من أهل الكتاب بل من « الأمم »، وعلى التخصيص تعني في القرآن وبيئته «النبي العربي» غير الكتابي.

فالقرآن يشهد بأن المقصود « بالنبي الأمي » هو المعنى الاصطلاحي لا المعنى اللغوي. في سورة آل عمران يميز بين الأميين والكتابيين من سكان الحجاز الذين ينفرد عنهم أتباع محمد: « فإن حاجُّوك فقل: أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعني. وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا » (٢٠). فمن هم في الحجاز الأميون غير الكتابيين، سوى العرب؟ ويظهر هذا الوصف وهذا المعنى بصراحة في سورة الجمعة: « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (٢). فالأميون هنا هم العرب، والنبي الأمي هو العربي. ويتخذ صفة الربانيين تجاه العرب، فهو مثلهم يعلّم أمته الكتاب والحكمة، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ليخرجهم من « ضلالهم المبين » الذي كانوا عليه دون كتاب منزل. وهذا التعليم والتدريس للكتاب يوحي أيضاً معنى « الكتابي » ومعنى « الأمّي » أي غير الكتابي؛ ويوحي كذلك مدى ثقافة محمد العامة والكتابية.

قال الأستاذ دروزة: «إن كلمة الأمي قد استعملت في آية الأعراف كما استعمل جمعها في الآيات القرآنية الأخرى بمعنى غير كتابي وغير كتابيين وصفاً للعرب الذين هم ليسوا أهل كتاب ... فهذه الآيات تلهم بقوة أن اليهود أنكروا نبوة النبي لأنه من العرب الأميين، وهو أمر مخالف لما كانوا يعتقدونه من اختصاص بني إسرائيل بالنبوات من دون الناس. فأكدت الآيات من جهة أن الله قد بعث في العرب الأميين رسولاً منهم ليعلمهم ويهديهم ... وردّت من جهة ثانية بأنه لا حرج على الله فهو صاحب الفضل يأتيه من يشاء[1]».

يعترضون من قوله: «وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك» (عنكبوت ٤٨) على ثقافة محمد، بسبيل إثبات أمّيته: «فهذه الآية من سورة العنكبوت مع آية الفرقان هما اللتان تفيدان أن النبي لم يكن يقرأ أو يكتب، لا كلمة الأمي التي وُصف بها في سورة الأعراف». وفاتهم أن آية العنكبوت لا تفيد بأن محمداً لم يكن يقرأ أو يكتب على الإطلاق، بل أنه قبل البعثة لم يكن يقرأ ويكتب الكتاب المقدس، بدليل قوله في سورة الشورى: «ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان؛ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء، وإنك لَتـُهْدى إلى صراط مستقيم» (٥٢). لم يكن محمد يعرف الكتاب المقدس ويقرأه ويكتبه؛ ولكن لمَّا اهتدى إليه وآمن به كما تصرح آية الشورى وآية الأنعام (٩٠) تبدّل الحال فصار يدْرس ويدرّس، يتعلَّم ويُعلم الكتاب والحكمة (جمعة ٢). وليس في هذا ضير على التنزيل، فقد فعل أنبياء الكتاب من قبل ذلك.

وقوله: «وقالوا: أساطير الأولين أكتبها: فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً» (فرقان ٥) تعني على الأرجح الكتابة الشخصية، بعد البعثة، والتي يرافقها الإملاء، لا الاستكتاب الذي لا حاجة فيه لمن لا يقرأ، ويكفي الأمي التعلّم بالحفظ غيباً لا الاستكتاب أو الكتابة. ولا يتعارض هذا مع آية العنكبوت لأن هذه تنفي تلاوة الكتاب المقدس وكتابته قبل البعثة، بينما آية الفرقان تؤكد كتابة النبي للكتاب المقدس بعد هدايته إليه والإيمان به وبعثته ليفصّله للعرب.

وفي تهمتهم للنبي مراراً «درستَ» وتحدّيه المشركين بقوله: «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» قرائن أخرى صريحة على أن محمداً كان يقرأ ويكتب لا بل يَدْرس ويُدَرّس

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٧ .

كما تلهم التهمة الجديدة التي ينسبونها إليه ولا يرد عليها؛ بل قوله « فهم يكتبون » يؤيد قولهم « درست ».

وهناك مطلع الوحي يؤيد جميع ما ورد في القرآن من قرائن. يُدْعى محمد فجأة للقراءَة في سورة العلق: « إقرأ »: هذه أول كلمة سمعها النبي في تنزيله. وقد وصف حديث أخرجه البخاري عن عائشة أم المؤمنين المشهد: «فجاءَه الملَك فقال: إقرأ ! ـ قال: ما أنا بقارئ ! ـ قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ ! ـ فقلتُ: ما أنا بقارئ ! فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ ! ـ فقلتُ ما أنا بقارئ ! ـ فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ! إقرأ، وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم! علّم الإنسان ما لم يعلم ». علّق عليه السندي: «فهم النبي ص. إنه أمْرٌ له أول الوهلة بالقراءة نفسها على الفور لا بتعلم القراءة كما يؤمَر الصبي: إقرأ ... والأمر وإن كان لا يقتضي الفور، لكن ربما يتبادر منه الفور. فالجواب منه ص. بقوله « ما أنا بقارئ » مبني على أنه فهم الأمر بالقراءَة نفسها على الفور ».

والقرينة الحاسمة على أنهُ قصد بالقراءَة، القراءَة بالذات، لا الحفظ غيباً، تفسيرُ السورة لطريقة هذا التعليم: « عَلَّمَ بالقلم »! فالقراءَة المقصودة بهذِهِ السورة تعني حصراً قراءة كتابة، والقراءَة التي تتمّ ثقافتها بالكتابة ؟ بالقلم.

ولا ينقضها قوله في سورة أخرى: « ولا تحرّك به لسانك لتعجل به: إنَّ علينا جمعه وقرآنه! فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » فهي بالعكس قرينة على أن القراءَة، قراءَةٌ بتحريك اللسان؛ وقد يبدو للنبي أن يبادر الوحي ويتعجّل القرآن، فجاءَه الأمر: « فإذا قرأناه فاتبعْ قراءَته ». واستعمال فعل واحد بلفظه ومعناه على لسان الملاك ولسان النبي، يعني القراءة الحقة في النبي كما في الملاك.

يؤيد هذا كله ما رواه الطبري عن ابن الزبير: « قال رسول الله ص. فجاءَني وأنا نائم **بنمط من ديباج فيه كتاب،** فقال اقرأ! فقلت: ما أقرأ! فغطني حتى ظننتُ أنه الموت، ثم أرسلني فقال: إقرأ! فقلت: ماذا أقرأ ؟ ـ وما أقول ذلك إلاَّ افتداءً من أن يعود إليَّ بمثل ما صنع بي ـ قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق ... علّمَ الإنسان ما لم يعلم »! **قال: فقرأته.** ثم انتهى، ثم انصرف عني ». إذا كانت « القراءَة، بحد ذاتها لا تعني « قراءَة كتابة » فهذا الوصف « بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ » يزيل كل شبهة.

قال الأستاذ دروزة: «ولقد وردت روايات تفيد إنه كان بعد بعثتِهِ **يكتب اسمه**: وإنه محا كتابة معينة بيده في أثناء مفاوضات صلح الحديبيّة، وكتابة عقد الصلح. وبقطع النظر عن سند ومضمون تلك الروايات فليس من المستبعد أن يكون قد تعلم القراءَة والكتابة **بعد بعثته**، كما أن الآية لا تنفي ذلك؛ غير أن هذا إن كان وقع، قد ظل فيما نعتقد في دائرة محدودة لا تعدو كتابة الاسم أو قراءَة بعض الجمل، لأنه لو تعدَّى هذه الدائرة لأثر في الروايات والأحاديث على الأقل[1]». ما يكون جرى بعد البعثة لماذا نستبعد حصوله قبل البعثة، وكان قد انضم إلى جماعة الحنفاء المثقفين، وسافر يتاجر للثرية خديجة والتجارة الدولية كتجارة قريش تقتضي الكتابة؛ ويخالط الأحبار والرهبان ويجالسهم، ولا يفعل ذلك إلا مثقف يريد أن يستفيد. هذا ما يؤيده القرآن والحديث.

جاء في (البلاذري) أن من أزواج النبي مَن كنّ يعرفن القراءَة والكتابة مثل حفصة بنت عمر، وأم كلثوم، أو القراءة دون الكتابة مثل عائشة وأم سلمة: أيكون النبي أقل ثقافة من نسائه؟ وهو رجل الدين ورجل الدولة الفرد!

وكانت ثقافة محمد أكثر من كتابة الاسم وقراءَة بعض الجمل. يروي الحديث أنه وهو على فراش الموت، صاح: « ائتوني بقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده أبداً ! » فتدخل عمر ومنع ذلك قائلاً: حسبنا كتاب الله[2] » !

ويجد المؤرخ الكبير كيتاني شاهداً من القرآن على سعة ثقافة محمد من المعارف الكثيرة التي يحويها القرآن، من كتابية وغير كتابية، وتاريخية وجغرافية واجتماعية وكونية ودينية. وليس من المألوف في تاريخ النبوة أن يخلقها الله خلقاً في نبي مع التنزيل. بل يفترضها التنزيل في النبي لأنها خارجة عن غرض الوحي. والوحي القرآني ينص في كل سوره على أنه يقتصر على التوحيد أي الإيمان بالله واليوم الآخر، وما يتبعه من شريعة للعمل بتلك العقيدة: «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً » (بقرة ٦٤) فليست ثقافة القرآن الواسعة بضرورية للتوحيد والإحسان حتى ينزّلها الله تنزيلاً في نبي يجهلها، بل يفترضها الوحي ويقترن بها. بل تتميز ثقافة كتاب منزل عن كتاب منزل، ويتميز أسلوبه عن أسلوب نبي آخر، بشخصية النبي وثقافته. ولا يكفي لمثل تلك المعارف أن تأتي عن طريق السماع، بل عن طريق « الدرس » كم يشهد القرآن.

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٤٥ .
(٢) ابن سعد : طبقات ٢ : (٢) ٣٦ ـ ٣٨ .

ونعرف من السيرة النبوية، ومن نهج البلاغة، في ما صح من نسبته لعلي بن أبي طالب، أنَّ عليّاً، كان ابن عم محمد وتِرْبَهَ وخدْنه، وقد تربيا معاً في بيت واحد؛ وليس من المعقول أن يفضل أبو طالب ابنه على ابن أخيه اليتيم. والمعروف أن علياً كان ذا ثقافة عالية قراءةً وكتابةً وخطابةً. وقال النبي عن شريك حياته ودعوته وجهاده: « كلام علي دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق »؛ فبمنعزل عن التنزيل، يجب أن يكون كلام النبي « الذي أعطي جوامع الكَلِمِ » أكثر من كلام عليّ فوق كلام المخلوق.

كان الأقدمون يشدّدون على « أميّة » محمد ظناً منهم أنها برهان قاطع على صحة الوحي إليه، أو على إعجاز القرآن. وفاتهم أن الوحي المعجز يأتلف مع الثقافة ويقتضيها؛ ويسمو بسموّها. وهذا موسى كليم الله ، إمام النبوة في الكتاب، وإمام محمد والقرآن (أحقاف ١٢) يقول عنه العهد الجديد من الكتاب: « وتثقف موسى بكل ثقافة مصر وحكمتها » (أعمال ٧: ٢٢) ! ولا يطعن هذا في صحة نبوته وإعجازها.

وبدأ القوم يفهمون ذلك. وهذا محمد صبيح يقول في كتابه (عن القرآن) بأن محمداً كان يعرف من لغات العرب غير لغة قريش؛ ويعرف غير لغات العرب من لغات الأجانب المقيمين في مكة؛ فكما كان هؤلاء الأجانب يعرفون لسان أهل مكة، كان محمد مثل أهل مكة يعرف لسانهم الخاص، ولاسيما وقد كان له بينهم «حلقة أو رفاق يجتمعون إليه ويجتمع إليهم». قال: « هل كان يعرف النبي لغة غير لغة قريش الحجازية المكية التي نراها في القرآن وفيما صح من الأحاديث؟ ... مهما اختلف الباحثون فقد أصبح واضحاً جليّاً أن اللغة العربية في الجاهلية لم تكن لغة واحدة ... ولم يعد من شك في أن جزيرة العرب كانت مستقر شعوب لا شعب واحد؛ وكانت هذه الشعوب تنطق بلغات كثيرة ... ومن المؤكد أن هؤلاء القوم الأجانب الذي حملتهم ظروف شتى على الإقامة في مكة كانوا يقيمون فيها وألسنتهم معهم، وكان اتصالهم بأهل هذه القرية يضطرهم إلى تعلّم لغتها العربية القرشية ـ كما تضطر القرشيين إلى تعلّم لغات هؤلاء الأجانب ـ وإذن فقد كان رسول الله يسمع **ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة وكان يفهم ما يتلى عليه**[1] ». فقد كان محمد يعرف غير لغة قريش وغير لغة العرب؛ وسعة معارف القرآن تؤكد هذه الثقافة الواسعة عند محمد.

*

(١) محمد صبيح : عن القرآن ١١٢ ـ ١١٦ .

كان للتوحيد الكتابي في الحجاز تأثيرٌ سلبيّ وإيجابي، وصل إلى النبي والقرآن.

نلمس **التأثير السلبي، بشكل عام،** في شِرْك العرب في مكة والحجاز: فقد أمسى شِرْكاً شكلياً، وصارت مظاهره عادة لا عبادة. فممَّا لا شك فيه أن دعوة التوحيد الكتابي قد قضت على الروح الوثنية في الحجاز وحملت لها ضربة قاتلة قبل ظهور محمد والقرآن: « فإن وثنية الجزيرة البالية كانت تضعضعتْ وتدنّتْ إلى حيث أضاعتْ مكانتها ولم يبقَ لها فاعلية في إحياء نفوس الأمة الخاملة وإيقاظها[1] ». واقتصرت تلك الوثنية البالية على شكليات لا إيمان فيها، فقد أدّت الفوضى السياسية الحجازية إلى « مزيد من حريّة الناس في التفكير والجهر بالرأي؛ وإلى إقدام اليهود والنصارى على تعيير العرب بعبادة الأوثان. وانتهى ذلك بكثير من أهل مكة ومن القرشيين أنفسهم إلى أن زالت من نفوسهم قداسة الأصنام، وإن ظل أمجاد مكة وسادتها (لمآرب مادية) يظهرون لها التقديس والعبادة[2] ».

ولم يتورع بعض هؤلاء الأمجاد، في عبد من أعياد شركائهم، من الاجتماع والتصريح بعضهم لبعض، كما ورد في السيرة النبوية: « تعلمون والله ما قومكم على شيء، وإنهم لفي ضلال! فما حجرٌ نطوف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجري دم النحور ؟! يا قوم التمسوا لكم ديناً عبر هذا الدين الذي أنتم عليه[3] ». إذن كانت البيئة المشرِكة في تفكّكٍ ديني بتأثير الدعوة التوحيدية الكتابية وتنتظر قائدها إلى الوحدة والتوحيد.

ونلمس **التأثير السلبيّ بشكل خاص،** في الشعر الجاهلي، وهو أعظم وأجلى مظاهر الفكر العربي قبل الإسلام. لم يكن البدوي، حتى اليوم، ديّناً بطبعه. وعرب الحجاز كانوا أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة، لذلك لم تغلب النزعة الدينية على شعرهم. ولكن من الثابت الواضح أن الروح الوثنية غير شائعة في الشعر الجاهلي، بل النزعة التوحيدية غالبة عليه؛ ويظهر أن امراءَه كانوا في الغالب نصارى أو حنفاء أو حكماء موحدين.

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ١ : ١٥٢ .
(٢) حسين هيكل : حياة محمد ٨٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ١ : ٢٣٧ ، قابل حسين هيكل : حياة محمد ٨٩ .

يذكر أحمد أمين[1] وجود مدرسة شعراء نصارى، في الحيرة، زعيمهم عدي بن زيد، وهؤلاء كان لهم مسحة خاصة في شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه. وقد أدخلوا على اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب دينية لم تكن تعرفها العرب.

وجاء في كتاب الأغاني إن الشاعر الاعشى تغنّى بالتوحيد في شعره حيثما ضرب في البلاد العربية وإنه أخذ ذلك عن نصارى الحيرة.

وشاعر الحيرة الكبير، النابغة الذبياني، تغنى بالتوحيد المسيحي وبمجلة الإنجيل يوم ترك الحيرة والتحق بالغساسنة:

مجلتهم ذات الإلـه ودينـهم قويم فما يرجون غير العواقبِ

وأمية بن الصلت من ثقيف في الطائف، وقس بن ساعدة أسقف نجران كانا يفدان على سوق عكاظ وينشدان قصائد التوحيد الحنفي والكتابي والمسيحي فتتناقلها العرب. واقتفى آثارهما شعراء المعلقات، وخاصة «المشوبات». فمسحة التوحيد غالبة على الشعر الجاهلي. وثقافته توحيدية لا وثنية ولا مشركة.

وتظهر أمارات **التأثير الإيجابي** ـ من دعوة التوحيد الكتابي ـ **في الروح التوحيدية العامة** التي تشع عند حكماء العرب الموحّدين قبل الإسلام. ويرجع انتساب هؤلاء الحكماء إلى لقمان ومجلته اللذين يذكرهما القرآن، وينتهون بحكيم العرب وخطيبهم، وداعيتهم الموحّد بقصائده الدينية، قس بن ساعدة الإيادي. وهذه الروح التوحيدية المتسامية التي تشق طريقها إلى النور **كانت شائعة بين الدعاة والمصلحين الموحّدين قبل محمد** أمثال أسعد أبي كرب في حمير؛ وسيف بن ذي يزن في اليمن؛ ووكيع بن سلمة بن زهير بن إياد صاحب «حزورة **مكة**»، «مناجي الإله في السُلَّم»؛ وصرمة بن أبي أنَس حكيم وراهب المدينة قبل هجرة محمد إليها؛ والداعية الأكبر إلى التوحيد في قصائده كان شاعر ثقيف الموحِّد أمية بن أبي الصلت الذي كان نِدّاً لمحمد في شخصه وقومه وقريته ودعوته التوحيدية: اكتفى بالدعوة الخطابية والشعرية إلى التوحيد فزالت بزواله؛ بينما زاد

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ٢٧.
والمستشرق الكبير نلدكه في كتابه عن (الأمراء اللخميين ص ٢٥) يقول : كانت أمارة الحيرة تغري قادة الرأي عند العرب ، أي الشعراء ، بزيارتها مراراً . وكانت فيها مدرسة مسيحية للشعر بزعامة زيد بن عدي. وقد أقام فيها طويلاً الأعشى الشاعر النصراني ، والنابغة الذبياني النصراني في شعره .

محمد على « جوامع الكَلِم » الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله ففاز ونال ما لم ينله غيره. ويذكر لنا القرآن، والأخباريون، أخبار أنبياء سبقوا محمداً ودعوا إلى التوحيد بين العرب أمثال هود وصالح من العرب العاربة؛ وتذكر التوراة من الأنبياء الذين ينتمون إلى العرب: مَلكي صادق في كنعان، وأيوب في حوران، وبلعام قرب تدمر، ويثرون في مدين. وفي أيام محمد ، وبعد نجاح دعوته زادت عدوى النبوة بين العرب حتى استأصلها الخلفاء. وعكاظ ، سوق الأدب عند العرب قبل محمد، وفي زمانه، قد سمعت قبل القرآن، ومع الشعر، دعوة التوحيد. وتذكر السيرة أن محمداً كان يحفظ أشعار التوحيد ويطرب لسماعها ويطلب المزيد منها.

ويظهر التأثير **الإيجابي** من دعوة التوحيد الكتابي بين عبر الحجاز، **خاصة في الدعوات التوحيدية المستقلة** التي ظهرت فيه قبل الإسلام. « نجد عند عرب تدمر عبادة «رب العالمين »، وعند عرب الأنباط عبادة « رب البيت » وعند عرب الصفا ومشارف الشام عبادة الرحيم « هارَحِم » ـ والهاء أداة تعريف عندهم ـ ونجد في الجنوب عبادة « ذي سموي » أو « بعل سمين » أي « إله السماء » ، ثم عبادة « رحمنن » أي الرحمان ـ والنون أداة تعريف بلغة الجنوب ـ ثم في الحجاز عبادة « الله » اسم الجلالة السامي والكتابي[1]؛ وعبادته بشهادة القرآن عبادة توحيدية. فجاءَ الإسلام ووحّد هذه العبادات التوحيدية المستقلة في بسملة واحدة هي عنوان التوحيد الشامل الكامل: « الله الرحمان الرحيم، رب البيت ورب العالمين » لإيلاف عرب الحجاز والشمال والجنوب.

وقد تبلور التوحيد الكتابي العربي المستقل في الحجاز في الحركة الحنيفية. أن عرب الحجاز الذين تأثروا بالدعوة الكتابية، ولم يدخلوا في نصرانية أو يهودية، وقد نبذوا شِرْك قومهم، « حنفوا » ـ أي مالوا عن دين العامة ـ إلى مذهبهم الخاص: التوحيد المستقل. وانتسبوا إلى إبراهيم، جد التوحيد، فوق الإنجيل والزبور والنبيين والتوراة. وكانوا يعتمدون «صحف » أو «كلمات إبراهيم » (بقرة ١٢٤) و «سنن الجاهلية » ثم « مجلة لقمان[2] ». ويميل العلماء المسلمون والمستشرقون إلى اعتبار محمد أحد هؤلاء الحنفاء ثم سيدهم؛ « وإنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه[3] ».

---

(١) الله صيغة عربية نزلت إلى العربية من السامية عن طريق الأرامية الشرقية « ألوهو » والغربيّة « أَللـّها ».

(٢) أسد الغابة: ٢ : ٣٧٨ .

(٣) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣١ .

والدعوة القرآنية في مكة كتابية من كل نواحيها. وهذه الدعوة هي الشاهد العدل النهائي على نفوذ الدعوة الكتابية إلى البيئة الحجازية والتغلغل فيها والسيطرة عليها، سيطرة بلغت أوج هيمنتها في الدعوة القرآنية فالقرآن ينتسب إلى الكتاب « وانه لفي زُبُر الأولين » (شعراء ١٩٢)، ويعتبره « إِمامه » (هود ١٧ وأحقاف ١٢). والقرآن يقدم نفسه إلى العرب «تصديقاً للكتاب وتفصيلاً له » (أنعام ١٧ و ٩٢، يونس ٣٧ بقرة ٨٩ و ٩١ و ١٠١). فالقرآن يستشهد بأهل الكتاب على صحة إيمانه وصدق توحيده: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزُّبر ». لا بل يحيل القرآن محمداً ـ عند الشك من نفسه ومن وحيه ـ إلى أهل الكتاب ليطمئن على صحة تعليمه (يونس ٩٤).

وقد علق على ذلك الأستاذ دروزة بقوله: **وختاماً فالإشارات الواردة في السور المكية تجمع كلها على التلقين بالوحدة التامة بينهم** »، بين محمد وجماعته وبين أهل الكتاب[1]؛ وقد خشي زعماء المشركين المعارضين لمحمد خطر هذه الوحدة الدينية « وخطورة تصديق أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والتنزيل القرآني، ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب، واعتمادٍ عليهم، وثقة بهم ». وخطورة هذه الشهادة له، من أهل الكتاب، جعلت النبي يستفتح عليهم : « قلْ: آمنوا به أو لا تؤمنوا: إن الذين أوتوا العِلم من قبله، إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سجّداً » (أسرار ١٠٧ ـ ١٠٩). فقد جاءت الآيات في مقام التحدي للكفار والتقريع لهم معلنةً أن جحودهم ومواقفهم لا قيمة لها ما دام الذين أوتوا العلم يقفون هذا الموقف التصديقي الخاشع. ولموقفهم الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة ».

فهذه « الوحدة التامة » بين التوحيد الكتابي والتوحيد القرآني المكي هي البرهان القاطع، الجامع المانع، على **سيطرة الدعوة الكتابية على البيئة الحجازية والمكية والقرآنية**.

وفي الهجرة إلى المدينة استقل التوحيد القرآني عن الكتاب قوميّاً عربيّاً على طريقة الحنفاء. كانت الحنيفية في مكة دين أهل الكتاب القيم: « قل هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيّماً، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » (أنعام ١٦١) فصارت في المدينة حنيفية الإسلام: وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ـ بل ملة إبراهيم حنيفاً »! واستقام محمد على التوحيد الكتابي الحنفي المستقل في « الإسلام ».

---

(١) محمد عزة دروزة : ص٣٠٥ ثم ٣٠٦ ثم ٣٠٨ ثم ٣١٢.

فالحنيفية ولدت محمداً. والتوحيد الكتابي، الإنجيلي والتوراتي، الذي اهتدى إليه (شورى ٢٥ أنعام ٩٠) ثقفه في الإسلام. ومحمد نشر هذا التوحيد الحنفي الكتابي وفرضها باسم ((الإسلام)) في بيئة أمست صالحة لقبوله.

فالجاهلية لم تكن عصر جهل في الدين والأدب والثقافة كما يُظن. بل كانت عند مولد محمد عصر نهضة شاملة في الأدب والدين والاقتصاد. وقريش، التي كانت في القرن الخامس زعيمة الحركة التجارية الدولية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، من الهند إلى الشام فمصر، ومن فارس إلى الحبشة، كانت أيضاً زعيمة الحركة الثقافية والدينية في مكة والحجاز. والنهضة الدينية التي كان توحيدية بتأثير الدعوة الكتابية، انتهت إلى النبي والقرآن والإسلام.

*

وهكذا أمست البيئة العربية والحجازية صالحة لتنبت محمداً والقرآن! وأمست صالحة لتقبل توحيد الإسلام، إن لم يكن ((بالحكمة والموعظة الحسنة، فبالحديد الذي فيه بأس شديد)) !

فليس في ظهور محمد والقرآن والإسلام في مكة والحجاز معجزة إلهية لا نظير لها. كما أنه ليس من معجزة إلهية في ظهور التوحيد الفلسفي عند فلاسفة الإغريق من سقراط إلى أفلاطون إلى أرسطو، وهم كانوا بعيدين عن كل تأثير كتابي وقَبْل الإنجيل بأجيال وفي محيط غاطس قلباً وقالباً في الوثنية الهمجية. ففي الطبيعة خوارق لا داعي لنسبتها مباشرة إلى الله - وإن كان في النهاية كل شيء منه وبأمره - وهذه الخوارق الطبيعية تفسّرها أسبابها. ناهيك عن انفجارات العبقرية البشرية التي تبدأ في التاريخ خطوطاً جديدة يسير عليها الناس ويعيشون منها أجيالاً وأجيالاً كأنها معجزات إلهية قائمة دائمة.

والفلسفة الإغريقية الرومانية التي عاصرت النصرانية في قرونها الأولى مع عميدها أفلوطين، وليد مصر، يسمّي في مذهب الأفلوطينية التي سادت الشرق والغرب، وتفاعل معها علماء النصرانية شرقاً وغرباً، وفي كتابه Enneades ، يسمي الله باسم الجلالة التوراتي والإنجيلي والقرآني ((**الأحد**)). ويقول: ((إن اسم **الأحد** ينفي كل تعدّد: هو الأحد لا إله سواه؛ وينفي كل تشبيه: فليس كمثله شيء؛ والأحد يحدّ كل شيء ولا يحدّه شيءٌ؛ يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار. ونحن نستطيع أن نقول عنه ما ليس إياه، ولكن لا نقدر أن نقول ما هو في ذاته[١])).

---

(١) Thonnard: Précis d'Hist. de la Philosophie 169

أليس هذا هو جوهر الإسلام والقرآن في تعابيرهما؛ وذلك **قبل** النبي العربي بمئات السنين؟ فاسم الله « الأحد » نزلت به التوراة ونقله فيلون اليهودي الإسكندري إلى الفلسفة الإغريقية لما حاول تقريبها من التوحيد التوراتي. ثم جاء أفلوطين هذا، المصري المنشأ، فجعلها فلسفة جامعة، جمع فيها الفلسفة الإغريقية، والتوحيد الكتابي، والغنوصية الشرقية في اسم الجلالة «الأحد» مصدر الوجود والسعادة[1].

ودعوة التوحيد القرآنية في مكة والمدينة والحجاز لم تكن دعوة التوحيد البكر فيها. فقد كان التوحيد الكتابي منتشراً فيها. وتفرع عنه التوحيد العربي المستقل في جماعات موحدة عديدة وحركة حنيفية عامة. ومن بقي من عرب الحجاز على الشِرْك، لمنافع مادية حول الكعبة[2]، أمسى شركه تقليداً ظاهريّاً وجسماً بلا روح. فقد زالت قداسة الأصنام من نفوسهم؛ والقرآن يشهد بأنهم يعرفون الله ويجلّونه: « ولئن سألتهم مَن خلقهم، ليقولنَّ: الله » (زخرف ٨٧، زمر ٣٨، لقمان ٢٧، عنكبوت ٦١) وما أمرُ الشفعاء، أو كما يسميهم القرآن «الشركاء» إلا زلفى إلى الله: « ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى » (زمر ٣)؛ وهذا التزلف إلى الله ليس من الشِرْك الحقيقي في شيء، بل هو تطرّف شعبي قام ويقوم في كل دعوات التوحيد الخالص. وإذا اتُهموا بشرْك فعلي يحلفون الأيامين: « واللهِ ربنا ما كنَّا مشركين » (أنعام ٢٣).

وإسلام القرآن، يشهد القرآن بأن أهل الكتاب كانوا عليه لفظاً ومعنى في الحجاز ذاته قبل القرآن: « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون؛ وإذا يُتلى عليهم قالوا: آمنا به ! إنه الحق من ربنا ! إنَّا كنَّا من قبله مسلمين » (قصص ٥٣). والإسلام لفظاً ومعنى في الكتاب قبل القرآن « هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفي هذا » (حج ٨٧). وأهل الكتاب يحيون الإسلام ويدعون إليه قبل القرآن؛ ويصف القرآن أمة رهبان عيسى في مكة والمدينة والحجاز بهذا الوصف الرائع: « ليسوا سواءً من أهل الكتاب

---

(١) Plotin: Enneades, dans col. Budé, par Bréhier, en 7 vol. قابل فيها المجموعة الخامسة ، كتاب خامس ف٤ ص ٩٥ ، وف ٦ ص ٩٨ .

(٢) يذكر القرآن صراحة هذه الحالة وهذا التمسك المادّي بالكعبة ومنافعها : « وقالوا : إن نتبع الهدى معك نختطف من أرضنا ـ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُجني إليه ثمرات كل شيءٍ رزقاً من لدنا » (قصص ٥٧)، الجواب ينصح عن مضمون الاعتراض . وكان هذا موقف المسلمين لما حرّم القرآن على المشركين الحج إلى الكعبة (توبة) .

أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون! يؤمنون بالله واليوم الآخر! ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر! ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين » ! (آل عمران ١١٣ ـ ١١٤)[١] فهم يتلون آيات الله في صلواتهم آناء الليل، ويدعون إلى الإسلام الكتابي أطراف النهار، حتى شاع إسلام التوحيد الكتابي في مكة والمدينة والحجاز. والقرآن هو الشاهد العدل على ذلك كما رأيت. ولذلك حتم الدكتور جواد علي كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام[٢]) في (ديانات أهل الجاهلية قبل الإسلام) بهذا الحكم النهائي: « إن عقيدة الجاهلين في الله ، وحجهم إلى البيت، وقسمهم به نتيجة تطور طويل مرّ على الحياة الدينية لعرب الجاهلية اختتم بظهور الإسلام ودخول أكثرهم فيه ... فقد كان أهل مكة على مقالة من التوحيد والدين وعلى تيقّظ وشك في أمر الشفعاء والشركاء والأصنام حمل الكثيرين منهم على الشك في ديانة قومهم وعلى الدعوة إلى الإصلاح ... (وذلك بسبب انتشار الدعوة الكتابية) ... **فعبادة أهل مكة هي عبادة محمد، وتوحيدهم توحيد إسلامي، أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي » .**

*

ويصور لنا القرآن حقيقة رسالة محمد أصدق تصوير وأروعه. فقد كان هدفها الأخير توحيد التوحيد الكتابي، التوراتي والإنجيلي، والتوحيد العربي بجميع أشكاله، على « كلمة سواء» (آل عمران ٦٤) في « أمة وسط » (بقرة ١٤٣) بعقيدتها وتشريعها، بين الشرق والغرب، وبين الكتابيين والمشركين، وبين النصارى واليهود من أهل الكتاب. وهذه الكلمة السواء هي الذكر الجديد، بياناً للذكر القديم: « وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم، ولعلهم يتفكرون » (نحل ٢٤). وقد جاء القرآن «ذكراً وتفصيلاً وتصديقاً للكتاب الإمام » (هود ١٧ أنعام ١٧) حتى يبين للناس ما نُزّل إليهم من قبل ويجمعهم عليه في « الإسلام ». وهذا هو وعد الله ، والفوز العظيم «في التوراة والإنجيل والقرآن » (توبة ١١١).

وفضل « النبي الأمّي » على العرب وعلى العالم أنه هو باعث الوحدة القومية والوحدة الدينية الكتابية العربية في الجزيرة، وناشر دين التوحيد الكتابي والقرآني في الشرق. بعد

---

(١) في سياق هذا القسم من السورة يميز القرآن هذه الأمة من أهل الكتاب عن سائر أهل الكتاب ، وعن أهل القرآن .

(٢) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤٢٤ و ٤٢٨ .

أن يَئِس من طريقة الدعوة «بالحكمة والموعظة الحسنة» التي اتّبعها مع أهل الكتاب في مكة؛ التجأ في المدينة إلى طريقة «الحديد الذي فيه بأس شديد و منافع للناس» (حديد ٢٥) ففرض بها هذا التوحيد الكتابي والقرآن باسم «الإسلام».

هذا هو النبي «النبي الأمّي» !

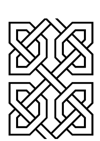
وهذا القرآن «القرآن المجيد» !

كما ظهر في بيئتهما، ما بين أديان شبه الجزيرة العربية قُبَيل الإسلام.

وقد أجمع كتاب المسلمين، مع حسين هيكل، على «أن الكتاب الله هو وحده معجزة محمد[١]». وهذه المعجزة قد تكون في بيانه وقد تكون في تعليمه، أو في كليهما معاً. قال العتابي: «الألفاظ أجساد والمعاني أرواح» والروح أسمى من الجسد. لذلك قبل أن يكون القرآن معجزاً بسحر بيانه، يجب أن يكون معجزاً في تعليمه الذي لم يسبقه إليه أحد.

فما هي معجزة التعليم القرآني ؟

وقبل ذلك كيف تطورت الدعوة القرآنية ؟



(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ١٠٧ .

المؤلف والمجموعة

[Blank Page]

مجموعة الأستاذ الحداد القرآنيّة والإنجيليّة

أولاً : المؤلف

الأب يوسف درّة الحدّاد (١٩١٣ ـ ١٩٧٩)، المعروف يضاً بـ « الأستاذ الحدّاد » ، من يبرود (القلمون) مولداً ، ومن خرّيجي إكليريكية القديسة حنّة (الصلاحيّة) في القدس ثقافة.

خدم النفوس بعد سيامته الكهنوتية (١٩٣٩) في أبرشيّتي حمص وبعلبك ، ثم انقطع زهاء عشرين سنة للبحث والكتابة في حقل استهواه منذ أيام التلمذة، حقل **الشؤون القرآنية** على وجه عام ، والمعضلات **الإسلامية المسيحية** ، **والدراسات الإنجيلية والكتابيّة** على وجه خاص.

فأكبّ بجلد على العمل ، قلّ أن يضاهى بمثله ، وبقدرة على الاستساغة والتأليف تثير الإعجاب ، فأنتج نتاجاً ضخماً جدّاً، بعضه نشر وبعضه لا يزال مخطوطاً أو قيد الطبع.

ثانياً : المجموعة

مجموعة الأستاذ الحدّاد من أبرز المجموعات الدراسية التي ظهرت في الآونة الأخيرة ، ومن أوسعها موضوعاً ، وأعمقها تحليلاً ، وأنزهها هدفاً . وأسلمها أسلوباً . وهي تتألف من ثلاث

سلاسل: سلسلة **الدروس القرآنيّة** ، وسلسلة **الحوار الإسلامي المسيحي** ، وسلسلة **الدراسات الإنجيليّة .**

وفي كل سلسلة طائفة من البحوث القيّمة قلّما عرض لها مفكّر مثلما عرض لها الأستاذ الحدّاد ، وقلّما تعمّق في حقائقها عالِم كما تعمّق وكشف عن أسرارها وخفاياها الأستاذ الحدّاد ، وذلك كله بفكر ثاقب لا يكاد يخطئ هدفاً ، وعلم واسع لا يعرف إلا الدقة والتدقيق أسلوباً ، وقلم صريح لا يخشى إلا خيانة الحقيقة والتقصير في خدمتها ، وجلَد لا مثيل لـه يتتبع أوثق المصادر والمراجع القديمة والحديثة، فيجول في عالمها جولة قدير ، ويقارن ما بين نصوصها مقارنة ناقد حاذق ، لا تلهيه القشور، ولا تغشي بصره الميول . إنه رسول حقيقة ، في عالم من الاضطراب والمفارقات.

وهكذا كانت مجموعة الحدّاد ، على ما فيها من بعض الشوائب التقنيّة ، موسوعة ضخمة ، لا عهد لنا بفرد طوى في ميدانها بقدر ما طوى هو وبمثل ما طوى . ولهذا كانت مرجع الباحث الذي يطلب العلم ، ومنهل الوارد الذي يطمح إلى المعرفة.

(الأب جورج فاخوري البولسي)

للمؤلف

١ دروس قرآنية

١ ـ الإنجيل في القرآن (طبعة ثانية)

٢ ـ القرآن و الكتاب (طبعة ثانية)

* الكتاب الأول : **بيئة القرآن الكتابية**
* الكتاب الثاني : **أطوار الدعوة القرآنية**

٣ ـ نظم القرآن و الكتاب (طبعة ثانية)

* الكتاب الأول : **إعجاز القرآن**
* الكتاب الثاني : **معجزة القرآن**

٢ في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي

١ ـ مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي
٢ ـ القرآن دعوة « نصرانية »
٣ ـ القرآن و المسيحيّة
٤ ـ أسرار القرآن (مخطوطة)
٥ ـ المسيح و محمّد في عرف القرآن (مخطوطة)
٦ ـ سيرة محمد و سرة (مخطوطة)

٣ دراسات إنجيلية (مصادر الوحي الإنجيلي)

١ ـ الدفاع عن المسيحية

(في الإنجيل بحسب متى و بحسب مرقص)

٢ ـ تاريخ المسيحية

(في الإنجيل بحسب لوقا و في سفر أعمال الرسل)

٣ ـ فلسفة المسيحية

* الكتاب الأول : **الرسول بولس**

* الكتاب الثاني : **رسائل بولس**

٤ ـ صوفية المسيحية

* الكتاب الأول : **في الإنجيل بحسب يوحنا**

* الكتاب الثاني : **في سفر الرؤيا**

٥ ـ المسيح في الإنجيل (مخطوطة)

٦ ـ « إنجيل » بولس (مخطوطة)

٧ ـ سيرة المسيح و سرّه (مخطوطة)

٨ ـ دروس إنجيليّة (مخطوطة)

٩ ـ الدفاع عن المسيحيّة من تاريخها و تعليمها (مخطوطة)